أغرب جاسوسية في التاريخ





تاليف

أ. هـ. كوكريدج

دار الكاتب العربي
بيروت

أغرب جاسوسية
في التـــاريخ

أغرب جاسوسية في التاريخ

تاليف
أ. ه. كوكريدج
ترجمة : وديع سعيد

دار الكاتب العربي
بيروت

مقدمة

هذه دراسة كاملة تروي تاريخ أغرب نظام جاسوسية عرف في التاريخ . وهي تتضمن—للمرة الأولى—تفاصيل وافية مدعمة بالوثائق والأسانيد والمعلومات المستقاة من أوثق المصادر علماً وأكثرها صدقاً عن تلك الشبكة الواسعة من العملاء والوشاة والنامين والمخدوعين التي شملت العالم كله من الولايات المتحدة إلى أصغر امارة في أوروبة .

وقد كتب هذه الدراسة الصحفي البريطاني « كوكريدج » الذي اشتهر بكتاباته في الشؤون السياسية ، وكان من عملاء المخابرات السرية ، وهو حجة في شؤون روسيا السوفياتية ، ونراه في هذا الكتاب يكشف للمرة الأولى عن التحالف السري الذي عقد بين عملاء السوفيات والغستابو قبل الحرب العالمية الثانية ، ويروي —لأول مرة أيضاً— كيف أصدرت موسكو الأمر بقتل « جان مازاريك » وكيف أن « أوتو كاتز » الذي نفذ هذا الأمر قتل لأنه كان يعرف أكثر مما يجب .

ويروي« كوكريدج»في هذا الكتاب الظروف التي أنقذ فيها عملاء السوفيات الرئيس الأميركي « روزفلت » من الموت في طهران ، والنجاح المنقطع النظير الذي أصابه « ريتشارد سورج » الملقب « بمهندس النصر في ستالينغراد » الذي ظل خلال الحرب يدير شبكة جاسوسية ويقوم بأعمال تجسس لا يصدقها العقل

في ظل قصر الامبراطور « هيروهيتو » .

ويقول المؤلف ان هذه الشبكة تضم ربع مليون من العملاء العاملين ، أي نحو عشرة أمثال العملاء الذين تستخدمهم جميع الأمم الغربية مجتمعة ، كما تضم نحو نصف مليون آخرين شبه محترفين ، من المبلغين والطابور الخامس .

ويتألف جهاز المخابرات السرية في الاتحاد السوفياتي من عدد من الهيئات ، أكبرها وأهمها : المخابرات ، وإدارة مكافحة المخابرات ، وقد تطورت هـــذه الادارات وتشعبت من أقسام المخابرات الأجنبية للتشيكا (اللجنة غير العـادية لمكافحة العناصر المناهضة للثورة ومحاربة أعمال التخريب وقد تألفت في عام ١٩١٧) ، ومختلف مكاتب وأقسام التهييج، والدعاية، والمواصلات، والمخابرات الدولية الشيوعية « الكومنترن » التي لم تلبث أن اندمجت في الادارة السياسية للدولة (الغيبيو) وألحقت بعد ذلك بقوميسيريات وزارتي الداخلية وأمن الدولة.

وهناك أقسام مخابرات أخرى لمختلف الوزارات والجيش. وقد رأى المؤلف لكثرة عدد هـــذه الهيئات ومنعاً من الخلط والارتباك أن يشير إليها بكلمة « التشيكا » .

الفصل الأول
المخابرات السرية السوفياتية

لا يخفى ان جميع الأمم تعتمد على الجاسوسية حتى في زمن السلم ، ولا عجب فان حكام بريطانيا والولايات المتحدة ، وجميع الدول الديمقراطية يصبحون مهملين لواجبهم نحو مواطنيهم إذا لم يجعلوا همهم الكشف عن القوى التي قد تواجههم إذا ما نشبت حرب .

والجاسوسية بطبيعتها تقتضي المكر والدهاء والفن والخيانة ، وعمل أشياء في الخفاء لا يمكن إتيانها علناً ، وبرغم هذا تتمسك الحكومات في زمن الحرب على الأقل بتقاليد أو اتفاقات غير مكتوبة . فالديبلوماسيون والملحقون العسكريون يحاولون معرفة أكثر ما يمكنهم من أسرار ، ولكنهم لا يقرون الخطف أو الاغتيال ، ولا يحاولون العمل بشكل منتظم على استخدام الاغراء والتشهير في القضاء على المواطنين في البلاد التي يتمتعون بضيافتها. إلا أن المخابرات السرية السوفياتية تختلف في هذا وغير هذا عن المخابرات في أي بلد آخر وفي أي وقت آخر .

وربما استرعت الجاسوسية العسكرية اهتماماً أكبر ، ولكنها مع هذا ليست سوى جزء طفيف من عمل الجواسيس السوفيات ، فالانقلابات الكبيرة التي قامت بها المخابرات السوفياتية للحصول على أسرار الذرة كانت مجرد حلقات من

هذه السلسلة الكبيرة في أعمال التجسس . وقد أثارت الخواطر عندما اكتشفت لأن الموضوع كان ما زال جديداً ، ولأننا كنا – وقت اكتشافها – نعدّ الروس أصدقاءنا . والخطر الحقيقي للجاسوسية السوفياتيـــة ليس في حوادث سرقة رسوم الأسلحة الحديثة ، وإنما يكمن في الضغط المتوالي في كل مكان يوماً بعـد يوم ، وسنة بعد سنة . وهذا سيهدم القيم البشرية ويفسد الانسان . وقد أوضح « ونستون تشرشل » هذه النقطة في مجلس العموم البريطاني خلال عـام ١٩٤٦ عندما قال : « ان كثيراً من الدول تسعى للحصول على معلومات عن شؤون الدول الأخرى ، ولكن الفرق بين النظام السوفياتي وغيره من النظم هو أن الناس في البلاد الشيوعية يدينون بمبدأ التضحية بوطن الانسان في سبيل وصول الشيوعية إلى مثلها الأسمى » .

وقد يختلف الضغط الذي تفرضه موسكو ، ولكنه لا يكون بنسبة مدى خطر نشوب الحرب كما يحدث في الدول الديمقراطية ، وذلك لسبب بسيط وهو أن هناك حالة حرب دائمة في نظر الشيوعيين ، وقد كتب « لينين » يقول: « انه لم يعد في الإمكان الظفر بالسلطة بالوسائل السلمية » .

وما دام الهدف الذي أعلنت الشيوعية انها لا بد لها من تحقيقه هو الظفر بالسلطة في كل قطر ، فلا يمكن أن يكون هناك سلام ، ولم تدّع الشيوعية يوماً ما أنها تسعى للاستيلاء على السلطة عن طريق الأعمال البرلمانية المألوفة وإنما ترى أن الاستيلاء على السلطة يتم بعمل عسكري ، وان لم يكن هناك ثمة حاجة إلى أن يكون ذلك بواسطة قوات عسكرية ، فان الشيوعيـــة قد ابتكرت عدة أساليب للعمل ، ربما ساعدت على الوصول إلى النصر ، والحصول على السلطة .

ويتعين لكي تنجح العملية العسكرية أن يسبقها عمل مخابرات يجري في كل مستوى من أعمال تكتيكية إلى استراتيجية ، ومن معرفة استعداد العدو ونيته وسلاحه إلى تقدير روحه المعنوية وطاقته الاقتصادية ، ويتوقف مدى المجهود الذي تبذله المخابرات وضخامته على نوع الهدف المطلوب سواء أكان غارة تقوم بها فصيلة عسكرية في أرض حرام أم جاسوسية تشمل العالم بأسره ويتولاها

آلاف العملاء .

وهكذا نجد أن ما يميز الخدمة السرية السوفياتية عن غيرها هو حجمها ومدى أعمالها الذي لا حدود له، وقد قدر عدد الرجال والنساء الذين تستخدمهم الحكومة السوفياتية في أعمال مخابراتها بنحو ٢٥٠ ألفاً ، هذا بخلاف البوليس السياسي المحلي ، وهو عدد يزيد عن عشرة أمثال عدد العملاء الذين تستخدمهم الدول الغربية مجتمعة ، ولكنه – مع هـذا – جزء فقط من الجيش السري الشيوعي ، فان موسكو تعد كل عضو في أي حزب شيوعي في العالم كمخبر ضمن قواتها .

وعلاوة على هذا فان موسكو تربط إلى عجلتها مباشرة أو بواسطة الأحزاب الشيوعية ، العاطفين على الشيوعية والسائرين في ركابها وهو جيش احتياطي من الرجال والنساء يتدرج أفراده من ذوي العقول الكبيرة والخياليين الأمناء إلى « المهووسين » والمصابين بأمراض عصبية ، وهؤلاء ليسوا من أعضاء الحزب الشيوعي ، بل ان كثيرين منهم لا يعرفون حتى مجرد واقعة استخدام المخابرات السرية السوفياتية لهم .

وستجد في هذا الكتاب أمثلة عديدة لطريقة استخدام هؤلاء الناس الذين وصفتهم هذه المخابرات بحق بأنهم « أغرار » وسليمو النية ، أبرياء أو نمامون عن غير قصد ، ولا يمكن معرفة عددهم الحقيقي ، فلا عجب إذا اعتبر الرقم ٧٥٠ ألفاً ، وهو الذي قدر به عدد السيدات والرجال من العملاء شبه المحترفين والنامين ورجال الطابور الخامس والسائرين في ركاب الشيوعية والعاطفين عليها الذين نجحت المخابرات السوفياتية في اصطيادهم وضمهم إلى شبكة الجاسوسية ، إنما هو رقم أقل من الحقيقة . انه في الواقع جيش ضخم يضاف إليه ربع مليون من العملاء والموظفين المتفرغين لأعمال التجسس ويتولى قيادتهم نخبة ممتازة من عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً من كبار الجواسيس المدربين . ولعل ما كان قد ذكره أحد الخبراء منذ بضعة أعوام من أن ٥٠ مليون جنيه تنفق كل عام على هذا الجهاز ، أصبح تقديراً أقل بكثير مما ينفق الآن .

وليست هناك أمة في العالم تضارع الاتحاد السوفياتي والأقطار المشابهة له ، في حشد هذا العدد الهائل من الناس والموارد الضخمة وتخصيصها لأعمال المخابرات السرية التي تعتمد إلى حد ما في نجاحها على كثرة العدد وخطط الجيوش الشيوعية الجرارة في ميادين القتال . والمخابرات السرية تحتاج إلى هـــذا العدد الضخم لأسباب ، منها أنها أصبحت خلال العشرين عاماً الأخيرة إدارة بيروقراطية كما سأبيّن بالتفصيل فيما بعد ، ولأن مهامها وأهدافها أكثر اتساعاً من مهام وأهداف أي هيئة مخابرات أخرى في العالم ، وقد سبق أن قلت انها لا حدود لها ، ولكني إذا توخيت الدقة أقول انها لا تشمل فقط الجاسوسية العسكرية والسياسيـــة ، وجمع كل ما يمكن جمعه من المعلومات عن المسائل الاقتصادية والاجتماعية ، وإنما تتضمن أيضاً تنظيم التسرب من أنديـــة الطلبة إلى المصالح الحكومية ، ومن نقابات العمال إلى الجمعيات الثقافية ، وتنظيم أعمال التخريب التي تتراوح بـين الاحراق المتعمد والاستفزاز ، أو العمل على زيادة حدة المنازعات في المصانع ، ونشر المعلومات الخاطئة ، وإعداد الانقلابات والأعمال العسكرية والاشتراك فيها إذا اقتضى الأمر .

وربما قام عملاء السوفيات بجميع هذه الأعمال في وقت واحـــد ، ولكن مدى الاهتمام يختلف باختلاف الأقطار والأزمان ، وبحسب السياسة التي تنتهجها موسكو في وقت معين حيال دولة أو مجموعة دول ، أو بحسب نظرة موسكو « للموقف الثوري » . ومن الأمور الواضحة ان المهام المخصصة الآن لعملاء السوفيات في بريطانيا تتضمن الإعداد لانقلاب مسلح ، ولكن تعليمات من هذا القبيل لا تصلح للشبكة السوفياتية في قطر من أقطار أميركا الوسطى .

فإذا رأت موسكو ان الموقف الثوري ، أصبح مهيئاً للعمل في بعض مناطق كجنوب شرق آسيا مثلاً ، كان من الأعمال العادية التي تتخذ في هـــذه الحالة وضع خرائط لطرق المواصلات والخدمات العامة لكي يسهل شلها وإعداد خطط تسلل الذين يستطيعون الاضرار بها ، وإيفاد عملاء سريين يكونون بمثابـــة

المدربين للقوات المتمردة ، أما في عواصم العالم الغربي فالاهتمام ينحصر في الحصول على معلومات عسكرية وسياسية واقتصادية وذلك بواسطة تسلل عملاء إلى المصالح الحكومية ، والوحدات العسكرية والمؤسسات الصناعية ، وتجنيد المخدوعين والسذج الذين يستطيعون تقديم المساعدة للحصول على هذه المعلومات. ولعل أحدث مثل لهذا هو اكتشاف بعض كبار موظفي مجلس الدفاع الوطني في الجمهورية الفرنسية الذين كانوا يزودون العملاء الشيوعيين بالمعلومات ، وقد ظهر انهم ظلوا يواصلون نشاطهم بضعة أعوام ، إلى أن كشف أمرهم في شهر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٥٤ .

وقد أكد بتروف أمام اللجنة الملكية في كنبرا باوستراليا ان الخدمة السرية السوفياتية فضلاً عن شبكات جواسيسها العاملين تستخدم في كل قطر تقريباً ما يسمى « بالجهاز النائم » ، وهو هيئة تظل خاملة بدون عمل أو مهمة معينة إلى ان يأتي اليوم الذي تنشط فيه عندما تنشب الحرب . وقد صرح « هويتكر تشامبرز » بأنه كان معيناً في هيئة من هذا القبيل في الولايات المتحدة خلال عام ١٩٣٨ .

ومن بين أوجه الاختلافات الهامة الأخرى بين الخدمة السرية السوفياتية والهيئات المماثلة في الأقطار الأخرى ، ذلك الجو الحافل بالتآمر الذي تتميز به. ومن بين أسباب هذا أن تقاليدها قائمة على أساس الثورة والنضال الثوري ضد الحكم القيصري ، ولقد رأينا بعد عام ١٩١٧ أن ثواراً احترفوا الثورة عشرات السنين قد أصبحوا حكاماً لأمة عظيمة وزعماء دولة عظمى ، ولكنهم مع هذا ظلوا أعواماً عديدة يظهرون في مسلكهم وخلقهم الشخصي بمظهر « الثوار الأشرار » برغم الأزياء الفاخرة الموشاة بالذهب ، وظل عملاؤهم السريون يعملون كأنهم أعضاء حركات سرية ثورية .

ومن الظواهر الأخرى التي تتميز بها الخدمة السرية السوفياتية ما قد نسميه آدابها وأخلاقها ، وان كان الأصح أن نقول انعدام الآداب والأخلاق . ويقول لينين في هذا : « ان الأخلاق بالنسبة لنا خاضعة لمصالح نضال الطبقات » وانه

« لا معدى من استخدام كل حيلة أو مكر أو دهاء أو كل وسيلة غير مشروعة ومراوغة أو إخفاء الحقيقة .. » .

ولا حاجة إلى التشدق والادعاء بأن المخابرات السرية في كل قطر آخر لا تعمل إلا في مكافحة الجاسوسية ، وانها لا تفعل شيئاً سرياً تخجل من الاعتراف به علناً ، وإنما الواقع هو أن العمل في المخابرات السرية يقتضي البعد عن روح الانصاف ، ولكن ثمة درجات مختلفة لهذا البعد ، ولعل ما هو مستساغ أو مغتفر في الأقطار الديمقراطية الحرة هو « ما يجمع الشعب على تأييده » فالشعب البريطاني أو الأميركي مثلاً (لا يؤيد) أن يقوم رؤساء إدارات المخابرات عنده بوضع « خطة » إضافية « لتصفية » الذين يُعدون أعداء للدولة ، وإيفاد « فرق متحركة » من الجلادين لقتل الناس . بينما نجد أن لوزارة الداخلية السوفياتية إدارات خاصة لتدريب القتلة الذين يتولى تعليمهم بدقة كبار موظفي الحكومة ، ويتزودون بالأسلحة المناسبة ، ويوفدون للخارج لتنفيذ المهام المخصصة لهم ، وفي بعض الحالات تخفى هذه الجرائم . ولكن المحرضين عادة يعنون فقط بنجاة عملائهم دون أن يأبهوا بحكم الرأي العالمي ولا يحسبون حساباً للرأي العام داخل الاتحاد السوفياتي لأنه ليس في إمكان الرعايا السوفيات أن يقرأوا عن أمثال هذه الحوادث ولا أن يسمعوا بها .

ومن المسلم به أيضاً أن مهمة الملحقين العسكريين في سفارة ما هي الكشف عن كل ما يمكن كشفه عن القوات المسلحة في القطر الذي يعملون فيه ، وربما لا تقتصر استعلاماتهم على الطرق الرسمية أو الكتب ، ولكن هناك اختلافاً كبيراً بين هذا وبين عمل المخابرات السرية التي تقضي على كرامة الديبلوماسية ، وذلك بالعمل المنتظم في تزويد السفارات والمفوضيات بجواسيس مدربين يتخذون صفة ضابط في الجيش أو الطيران ، وان لم يكن قد سبق لهم أن خدموا في الميدان ، وتكون رتبهم العسكرية مجرد رتب فخرية ، ومهمتهم الأساسية هي التخريب والرشوة والتشهير برعايا الدول التي ينزلون في ضيافتها .
وهذه بعض المظاهر التي تميز المخابرات السرية السوفياتية ومختلف هيئاتها .

الفصل الثاني

تحسين الأساليب القيصرية

لكي نعرف إلى أي مدى أصبحت المخابرات السوفياتية الحالية تراثاً من روسيا القديمة ، يتعين علينا أن نرجع إلى ما لا يزيد على ثلاثة قرون أي إلى أيام بطرس الأكبر ، فنرى أن بطرس عندما أراد الظفر بالسلطة التي كان ينازعه فيها شقيقه وشقيقته وحزب بلاط سترليتز ، عمد إلى تنظيم فرقة من الجواسيس والوشاة والجلادين ، كانت طاعتهم العمياء وحماستهم في إشاعة الإرهاب مضرب الأمثال ، لا يفوقهم فيها أحد ، ولكن الشخص الذي كان له الفضل في إنشاء إدارة مخابرات القيصر الأكبر ويدعى « نكراسوف » اتهم في النهاية بالخيانة وأعدم ، والظاهر أن هذا الحادث كان بمثابة التنبؤ بمصير زعماء المخابرات السوفياتية الحالية .

وقد اعتاد المواطن الروسي منذ قرون أن يكون لعبة في أيدي حكام مطلقين ، وكان الإرهاب هو السلاح الذي استخدم للمحافظة على هذه « اللعبة » في مكانها ريثما يقتضي الأمر نقلها إلى مكان آخر والتضحية بها .

وكان القياصرة في حاجة إلى النظام البوليسي ليس فقط للسيطرة على الرعايا الروس ، بل أيضاً لمكافحة الحركات الوطنية التي يقوم بها كثير من الشعوب

الخاضعة لهم كالبولنديين والفنلنديين والشراكسة والأكراد وأهـــل جورجيا وغيرهم ، وقد نجح جواسيس نقولا الأول في التسلل إلى صفوف هذه الحركات والقضاء عليها وتقديم الوطنيين للاعدام .

وقد أنشأت المستشارية الامبراطورية « خدمة سرية » خاصة لهذا الغرض تولت فيا بعد قيادة العملاء الذين كانوا يتجسسون على الثوار والوطنيين في المنفى.

وفي عام ١٨٨١ تحوّل هذا « القسم الثالث » الذي أنشأته المستشاريـــة الامبراطورية إلى مصلحة منفصلة أطلق عليها اسم « مصلحة حماية الدولة » ، وكانت مهمتها الرئيسية مطاردة الثوار داخل روسيا وفي منفاهم في الخارج ولهذا وضعت تحت إشراف وزارة الداخلية ، ولعل الدليل على استمرار الأساليب القيصرية في المخابرات السريـــة إلى اليوم هو أنها ظلت على الدوام ملحقة بالقوميسيريات أو الوزارات المسؤولة عن الشؤون الداخلية حتى بعد أن اتجه نشاطها إلى ناحية المخابرات الأجنبية والتجسس .

وقد استمرت هيئة « الأوخرانا » ٣٥ عاماً تعمل في جبهتين ، فكان قسم منها يضم بوليساً سرياً ومخبرين ومرشدين يتولى مكافحة الثوار في الداخل بينما كان قسم آخر مزود بعملاء سريين في الخارج يمد وزارة الخارجية وهيئة أركان حرب الامبراطورية بالمعلومات ، وقد اتبع فيلكس درزشينسكي الوسيلة ذاتها التي استخدمت في تقسيم الأوخرانا إلى قسم داخلي وآخر خارجي ، عندمـــا أنشأ « اللجنة فوق العادية » في عام ١٩١٧ وقد ظلت هذه الوسيلة متبعة في التشيكا الحالية .

وقد فشلت الأوخرانا في الداخل في منع حوادث اغتيال الوزراء ومحافظي الأقاليم ولجأت إلى الحبس الجماعي ونفي جميع العـــاطفين على الثورة ، ولكن المخابرات السرية في الخارج أصابت نجاحاً أكبر، فقد تسلل عملاؤها في حكومة الريخ الالماني ، والحكومة النمساوية المجريـــة الملكية ، والامبراطورية اليابانية ، ولولا افتقار القواد الروس إلى الكفاءات لفازت روسيـــا في حرب ١٩٠٤ — ١٩٠٥ .

وعندما استولى البلاشفة على السلطة في عام ١٩١٧ كانت لديهم خبرة مباشرة بمبادىء الجاسوسية وأعمال المخابرات السرية اللازمة لهم في نشاطهم السري ، وقد أدرك لينين أنه إذا كان القياصرة قد احتاجوا إلى الأوخرانا فلماذا لا يستعين بها هو ، فرأى ان هذه الهيئة يجب أن تنشأ وتبني قوتها خلال الحرب الأهلية والغزو اللذين ربما استمرا سنوات ، ولهذا اختار لتنظيمها أرستقراطياً بولندياً من البلاشفة القدامى ظل عدة سنوات منفياً في غرب أوروبا ، وكان يعرف كل شيء عن حركات الجاسوسية والحركات المضادة لها ، وهـذا الشخص يدعى فليكس دزرشينسكي وقد ولد في عام ١٩١٧ من أسرة من أصحاب الأراضي ، وكانت تملك مزارع قرب فيلنا ، وقد انضم وهو طالب إلى «اسار» أي الحزب الاشتراكي الثوري السري ، ولكنه لم يلبث أن تحوّل إلى «الماركسيين الأقحاح» الذين تولوا تأليف حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، وقد انقسم هذا الحزب خلال مؤتمر لندن سنة ١٩٠٣ بشأن هل يجب الاحتفاظ بالبرجوازية في البداية ، أم ينبغي القضاء عليها فوراً ، وانضم دزرشينسكي إلى الأغلبيـة أو البلاشفة ضد الأقلية أو المنشفيك .

وقد اكتسب دزرشينسكي الثوري خبرته في المؤامرات من عمله كرسول سري تخصص في الاحتفاظ بالاتصالات بين الحركة السرية في روسيا و «مكاتب» المهاجرين التي أنشئت في باريس ولندن وسويسرا وفيينا وغيرها ومنها جريدة « الايسكرا » التي اتخذت ميونيخ مقراً لها ثم انتقلت إلى لندن وعندما أفرج عن ستالين من منفاه في سيبيريا ، حيث قضى سنوات عديدة ، التجأ إلى ألمانيا وأنشأ جريدة « الايسكرا » ومعناها الشرارة ، وهي تسمية استعارها لينين من قصيدة لبوشكين يقول فيها : من الشرارة يتولد اللهب .

وقال تروتسكي يصف هذه الجريدة انها كانت الأساس الذي نشأت منـه الماركسية الروسية الحقيقية كقوة سياسية ومنظمة لها أهمية قومية ودولية على السواء .

وقد نظمت حلقة من العملاء للايسكرا في روسيا ، وكانت مهمة الرسل تهريب عشرات الألوف من نسخ هذه الجريدة عبر الحدود ، وكذلك تهريب نشرات وتعليمات وأسلحة ومتفجرات . وقد أدركت الأوخرانا أن الاعتداء سيأتي من وراء الحدود ، ولذا أوفدت عملاءها إلى الخارج لمراقبة الثوار ، والتسلل إلى هيئاتهم واجتماعاتهم ، وإحباط حركة التهريب الواسعة المدى التي تشمل المؤلفات الأدبية والأسلحة وكان أكثر عملائهم نجاحاً أفنو آزيف الذي ظل عشرين عاماً رئيساً لهيئة ناروديانا فوليا ، وهي هيئة إرهابية ، وهو الذي دبّر حركة اغتيال الغراندوق سرجي ، والكونت بليهوي وزير الداخلية قبيل ثورة عام ١٩٠٥ ، وإن كان قد سلم معظم الجناة إلى السلطات القيصرية .

وقد عاش آزيف خلال الحرب العالمية الأولى في ألمانيا واعترف في مذكراته بأنه اضطر إلى تدبير اغتيال وقتل رؤسائه في الحكومة القيصرية ، لأنه رأى أنه بواصلة الإرهاب يستطيع استخلاص أجور باهظة من الأوخرانا في مقابل تسليم الجناة إليها .

وعمد الجانبان إلى أعمال التسلل والجاسوسية على نطاق واسع ، فكانت بطرسبرغ تتلقى تقارير وافية عن مناقشات مندوبي الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي في زيوريخ خلال عامي ١٨٩٧ و ١٩٠١ لأن بعض هؤلاء المندوبين كانوا في الواقع من عملاء الأوخرانا ، فان كوكوسكين مثلاً الذي انتخب رئيساً للجنة موسكو الثورية في عام ١٩١٠ كان من عملاء البوليس أوفدته الأوخرانا . وفي الوقت ذاته كان لمختلف شعب الأحزاب الثورية عملاء سريون في الجيش القيصري وبين البوليس وفي وزارة الحربية وكل مصلحة حكومية ، وكان عنف الثوار في داخل روسيا يقابله عنف من الجانب الآخر في الخارج . والظاهر انه لم يصبح هناك شك في أن « بطرس الرسام » مثلاً الذي ساد الاعتقاد بأنه فوضوي كان في الحقيقة عميلاً من عملاء الأوخرانا أوفد إلى لندن للتخلص من الثوار . وقد فعل ذلك فترك بعضهم قتلى بعد حادث « حصار شارع سيدني » في عام ١٩١٠ ، وترك بعضاً آخر في أيدي بوليس لندن . وعمد الثوار خلال هذه الفترة أيضاً

إلى انتهاج اللصوصية وأعمال العصابات لتمويل نشاطهم ، وقد استمر نشاطهم في تزوير العملة حتى بعد تسلمهم السلطة .

وينبغي لنا أن نتذكر كل هـــذا عندما نبحث في نشاط إدارة المخابرات السرية السوفياتية التي تواصل العمل بأساليب العهد القيصري وتقاليده ، ولكن بشكل أوسع وبكفاية أكبر .

وعندما أصبح دزرشينسكي عضواً في مركز الثورة السرية في بطرسبرغ في ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٧ أمكنه الاستعانة بخدمات ألوف من الذين لهم خبرة تامـــة بأساليب الجواسيس والمخربين ، وكانت مهمته الخاصة إيقاف جميع المواصلات ، وقد نجح في ذلك إلى حد أن قليلين من أعضاء وزارة كرينسكي لم يعرفوا أن نظاماً جديداً من الحكم قام في روسيا إلا بعـــد سقوط هذه الوزارة ببضع ساعـــات ، وذلك في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) . وعيّن دزرشينسكي في منصب وزاري ، وسميت لجنته الفرعية للأمن في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) باللجنة الاستثنائية لمكافحـــة الأعمال المناهضة للثورة ومحاربة التخريب ، وقد أخذ الحرفان الأولان من الكلمتين الأوليين من الاسم الروسي لهذه اللجنة وهما « تشي كا » وأطلقت منذ ذلك الوقت على البوليس السياسي السوفياتي وإدارة أمن الدولة والمخابرات السرية ، وان كانت هذه الهيئات قد أعيد تسميتها عدة مرات خلال السبع والثلاثين سنة التي قضاها السوفيات في الحكم .

وكان الغرض الأساسي للتشيكا هو تنظيم البوليس السياسي بحيث يستطيع مكافحة المناهضين للثورة ، والموظفين المعارضين لنظام الحكم البلشفي الجديد ، ومن مهام التشيكا أيضاً تنظيم إدارة مخابرات لمكافحة جواسيس الجيوش البيضاء خلال الحرب الأهلية ومناهضة عملاء بريطانيا وأميركا وفرنسا الذين قاموا بحملة « تدخل » ضد الدولة الروسية الجديدة ، وكان « الفزع الأحمر » يحتاج إلى تركيز قوة التشيكا في الجبهة الداخلية ، ولهذا أبطأت في تنفيذ مشروع إنشاء مخابرات سرية قوية في الخارج .

ولكن لينين لم ينسَ وسط الاضطرابات هدفه الأخير الذي عبّر عنه بالعبارة التالية : « كلما أسرعنا في تحويل الاتحاد السوفياتي إلى كشف ثورة العـــالم ونشرها ، وإلى جعله أداة التعجيل بانحلال الاستعمار ، ازدادت سرعة تطور الثورة العالمية واتسع نطاقها » .

وقد طالب بإنشاء هيئـــة دولية للشيوعيين بحيث يستطيع نظام الحكم السوفياتي أن يظفر بالمساعدة من جميع أنحاء العالم ، وهكذا كان مولد الشيوعية الدولية أو الكومنترن في عام ١٩١٩ ، ولكن استجابة الطبقات العـاملة في الغرب كان ضعيفاً ، وفشلت في ألمـانيا أول محاولة لبناء معقل للشيوعية في خارج روسيا ، ولم يستغرق حكم بيلاكون الشيوعي في المجر أكثر من مائة يوم ، وظلت جماهير العمال في جميع الأقطار الأخرى متخذة موقفاً سلبياً أو معادياً ، أما في بريطانيا فقد قرر بعض المنشقين من الأحزاب الاشتراكية أن يندمجوا معاً ويؤلفوا الحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى ، ولكن المساعدة العملية الوحيدة لروسيا قدمها عمال الأحواض البحرية بقيادة أرنست بيفن فقد أوقفوا شحن الأسلحة إلى « الجيوش البيضاء » .

ولكن ذلك لم يفت في عضد لينين ، فقد تنبأ بأن الشيوعية الدولية ستضم إليها في يوم ما العالم بأسره ، وكان على حق في ذلك ، فمع ان الأثر في الحركات الاشتراكية خارج روسيا – فيما عدا ألمانيا – كان ضعيفاً في أول الأمر كان للكومنترن قيمة كبيرة منذ البـــداية فقد أصبح الهيئة الأساسية للجاسوسية السوفياتية .

وما ان تألفت سكرتيرية الكومنترن حتى أنشئت بعض الأقسام الأجنبية ، وتولى زينوفييف ، وبياتنيستزكي ، ورادك ، وكوسينن ، ومانويلسكي ، وضع أسس الجاسوسية الأجنبيـــة ، وظل الكومنترن لا التشيكا سنوات يعمل في تنظيم شبكات الجاسوسية ، وكان من أوائل كبار عملاء المخابرات السرية السوفياتيـة مارتنز في الولايات المتحدة ، وبوجاني ببر وميروف في برلين ، وبورودين في لنـــدن ، وكانوا جميعهم عملاء الكومنترن ، وعهد إلى رادك وبيلاكون بمهمة

الاشراف على الهيئة الأولى ، ولم يجدا صعوبة في العثور على رجال أكفاء بين ألوف الاشتراكيين اليساريين والشيوعيين الذين تدفقوا من مختلف ربوع العالم على مهد الثورة ، وسوف نقابل كثيرين منهم في هذا الكتاب مثل جورجي ديمتري بطل حريق الريشستاغ وأول رئيس وزراء شيوعي في بلغاريا وارنست ونبر « ملك المخربين » وجيرهارد ايسلر الذي تولى أعمال التخريب فترة طويلة في الولايات المتحدة ، وكثيرين غيرهم من الذين ظلوا عدة سنوات عملاء سريين قبل أن يكافأوا بمناصب كبيرة .

واستمرت الفترة الذهبية للمخابرات السرية السوفياتية حقبة من الدهر انتشرت خلالها شبكتها في العالم ببطء في أول الأمر . وكان الذين تولوا مهمة التنظيم شيوعيون أجانب في خدمة موسكو ، وقد عملت التشيكا ، التي أنشأها دزرشينسكي والتي سميت في شباط (فبراير) سنة ١٩٢٢ بعد انتهاء الحرب الأهلية بالادارة السياسية للدولة وظلت بعد ذلك ١٢ عاماً تعرف باسم الغيبيو وهي الأحرف الأولى من الاسم الروسي لهذه الادارة ، عملت التشيكا في تعاون تام مع الكومنترن في تكوين هيئة الجاسوسية وتوجيهها وكان دزرشينسكي يدير عمله من لوبيلنكا حيث استقرت التشيكا في مبنى فخم تابع لأكبر شركة تأمين في روسيا ، وقد تحول قبوها إلى سجن للمعتقلين السياسيين ، واتخذ الكومنترن مقراً له في أول الأمر في الكرملين إلى أن نقل في عام ١٩٢٢ إلى مبنى ضخم في شارع ماشوفايا ، وعندما قامت حركة التنظيم في سنة ١٩٣٥ وما بعدها تولت التشيكا — التي كانت تعرف عندئذ باسم النكف — الاشراف الكامل الفعلي على جميع أعمال المخابرات السرية .

وكان دزرشينسكي البولندي يفضل أهل وطنه فعيّن نائباً له جوزيف أنشليخت الزعيم الثوري السابق في وارسو الذي اكتسب شهرته باسم «جوزيك» في التمرد الذي حدث في عام ١٩٠٥ وعيّن مويسس تريليسر الذي أنشأ « الفهرس » الذي أصبح فيما بعد الأداة الرئيسية للجاسوسية السوفياتية ، رئيساً لإدارة المخابرات السرية الأجنبية ، ولا شك ان للاتجاه المزدوج للعمل السري

في الخارج مزايا عديدة ، ومزايا واضحة ، فقد قامت الهيئة منذ البداية على مبدأ «الخطوط المتوازية» التي رأى الثوار انها جوهرية للغاية، لأنه لو اكتشفت الأوخرانا خلية أو خليتين من خلاياهم لما أدى ذلك إلى الكشف عن الهيئة السرية بأكملها ، وكانت بعض الشبكات خاضعة لإشراف الكومنترن، والبعض الآخر للتشيكا ، وغيرها كانت تحت الإشراف المشترك للهيئتين .

ولقد رأينا أنه عندما انتهى الأمر بأن تتولى التشيكا وحدها الإشراف على جميع « المراكز الأمامية » في الخارج ، واصلت العمل بنظام الشبكات المتوازية التي ينفرد برئاسة كل منها مدير مقيم يعمل مستقلاً تمام الاستقلال عن غيره ، ولا يعلم في بعض الأحيان حتى بوجود غيره، ولا يزال هذا النظام معمولاً به حتى اليوم . وأنشأ الكومنترن والتشيكا أيضاً نظام « الجبهات المفتوحة » أو « الجبهات العامة » وأصبح ويلي مونزنبرغ الزعيم الشيوعي الالماني «سكرتيراً عاماً » للصندوق الدولي لمساعدة العمال وهو الصندوق الذي كان يعنى بأمر المعتقلين السياسيين في البلاد الرأسمالية والفاشية ، وان كان عمله الحقيقي هو التجسس والتهييج والتخريب. وعيّن أرنست فردريك وليبر سكرتيراً للاتحاد الدولي للبحارة ، وهو هيئة مساعدة للمخابرات السرية السوفياتية في تهريب العملاء إلى مختلف ربوع العالم ، وتهريب الأسلحة وبخاصة خلال الحروب التي نشبت في الصين قبيل عام ١٩٣٠ وبعده . ولا يسعنا هنا إلا أن نذكر واحداً من أوائل أعضاء التشيكا فقد تلقى دزرشينسكي في يوم ما رسالة من ستالين وكان عندئذ قوميسيراً للقوميات ، أوصى فيها بأحد مواطنيه وهو من أهل جورجيا وقال عنه: « انه رفيق رائع الذكاء صغير السن قام بعمل جليل بين عمال الزيت في باكو ، وأعتقد أنه ممن يمكن الركون إليهم وهو أهل للخدمة في اللجنة الاستثنائية واسمه لافرنتي بافلوفيتش بيريا » .

وقد ألحق دزرشينسكي هذا الشاب بوظيفة في التشيكا ، وربما يكون قد نسي اسمه في اللحظة ذاتها ، ولعله كان يضحك ملء شدقيه لو قال له أحد ان هذا الشاب الشاحب اللون ، الأصلع صلعاً مبكراً ، القصير القامة ذا العينين

النفاذتين حتى من وراء النظارتين المتأرجحتين على أنفه ، سيصبح يوماً ما ليس فقط مديراً لهيئـــة مخابرات سرية أصبحت أكبر وأقوى الهيئات السرية في العـــالم ، بل سيصبح أيضاً على وشك ان يكون الحاكم الوحيد للاتحاد السوفياتي .

الفصل الثالث

نشر الشبكة

على اثر انتهاء الحرب الأهلية تمكن دزرشينسكي وهيئة التشيكا التي يتولاها من تحويل اهتمامها إلى الجاسوسية الأجنبية التي كانت إلى ذلك الوقت خاضعة للكومنترن خضوعاً يكاد يكون تاماً ، وقد اتهمت هيئة « أركان حرب الثورة العالمية » بزعامة زينوفييف ، وبوخارين ، وبياتنيسكي ، ورادك بالوقوع في سلسلة من الأخطاء . من ذلك انهم شجعوا الشيوعيين على القيام باضطرابات في ألمانيا وإيطاليا والمجر مما أدى إلى نكسات خطيرة ، وانه تم إخماد فتنة الاسبارتاك في برلين باستخدام وسائل شديدة من القسوة ، وقتل كارل لبيكنخت ، وروزا لوكسبمرغ عقب اعتقالها ، وانه قامت في بافاريا « جمهورية سوفياتية » ولكنها لم تعش أكثر من ٢٥ يوماً واشتد ساعد الملكيين والوطنيين الالمان وأصبحوا من القوة إلى حد يسّر لهم القيام بمؤامرة في برلين مما أرغم الحكومة الالمانية على الهرب من العاصمة ، واغتيل والتر راتنا والوزير الالماني الذي نصح بتوطيد أواصر الصداقة مع روسيا السوفياتية . وحدث في إيطاليا عقب محاولة الشيوعيين القيام بحرب أهلية ، ان قامت الفرق الفاشية بزعامة موسوليني بالزحف على روما ، واستولت على السلطة فيها . ولم تكن كل هذه الأحداث

وما أعقبها من احتــلال القوات الفرنسية والبلجيكية لاقليم الرور ، أحداثاً متوقعة ولا قدّرها عملاء الكومنترن حق قدرها ، وهي أحداث أشاعت الذعر في موسكو .

وأدرك زعماء الكومنترن فشل مخابراتهم السرية وان لم يعترفوا بذلك علناً، وقد أصدر المؤتمر العالمي للدولة الشيوعية في عام ١٩٢١ بياناً جاء فيه : « ان المخابرات السرية العسكرية تحتاج إلى المران والتدريب الخــــاص والمعرفة ، ولا يمكن بغير المران الطويل إنشاء إدارة مخابرات تدعو إلى الارتياح ، ولاتقان هذا التخصص في العمل الثوري يتعين على كل حزب شيوعي مشروع أن يقوم باستعدادات سرية مهما ضؤل شأنها » .

وكان عملاء الكومنترن متحمسين ومستعدين للتضحيـــــة بحياتهم وحريتهم وكان كثيرون منهم خبيرين بالأعمال السرية ، ولكنهم كانوا خياليين غير مدربين ولم يكونوا أنداداً للهيئات المكافحة للجاسوسية في الأقطار التي يعملون فيها .

وقد أصيب لينين في شهر أيار (مايو) سنة ١٩٢٢ بمرض فجائي ، فأخــذ زعماء إدارات جاسوسية الكومنترن الذين استحوذ عليهم القلق والاضطراب يتنقلون من زينوفييف إلى تروتسكي ، ومن تروتسكي إلى بوخارين وعندما تماثل لينين للشفاء في شهر تموز (يوليه) اقترح على اللجنــة المركزية منح التشيكا سلطات أوسع ضمن نطاق المخابرات السرية الأجنبية ، وكان الوقت مناسباً لهذا العمل .

وقد ألقى لينين في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي بياناً خطيراً أعلن فيه ان رأس المال الأجنبي والفنيين الأجانب عنصران لا غنى عنهما في إعادة بناء صرح الاقتصاد الروسي بعد الحرب الأهلية ، وكان هذا البيان إيذاناً بالعمل «بالسياسة الاقتصادية الجديدة » ، فان الحاجة الماسة للغذاء التي لم ينفع في علاجها نظام الاستيلاء على الأغذية ، اقتضت التخلي عن بعض المبـــادىء الأساسية للثورة البولشفية ، فسمح للفلاحــين ببيع بعض منتجاتهم لحسابهم ، وألغيت ملكية الدولة من نحو أربعة آلاف مصنع ، والأهم من هذا من وجهة نظر المخابرات

السرية ، ان حسن نية الأقطار الرأسمالية وصداقتها استغلتا في اجتذاب أموالها وخبرتها الفنية .

وكان اكتساب حسن النية سبباً آخر في إصدار قرار تغيير اسم التشيكا التي ساءت سمعتها في جميع ربوع العـالم نتيجة « للارهاب الأحمر » ، فاقترح دزرشينسكي على لينين وجوب إيجاد اسم جديد لها ما دامت «اللجنة الاستثنائية» قد أصبحت مختصة بأمور كثيرة أخرى غير « محاربة الأعمال المناهضة للثورة والتخريب» فاختير لها اسم «الادارة السياسية للدولة»، واتخذت الحروف الأولى لهذه التسمية وهي «الغيبيو » رمزاً للتعبير عنها، وتركت عملية التهييج والدعاية للكومنترن ، وتولت التشيكا بعد تغيير اسمها وإعادة تنظيمها مهام كثيرة من المخابرات السرية ، ووضعت النموذج الذي اتبعته منذ ذلك الوقت إدارة الخدمة السرية السوفياتية التي تضم الجاسوسية العسكرية والاقتصادية والسياسية.

وأخذ الاتحاد السوفياتي يخرج من العزلة التي فرضت عليه ، فأبرم محالفات ودية ومعاهدات تجارية مع ألمانيا وتركيا واليابان ، واعترفت بريطانيا بنظام الحكم السوفياتي ، وتبعتها في ذلك إيطاليا وفرنسا واسكندينافيا واليونان والنمسا، كما ان المجر الفاشية نفسها اعترفت به. فقد رأت هذه الأمم ان اختلاف المبادىء السياسية لا يجب أن يعرقل التوسع التجاري ، وهكذا دعت روسيا إلى الاشتراك في المؤتمر الاقتصادي الدولي في جنوى على أمل ان يؤدي التعاون إلى إنعاش الاقتصاد العالمي الذي مزّقته الحرب إرباً ، وليس من شك في أن التعاون معناه تبادل التمثيل السياسي والوفود التجارية والبعثات الخاصة. وقد أخذ مبعوثون من الجمعيات التعاونية والمؤسسات الصناعية في روسيا يحزمون أمتعتهم ويسافرون إلى عواصم العالم الغربي. . وسافر في أعقاب الرسل التجاريين بعض عملاء هيئة المخابرات السرية السوفياتية الجديدة ، بل لقد سافر بعضهم ضمن هؤلاء الرسل في بعض الحالات ، وهكذا بدأ استخدام البعثات التجارية والهيئات كستار للنشاط السري .

واستمر استخدامها منذ ذلك الحين . وسنحت فرصة مماثلة بعد ذلك بخمسة

وعشرين عاماً عندما احتاجت روسيا للمساعدات في حربها مع ألمانيا، فأوفدت البعثات للحصول على « المساعدة» الحقة التي تحتاج إليها فعلاً ، وكان ذلك ستاراً رائعاً ، هيأ للسوفيات إنشاء شبكات جاسوسية في أميركا .

ولعل خير مثال يذكر في هذه المناسبة ما حدث في بريطانيا، فعندما وصل كراسين ممثل السوفيات إلى لندن ، (وقد أصبح فيما بعد سفيراً لروسيا في بريطانيا وتوفي فيها خلال تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٢٦ على اثر نوبة قلبية) استقبل خير استقبال ، وبادر المشتغلون بالصناعة في بريطانيا والتجار إلى مساعدته في انشاء مركز تجاري سوفياتي ، كان عبارة عن شركة تجارية تدعى « اركوس ليمتد»، وسرعان ما أصبح الممثلون السياسيون والتجاريون السوفيات في لندن ستاراً لأهم وأقوى وأكفأ شبكات الجاسوسية في أوروبا، ولم يؤثر فيها خطاب زينوفييف الذي لعب دوراً هاماً في هزيمة حزب العمال في انتخابات عام ١٩٢٤ ، ولكن العداء والشك استثيرا بقرار إرسال أموال بلغت ٢٨٠ ألفاً من الجنيهات إلى عمال المناجم البريطانيين خلال الاضراب العام الذي أعلن في عام ١٩٢٦ وقد وزعت هذه الأموال على العمال بعد ان رفض مؤتمر النقابات قبول أموال من روسيا ، وهبّ ونستون تشرشل الذي كان وزيراً للمالية في هذا الوقت وهدّد بقطع العلاقات التجارية مع روسيا ، والظاهر أن زعماء التشيكا اضطربوا وساءهم القلق لاحتمال تفكك ذلك المركز الهام للجاسوسية .

وبعد وفاة كراسين أوفد إلى لندن أركادي بافلوفيتش روز نهولتز ، وهو بولشفي قديم واسع الخبرة كان له الفضل في تنظيم « التعليم السياسي » في الجيش الأحمر ، وعيّن قائماً بأعمال السفارة السوفياتية في بريطانيا ، فاتخذ قصر شيشام مقراً له ، واستأجر الوفد التجاري السوفياتي مبنيين كبيرين في مورغيت بمدينة لندن ، خصص أحدهما لشركة « أركوس ليمتد » وبلغ عدد الذين كانوا يعملون فيها ثلثمائة رجل وسيدة أغلبهم من الرعايا البريطانيين ولم يكن بينهم غير فئة قليلة من الروس الذين يتمتعون بالامتيازات الديبلوماسية . وكان العمل الحقيقي تتولاه بطبيعة الحال شركة أركوس، وهذا ما جعلها أداة أجدى كستار يحجب

أعمال التجسس .

وكان بين زعماء الوفد التجاري السوفياتي شخص يدعى غيلينسكي ، وهو عميل سري للتشيكا ذو خبرة واسعة في تنظيم أعمال الشغب تفوق خبرتـه في التجارة ، وقد احتفظ بصلات وثيقة ببعض الجهات الشيوعية كحركة « الأقلية الأهلية » التي تتولى الدعـــاية بين الملونين في المستعمرات ، ورابطة « ارفعوا الأكف عن الصين » ، و « الدولية الحمراء لنقابات العمال» ، وقد تعاون غيلينسكي مع أرنست ولويبر في هامبرغ على إدخال بحارة شيوعيين في السفن البريطانية . ولعل خير دليل على حسن تنظيم الخدمة السرية السوفياتية هو تزويد غيلينسكي بسفن يتدرب فيها العملاء على المهام المخصصة لهم ، وقد نقل غيلينسكي بعد ذلك إلى باريس .

وكان ايغور خوبلياكين المستشار التجاري للسفارة السوفياتية ورئيس الوفد التجاري السوفياتي من عملاء التشيكا أيضاً ، وكان متمتعاً بكامل الامتيازات الديبلوماسية وان كانت الحكومة البريطانية قد علمت من قسم المخابرات السرية للجيش البريطاني المخصص لأعمال مكافحة الجاسوسية ومن القسم المخصوص كل شيء عن حقيقة نشاطه ، وعندما عيّن خينتشوك (وهو أيضاً من زعماء الوفد التجاري السوفياتي) في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٢٦ طلب روزنهولتز من السير أوستن تشمبرلن وزير الخارجية البريطانية منحه الصفة الديبلوماسية ، ولكن الوزارة رفضت منحه هذه الصفة واكتفت بمنحـه امتيازات الأجانب كالاعفاء من الضرائب وهو ما نصت عليه الاتفاقية التجارية المعقودة بينبريطانيا وروسيا .

وكان هناك ما يدعو الحكومة البريطانيـــة إلى الشك في نشاط « الخبراء » الديبلوماسيين والتجاريين الذين كان الاتحاد السوفياتي يوفدهم إلى الخارج ، وهو شك اشتركت فيه أيضاً حكومات الأمم الغربيـة الأخرى . وقد اعتقل فني بريطاني واتهم بسرقة رسوم وتصميات هامة ، وحوكم في جلسات سرية ، وثبت خلال المحاكمة أن هذه الوثائق أرسلت إلى «دار السوفيات» مقر الوفد التجاري

السوفياتي في لندن ، وقد قوبل هذا الكشف بهدوء ولكن تلته أنباء مقلقة من المكتب الثاني في باريس .

فقد وصل إلى فرنسا جاسوس سوفياتي لم تعرف شخصيته الأصلية ، وإنما اشتهر باسم « منتيوك » . وقد جاء من بنزرت في تونس ، حيث انتحل لنفسه صفة روسي أبيض من الضباط السابقين في البحرية القيصرية ، وزعم أنه من كبار المناهضين للبولشفية . وقد نجح في باريس في التعرف بمهندسين فرنسيين يعملون في مختلف مصانع الطائرات ، وبخاصة المهندس « تيفا » كبير رسّامي شركة نيوبورت للطيران ، وقد أبلغ منتيوك أصدقاءه الجدد انه ينوي إنشاء مصنع طائرات في السويد ، وعرض مكافآت للحصول على تصميم رسوم الطائرة الحربية الجديدة « نيوبورت ٢٩ — ت. ي » ومحرك « رينو ٦٠٠ » ، ودفع ٥٠٠ فرنك لكل رسم وعرض عشرة آلاف فرنك لنسخ من رسوم الطائرة « نيوبورت ٤٠ » ، وهي طراز جديد من الطائرات الحربية التي كانت ما تزال في مرحلة الرسم ، وكانت الحكومة الفرنسية تعتبر أمرها سراً لا يجب تسرّبه .

وأخيراً نجح عميلان من القسم الثاني الفرنسي في كشف المؤامرة ، واعتقل منتيوك وتيفا وحكم عليهما بالسجن لآجال طويلة .

وكان الحادث الذي عرف باسم قضية ستراندرز أهم من ذلك بكثير ، لأن نشاط هذا العميل اتصل مباشرة بالطائرات البريطانية التي كانت تصنعها شركة بريستول لبناء الطائرات ، وظهر في هذه القضية للمرة الأولى اسم أرنست فردريك ولويبر وهو شاب من عملاء دزرشينسكي ، وعرف في الحرب العالمية الأولى باسم « ملك المخربين » .

وكان ستراندرز بريطانيا خدم في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى ، وأصبح فيما بعد موظفاً في لجنة الحلفاء للتعويضات في ألمانيا . والظاهر أنه أصبح جاسوساً محترفاً يعرض خدماته على من يدفع أجراً أعلى ، وقد ظهر على الأقل أنه عمل فترة من الزمن لحساب هيئة ناخريختندينست الالمانية التي أعيد

تأليفها سراً . ولكن ما وافى عـام ١٩٢٦ حتى كان يعمل لشبكة الجاسوسية السوفياتية في برلين التي كان ولويبر من زعمائها والذي كان يعرف باسم الدكتور ويبر . وقد اعترف ستراندرز بعـــد اعتقاله بأنه زوّد ولويبر برسوم مفصلة للطائرات الفرنسية وبعض التفاصيل الخاصة بالطائرة بريستول الحربية ذات المحرك الواحد التي كانت تصنعها في فرنسا بترخيص خاص شركة جنوم ورون للطيران وشركة موتور . وقدم أيضاً نموذجاً لمحرك الطائرة جوبيتر البريطانية ، ورسوم دبابات جديدة تصنعها شركتا رينو وستروين ، ومدافع رشاشة أوصت وزارة الحربية الفرنسية شركتي فيكرز ولويس البريطانيتين بصنعها .

ولكن ستراندرز لم يظفر في مقابل هـــذه الخدمات إلا بمكافأة تافهة من ولويبر ، والظاهر أن مجموع ما أخذه منه لم يزد على ٧٨٠٠ فرنك ، ويبدو مع هذا أنه كان يحصل على المال من ناحية أخرى إذ كان يبيع نسخاً من هذه الرسوم والتصميات إلى الدكتور هنيكل مخترع الطائرات الالمانيـة التي اشتهرت في الحرب العالمية الثانية .

وبلغت الحالة أشدها في أوائل عام ١٩٢٧ عندما ظهر أن وثيقة سرية للغاية مفقودة من ملفات مجلس الطيران البريطاني ، فأبلغ الأمر إلى مجلس الوزراء ، وبادر السير صمويل هور (الذي أصبح فيما بعد اللورد تمبلورد) وزير الطـيران إلى إبلاغ رئيس الوزارة أن هذه الوثيقة تتضمن خطة استراتيجية هامة للضرب بالقنابل من الجو .

وكان قسم مكافحة الجاسوسية في إدارة المخابرات السرية التابعة للجيش ، والقسم المخصوص في إدارة سكوتلاند يارد في ذلك الوقت ، على عـــلم بنشاط العملاء السوفيات في لندن ، فأبلغا مجلس الوزراء أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الوثيقـــة نقلت إلى « دار السوفيات » وهي مقر الشبكة السوفياتية في بريطانيا ومركز الوفد التجاري السوفياتي أيضاً .. ولم يلبث المستر بولدوين رئيس الوزراء أن اتخذ قراراً بالمبادرة إلى العمل ، وذلك بعد أن بحث جميع الملابسات الدولية لقرار كهذا خلال ثلاثة اجتماعات طويلة عقدتها الوزارة.

وفي فجر يوم ١٢ أيار (مايو) سنة ١٩٢٧ حاصر ٧٥ من رجال البوليس المبنيين القائمين في شارع مورغيت ، وقصد ضباط كبار تزوّدوا بأوامر تفتيش إلى غرفة تحت الأرض في مبنى أركوس، وحطموا بابها ودخلوا فوجدوا رجلين وامرأة يحرقون أوراقاً كانت متناثرة على المقاعد والمكاتب والأرض ، وكان المسؤول عن الغرفة شخصاً يدعى روبرت كوبلنغ المشهور باسم كولين . وكان أحد الرجلين اللذين يحرقان الاوراق يدعى أنطون ميلر كبير كتّاب الشيفرة في السفارة السوفياتية. ولم يكن له عمل في مؤسسة أركوس ، وقد قاوم أنطون رجال البوليس ولكنهم تمكنوا أخيراً من القبض عليه بعد أن أصيب بجروح ، وعثر في ملابسه الداخلية على ورقة يظهر أنه دسّها عندما دخل رجال البوليس الغرفة ،وكانت تحوي عناوين رجال الاتصال وصناديق البريد السرية للمخابرات السرية السوفياتية في الولايات المتحدة والمكسيك وأميركا الجنوبية واستراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا .

ونقلت من مبنى شارع مورغيت ثلاثة أطنان من الورق كشفت في شيء من التفصيل كما قال المستر بلدوين عن : « أن الجاسوسية العسكرية والنشاط الهدّام في جميع ربوع الامبراطورية البريطانيـــة والأميركتين الشمالية والجنوبية كانتا توجهان وتنفذان من مكاتب شركة أركوس والوفد التجاري الروسي » .

وعثر بين هذه الأوراق على سجلات بماضي حياة بعض عملاء السوفيات الذين كانوا يعملون في لندن ، وعلى بعض الوثائق السرية مأخوذة من مصالح الحكومة البريطانية ، ولكن لم يعثر على الوثيقة الأصلية ولا نسخة من هذه الوثيقة التي حملت البوليس على مداهمة المبنيين .

وقد وصفت هذه الوثيقة في مجلس العموم بأنها من أهم الوثائق السريـــة ، وتتضمن معلومات تفيد أية دولة أجنبية تحصل عليها .

وفي ٢٧ أيار (مايو) قطعت الحكومة البريطانية العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي ، وأغلقت بالشمع الأحمر مكاتب أركوس بعد أن قضى فيها رجال قسم مكافحة الجاسوسية وضباط البوليس أربعـــة أيام وليالٍ في

تفتيش مستمر .

ولم يكن ثمة شك في أن تشتيت رجال السفارة وأعضاء الوفد التجاري كان ضربة قاسية للخدمة السرية السوفياتية ، وقد بقي كثيرون من صغار العملاء والخونة ، وان كانت خطوط اتصالاتهم وقيادتهم قد قطعت مؤقتاً . على أن الضربة كانت أشد قسوة لأنها جاءت في وقت وجّهت فيه ضربات مماثلة في أقطار أخرى . فان الاتساع السريع وبعض الوسائل العنيفة للخدمة السرية السوفياتية قد أثارا الخوف في عدة عواصم ، فبادرت هيئات مكافحة المخابرات إلى توجيه ضربات سريعة للخدمة السرية السوفياتية في كندا وفرنسا وألمانيا وفيينا وشنغهاي والمكسيك .

وقد حدثت مفاجأة في باريس ، إذ اكتشف فيها معمل مهيأ لتزييف أوراق النقد من عملات عديدة مختلفة ،ولم تلبث الحكومة الفرنسية أن استدعت سفيرها في موسكو . وحدث أيضاً في شهر تموز (يوليه) أن هوجم مقر الوفد التجاري السوفياتي في برلين وعثر فيه على وثائق كثيرة ،وأدى اكتشاف مركز الجاسوسية في كندا قبل افتضاح شبكة الجاسوسية الذرية فيها بعشرين عاماً إلى قطع العلاقات الديبلوماسية بين كندا وروسيا .. وانتهى الأمر بالاتحاد السوفياتي إلى أن وجد نفسه محروماً من التمثيل الديبلوماسي مع بلجيكا وهولندا ويوغوسلافيا وبلغاريا والمجر وتشيكوسلوفاكيا. وأخذ لتفينوف يشكو بمرارة من أن الغرب عاد مرة أخرى يؤلف « نطاقاً صحياً » حول روسيا ويعزلها ، ومع أن وزارة الخارجية هي التي عانت من كل هذا ، فليس من شك في أنه كان يعرف السبب .

الفصل الرابع

الجاسوسية السوفياتية الأجنبية

يجب أن تدرس الخدمة السرية السوفياتية في عام ١٩٢٧ على ضوء السياسات العالمية والأحداث التي وقعت داخل الاتحاد السوفياتي . ففي شهر أيار (مايو) قام ٨٣ من زعماء الهيئات المعارضة من التروتسكيين اليمينيين باتهام ستالين بخيانة تعاليم لينين ، وأخذت المعارضة تستغل « وصية لينين » التي لم تنشر وتتلاعب بها ، وقد أدرك ستالين أنه لا يمكنه أن يواجه هذا التحدي وينقذ مركزه إلا بقرارات جريئة يتخذها إزاء المعارضة داخل الاتحاد السوفياتي وفي ميدان السياسة الخارجية .

وقد عمد في المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الذي انعقد في شهر كانون الأول (ديسمبر) من ذلك العام إلى الكشف عن محتويات « الوصية » ، وهي عبارة عن خطاباب بعث بها لينين وهو على فراش المرض في عام ١٩٢٣ وقال فيها : « ان ستالين ليس الشخص اللائق لزعامة الحزب ولا الذي يصح تعيينه سكرتيراً عاماً للحزب » ، ولكنه انتقد مطامع تروتسكي وانحرافه عن المسلك البولشفي . وهكذا نجحت مقامرة ستالين وتم القضاء على المعارضة بفضل تأييد الوفود لفكرة إبعاد تروتسكي من الحزب . ولم تكد تمضي ثلاثة أسابيع حتى

أرغم المنافس الخطير الوحيد لستالين على الذهاب إلى المنفى .

وتمت السيطرة على الأزمة الداخلية في ذلك الوقت، وقرر ستالين أن الوقت حان ليتولى قيادة التشيكا ، ويحيلها إلى أداة لتثبيت قوته الشخصية .

وأصبح للتشيكا رئيس جديد واسم جديد ، فقد مات دزرشينسكي فجأة في عـام ١٩٢٦ وخلفه وكيله فياشيسلاف رودولفوفيتش منزينسكي وهو كسلفه ينحدر من أسرة بولندية من أصحاب الأملاك ، ويبدو في مظهره مترهلاً واهن القوى ، وكان يستقبل زائريه وهو مستلق على أريكة مغطاة ببطانة من الحرير الصيني ، وكان لينين يطلق عليه « مريض العصبي المتدهور » ، ولكنه كان يعلم أن هذا المظهر يخفي الكفاءات والمؤهلات التي يحتاج إليها المدير الناجح للبوليس السري .

ولم يكن منزينسكي كبير الاهتمام بالمخابرات السرية الأجنبية ، فترك تفاصيل أعمالها لموظفيه ، ولكن ستالين رأى أن الخدمة السرية في الخارج تحتاج إلى توجيه أكثر نشاطاً ، فأحدث التغييرات اللازمة بما جبل عليه من مهارة ومكر. فعقد منزينسكي بإيعازه اجتماعاً لرؤساء أقسام الخدمة السرية ، وألقى تريليسر رئيس القسم الخارجي كلمة في المجتمعين اعترف فيها بحوادث الفشل التي أصيبوا بها ، وقدم مشروعاً لإعادة تنظيم شبكاته وإنشائها في عواصم العالم ، وعرض أسماء « رفاق متألقين » قدموا خدمات جليلة في مهمات صغيرة،واقترح ترقيتهم إلى مناصب رئيسية في إدارة الشبكات التي لم ينفضح أمرهـا إلى ذلك الوقت والتي يمكن توسيع نطاقها .

وقدم منزينسكي بعد ذلك شاباً كان إلى ذلك الوقت جالساً يصغي في صمت ولا يقول شيئاً ، ولم يكن عضواً في القسم الأجنبي ، ولم يكن بعض الحاضرين يعرفون حتى اسمه ، وقيل لهم انه الرئيس المساعد لقسم « شاستني أوديل» وهو قسم تابع للتشيكا ويختص بالاشراف على الرعـايا السوفيات والأمن الداخلي . وليس من شك أن بعض رؤساء الأقسام المثقفين ذوي الأجور العـالية نظروا بسخط واشمئزاز إلى ذلك الشاب الذي كان يرتدي زي العمال الكالح اللون

وآيات الغباء تظهر على سحنته . ولكن برغم نظرتهم له وفكرتهم الأولى عنه لم يسمهم إلا الإصغـــاء باهتمام عندما قدّمه منزينسكي بقوله : « الرفيق غنبريك غريغوريفيتش ياغودا الذي يحبه إيفان فاسيليفيتش (وهو الاسم الذي يطلقه عادة أعضاء التشيكا على ستالين) ويثق به كل الثقة » . وربما ظهر ياغودا بمظهر الغباء ولكنه سرعان ما أظهر قوته عندما قال : « ان ستالين غـاضب ، وقد استقر عزمه على وجوب وضع الأمور في نصابها ، فقد حدثت في الخارج مآس بسبب أخطاء الأفراد لا الهيئات ، ولم يعد ثمة مكان للذين يرتكبون الخطأ » . ثم أخذ القائمة التي أعدها تريليسر بالتعيينات الجديدة وشطب عدة أسماء منهـا . وأضاف يقول : « ان هناك بعض أشخاص سيعينون في مناصب هـــامة في الخارج » . وكان لافرنتي بيريا من بين هؤلاء .

وينحدر ياغودا من فلاحي لاتفيا ، ولم يعرف عنه أنه دخل مدارس . ولم يكن يعرف الخطابة ولهذا كان حتى في أوج قوته يخجل من هذا النقص . وقد قال تروتسكي : « الظاهر أن هناك سراً يربط ستالين بياغودا إلى الأبد » .

وأصبح ياغودا نائباً لمنزينسكي ، وأدخلت بعض التغييرات في وسيلة المخابرات ، وقام الكومنترن خلال السبعة عشر عاماً التي تولى خلالها دزرشينسكي ومنزينسكي ادارته ، بدور هام في تنظيم الجاسوسية الأجنبية . وكان الكومنترن يعتمد إلى حد كبير على أهل البلاد التي يعمل فيها ، ولكن ياغودا أصدر أمره بأن يكون جميع المديرين المقيمين من الروس ، وألا يعمـــل الجواسيس في موطنهم على الاطلاق ، فالالماني لا يجب أن يستخدم في ألمانيا ، ولا البريطاني في بريطانيا . والغرض من هذا كما قال ياغودا هو التنصل عند الانفضاح ، إذ يمكن عندئذ أن يصدر نفي رسمي بأن روسيا لا تعرف هذا الشخص ، كما يمكن أن يوعز بأن الالماني الذي يعتقل في فرنسا كان يتجسس للجيش الالماني وأن يقال عن الفرنسي الذي يضبط في إيطاليا أنه يعمل لحساب المكتب الثاني الفرنسي وغير ذلك ، وبهذه الوسيلة الماكرة يمكن استخـــدام الافتضاح في بذر بذور الشقاق بين الأعداء المشتركين .

ولم يكن هذا الاجراء من الناحية العملية يدعو إلى الارتياح ، ولكنه كان يتمشى مع الخطة التي ترمي إلى نقل الاشراف التام على الجاسوسية إلى التشيكا ، وان استمر الكومنترن يقوم بدور كبير في التجسس تحت إدارة التشيكا . وقد ظل هذا الحال حتى إلى ما بعد تولى ياغودا الإشراف على التشيكا عقب وفاة منزينسكي في ملابسات غامضة خلال عام ١٩٣٤ (وقد اتهم ياغودا في عام١٩٣٦ بأنه قتل منزينسكي وغوركي بالسم واعترف بذلك) . وعاد الكومنترن إلى سلطته بعد الحرب الكبرى الثانية عندما عاود الظهور باسم الكومنفورم برئاسة جدانوف الذي قام هو ببعض أعمال التجسس على التجارب الذرية . ولم يكن بيريا راضياً عن هذا النشاط، ولم تتمكن التشيكا من استعادة سلطانها واشرافها بلا منازع إلا بعد وفاة جدانوف فجأة .

وكان الفضل لياغودا في انتقاء أربعة من خيرة جواسيس روسيا ، وذلك خلال الفترة التي كان يعمل فيها نائباً لمنزينسكي . وهؤلاء الجواسيس هم جورجي ديمتروف ، ولافرنتي بيريا ، وغيرهارد ايسلر ، وريتشارد سورج ، كما اكتشف ثلاثة من منفذي أحكام القتل وهم جورج منيك ، وأندريه سيمون ، وأرنست ولويبر . وربما كانت أعظم خدمة أدّاها للمخابرات السرية السوفياتية خلال هذه الفترة هي طريقة تمويل أعمال التجسس بالتزوير ، فقد كان مشروع الخمس السنوات الأولى الذي نفذ في عام ١٩٢٩ يحتاج إلى مشتريات كبيرة من الخارج يدفع ثمنها بالعملات الأجنبية أو بالذهب ، وكانت التشيكا أيضاً مفتقرة إلى المال لتدفع أجور المديرين والمقيمين والعملاء في الخارج ، ولهذا أعد مشروع للحصول على المال اللازم بالتزييف ، ويغلب على الظن أن يكون ميرونوف من هيئة القسم الاقتصادي هو الذي وضعه ، وتولى ياغودا تقديمه إلى ستالين الذي وافق عليه ، وأخرج قسم التزييف في التشيكا أوراق نقد من فئة مائة دولار أجيد تزييفها إلى حد يكاد يصل إلى الكمال ، وعهد بيريا بتنظيم توزيعها ، وقد استخدم في ذلك شيوعياً في برلين يدعى فرانز فيشر افتتح مكتباً للاستيراد والتصدير في شارع نيو ونترفيلد ، وأطلق على نفسه اسم الهر سيمون ، وادّعى

أنه من النمسا ويشتغل بالمضاربات في البورصة ولم يجد صعوبة في شراء بنك « ساس ومارتيني » الذي تأسس في عام ١٨٤٦ وكان يتمتع بسمعة محترمة. وبعد أن تزود فرانز بالتعليمات والأوامر من موسكو عاد إلى برلين وتسلم أوراق النقد الزائفة وتولى بنك ساس ومارتيني إيداعها في دويتش بنك .

وكان صرّافو بنك « الفيدرال ريزرف » في نيويورك أول من اكتشف التزييف وذلك في شهر كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٢٩ . ولكن مضت شهور قبل أن تؤدي التحريات إلى معرفة مصدر هذه الأوراق وهو بنك ساس ومارتيني . وعندئذ اختفى فيشر وموظفوه وكانوا جميعاً من أعضاء هيئة الجاسوسية في برلين . وقد صادفت هذه العملية نجاحاً كبيراً فقد ظلت الأوراق الزائفة متداولة خلال عام ١٩٣٠ في مختلف ربوع العالم ، وكان بنك « الفيدرال ريزرف » يكتشفها عندما تصل إليه . وقد قال كريفيتزكي المدير المقيم في فيينا ان نحو عشرة ملايين دولار من الأوراق الزائفة استبدلت بعملة صحيحة ، ولم يقبض إلا على عدد ضئيل من العملاء في هذه المؤامرة .

وأوقفت هذه العملية في العام ذاته ، ولكن بعض العملاء الذين اشتركوا فيها احتفظوا بكميات كبيرة من الأوراق الزائفة لاستخدامها لمنفعتهم الشخصية ، وأخذوا بعد ذلك يدخلون في عمليات مع المهربين الأميركيين على أساس تقاسم الأرباح مناصفة . وقد كشفت محاكمة الدكتور فالنتين غريغوري بورتان أحد أطباء نيويورك في عام ١٩٣٤ بتهمة ترويج دولارات ورقية زائفة ، عن قصة مثيرة أثبتت أن رجال العصابات كانوا يعملون بالاشتراك مع رجال المخابرات السرية السوفياتية . وقد سجن الدكتور بورتان ولكنه لم يعترف بالمصدر الذي أخذ منه أوراق النقد الزائفة من فئة المائة دولار التي أعطاها لرجال العصابات في مقابل التنازل لهم عن ٣٠ في المائة من قيمتها . ولكن كريفيتزكي لم يلبث بعد بضع سنوات أن أبلغ إحدى لجان الكونغرس أن بورتان كان معروفاً للتشيكا بأسماء مستعارة منها فرانك بيل ، وادوارد كير ، وبورتسين ، وبيل.

والظاهر أن الرأس المفكر الحقيقي وراء هذه العملية كان غيرهارد ايسلر

الذي كان يعمل وقتئذ في برلين ، وقد أرسل أوراق النقد إلى الولايات المتحدة مع نقولا روزنبرغ من أهل البوسنة وكان يعمل في إنتاج الأفلام في هوليوود ، ولكن قسم المباحث الجنائية أخــذ يهتم به عندما أنشأ « الشركة الأميركية الرومانية للأفلام » في بوخارست لتكون مركزاً لعمله في البلقان . واعتقــل بورتان ولاذ روزنبرغ بالفرار من نيويورك ، وذهب إلى إيسلر الذي كان عندئذ في براغ ، وحمله على إقناع التشيكا بتخصيص مبلغ كبير من المــال للدفاع عن بورتان ، ولكن هذا الدفاع لم ينقذ بورتان من حكم بالسجن أمداً طويلاً .

مات منزينسكي في ١٠ أيار (مايو) سنة ١٩٣٤ ، وتولى ياغودا الإشراف الأعلى ، وكانت إعادة تنظيم « الغيبيو » ، الذي ظفر اسمه بالشهرة التي تمتعت بها التشيكا في عام ١٩٢٢ ، قد أعدت بالتفصيل قبل وفــاة منزينسكي ونفذت بلا إبطاء . ولم تكن جميع التغييرات الجوهرية من تفكير ياغودا وحده ، وإنما كان مصدرها ستالين وساعده الأيمن جورجي مكسيميليان نوفيتش مالنكوف السكرتير الخاص لستالين الذي أصبح فيما بعد أقرب مستشاريه . وقد ألغيت الادارة السياسية للدولة وانضمت أقسامها وأكثر المكاتب الباقية من الكومنترن إلى « النكفد » أي قوميسيرية الشعب للشؤون الداخلية ، التي لم تكن في الواقع غير تشيكا أكفأ تتبع أساليب أحدث . وجرّد الكومنترن من جميع النفوذ الإداري في الخدمة السرية . فقد انتقل هذا النفوذ إلى المكتب المركزي لأمن الدولة الذي يضم إدارات للمخابرات السرية وانقسم أيضاً إلى عــدة أقسام ، وأنشئت أيضاً ستة مكاتب مركزية أخرى وفرت لوزارة الداخلية الإشراف التام على جميع المخابرات السرية وشؤون الأمن . وظفر المكتب المركزي لأمن الدولة بالإشراف التام على كل شيء حتى وان كان بعيد الصلة بالجاسوسية ومناهضة المخابرات السرية . أما الوسيلة القوية لإعادة التنظيم التي كان لها الفضل في ذلك الطراز من قوات الأمن الموجودة إلى يومنا هذا ، فقد تأيدت بسلسلة من المراسيم أصدرتها فيما بين ١٠ تموز (يوليو) و ٥ تشرين الأول (نوفمبر) سنة ١٩٣٤ اللجنة التنفيذية المركزية ووقعها الرئيس كالينين ، ولا تزال هذه المراسيم معمولاً بها ،

وان أدخلت بعض التغييرات على الخدمة السرية خلال عهد بيريا .

واستمر حكم ياغودا عامين إلى أن اعتقل في شهر تموز (يوليه) سنة ١٩٣٦، عندما أمر ستالين بتعيين نيكولاي يزهوف سكرتيراً للجنة المركزية ليتولى إجراء حركة تطهير بين البلاشفة ورجال التشيكا القدامى . وتم في عهد يزهوف تعيين ثلثمائة شخص من الرؤساء والموظفين والعملاء في جميع الإدارات والأقسام المهمة . وتم تطهير الشبكات الأجنبية من كل شيوعي قد يعد عدواً ولو من بعيد لحكم ستالين وإشرافه التام . واختفى في الواقع آخر البلاشفة القدامى .

وشهد العامان اللذان قضاهما يزهوف في الحكم « حماماً من الدم » هلك فيه عدد كبير من خيرة أصحاب العقول في التشيكا . ولكن التركيب البيروقراطي لهذه الهيئة وضخامة حجمها مكناها من الصمود أمام هذه المحنة كما صمدت لحركات التطهير الأخرى . وكان الأعضاء الجدد الذين حلوا محل من تناولتهم « التصفية » أو الذين أرسلوا إلى معسكرات العمل يختلفون إلى حد كبير عن القدامى، فهم صغار السن لم يشتركوا في عهد ما قبل الثورة ولا يعرفون عنه ولا عن الأفكار التي كانت سائدة فيه شيئاً ، ولكنهم دربوا تدريباً كبيراً على أعمال المخابرات التي سيجيء وصفها في فصول قادمة .

ومن بين العوامل التي مكنت الجاسوسية الأجنبية السوفياتية من الاحتفاظ بكفاياتها برغم الهزات الداخلية ، عهد ما بعد الأزمة الاقتصادية ١٩٢٩ — ١٩٣٢ ، وقيام هتلر ، والحرب الأهلية الإسبانية . فقد أدت متاعب الأزمة الاقتصادية وحالات الفشل الظاهر للنظام الرأسمالي ، أدت بكثير من المتعلمين في أوروبا والولايات المتحدة إلى الانقياد للعملاء السوفيات الأكفاء الماكرين . وقد استغل قيام هتلر والخوف من الفاشية إلى أقصى حدود الاستغلال ، فأخذ الملايين يتطلعون إلى الاتحاد السوفياتي غير مدركين أن فيه حكماً مطلقاً كما في ألمانيا لا تتردد المخابرات السرية في التعاون مع قواده إذا وجدت ذلك مجزياً .

وقامت الرابطة بين العسكريين الرجعيين الألمان بل وبعض زعماء النازي ، وهيئة أركان الحرب السوفياتية والتشيكا . وقد نصح قواد الجيش الأحمر

وبعض زعماء الكرملين في عام ۱۹۲۰ وما بعده بالتحالف مع ألمانيا لأنهم كانوا يعتقدون أن في إمكان روسيا وألمانيا ، الأمتين الناهضتين ، أن تقضيا على الرأسماليين والاستعماريين الغربيين . والواضح أنه كانت تقوم وراء هذه السياسة فكرة أنـــه إذا تم النصر على الغرب أصبح في الإمكان « تكييف » الشعب الألماني بحيث يقبل الشيوعية ، وبهذا يتيسر إقامة حكم سوفياتي في وسط أوربا.

وكان الجيش الألماني الذي تولى الجنرال فون سيكت تدعيمه وتنظيمه إلى حد يدعو إلى الإعجاب منذ عام ۱۹۲۱، مخالفاً بذلك نصوص معاهدة فرساي، يتزوّد بالأسلحة من الجيش الأحمر . وظل كذلك بضع سنوات حتى بعد قيام النازيين وتسلمهم السلطة في ألمانيا . ولكن كريستنسكي السفير السوفياتي في برلين ، وخلفه فينتشوك الذي كان مندوباً تجارياً سوفياتياً في لندن ومنظم شبكة أركوس للتجسس، ظلا يقومان بالتآمر مع الملكيين الألمان وهم اليونكر البروسيون والطغمة العسكرية المحيطة بالجنرال فون شليخر والجنرال فون هاوستين . وكان مندوب المخابرات السرية السوفياتية في هذه المحالفات الغربية هانز كينبرغ الذي كان زعيماً لثورة بحارة همبورغ وأصبح فيما بعـد عضواً في الريخستاغ ، وتولى منذ عام ۱۹۲۸ منصب كبير جواسيس التشيكا في «الشؤون السياسية العسكرية الالمانية » . وعمد الجنرال بوتنا ، الملحق العسكري الالماني في برلين ، إلى توثيق صلته بالجنرال فون بريدو الخبير بشؤون روسيا في هيئـة الأركان العامة الالمانيـــة . ومن بين زعماء النازي الآخرين الذين اشتركوا في المؤامرة الكابتن أرنست روهم وغريغور ستراسر ، كما ظهرت فيما بعد أدلة أن هرمان غورنغ كان مشتركاً أيضاً في المؤامرة .

وعندما أصبح فون شليخر مستشاراً لألمانيا في ٢ كانون الأول (ديسمبر) سنة ۱۹۳۲ ، تبين أن جهود الخدمة السرية السوفياتية قد أوتيت ثماراً ، ولكن لم يكد ينقضي شهران حتى شقّ هتلر طريقه وأصبح مستشاراً للدولة ضد رغبة الجيش وأوساط الجناح الأيمن فانهارت خطة التعاون السوفياتي الالماني . على أن ستالين عاود هذه السياسة بعد ستة أعوام عندما تم توقيع ميثاق ريبنتروب ــ

مولوتوف في موسكو الذي نص ليس فقط على التعهد بعدم الاعتداء ، وإنما على توثيق أواصر الصداقة أيضاً بين ألمانيا النازية وروسيا الشيوعية .

ومع أن هذه الخطة كانت سياسة ستالين الشخصية رأينا الأشخاص الذين عهد إليهم بهذه المهمة الشاقة الخاصة بتحقيق التعاون بين السوفيات وألمانيا في عام ١٩٣٠ وما بعدها عوملوا بعد ذلك كخونة .

وفي عام ١٩٣٧ اتهم الجنرال بوتنا الملحق العسكري السوفياتي في برلين، هو والمارشال توخاشفسكي وستة قوّاد آخرين برتبـــة جنرال ، بالخيانة العظمى والتعاون مع النازي ونفذ فيهم حكم الإعدام .

واستدعي كيبيترغ إلى موسكو وقتله بالرصاص رجـال التشيكا . ولاقى بعض معاونيه المصير ذاته . وكان هتلر أيضاً قد تخلص من « أصدقاء التعاون السوفياتي الالماني » ، وهلك أرنست روهم وغريغور ستراسر والجنرال فون شليخر في « ليلة السكاكين الطويلة » ونجح غورنغ في تبرئة نفسه ولكن هتلر لم يثق به بعد ذلك .

وفي عام ١٩٣٨ اختفى يزهوف ، والمعتقد أنه توفي بعد ذلك في أحـــد مستشفيات الأمراض العقلية ، وخلفه لافرنتي بافلوفيتش بيريا ، وكان في الواقع خير من تولى شؤون الخدمة السرية السوفياتية خلال السبعة والثلاثين عاماً التي زاولت خلالها نشاطها .

ولد بيريا في تفليس سنة ١٨٩٨ وكان كستالين من أهل جورجيا . وكان والده موظفاً صغيراً انحدر من أسرة من المزارعين . وكان أمل بيريا أن يصبح مهندساً معمارياً ، ولكن الأسرة كانت مع هذا على شيء من البحبوحة فدخـل كلية المعلمين ، ثم انضم إلى الجيش القيصري في الحرب العالميـة الأولى ولكنه لم يرسل إلى الجبهة بسبب ضعف بصره . ويقول بيريا عن نفسه انه كان ثورياً منذ أول شبابه ، وحرض جنود وحدته على التمرّد فاعتقل وحوكم أمـــام مجلس عسكري حكم عليه بالإعدام،ففرّ إلى الجبال وانضم إلى الثوار من أهل جورجيا وأصبح زعيماً لهم في عام ١٩١٧. والظاهر أن هذه المعلومات لا تقوم على أساس

واقعي أكيد ، ولكن المؤكد فعلا أنه أصبح في ثورة تشرين الأول (اكتوبر) زعيماً صغيراً لعمال الزيت في باكو . وقد لاذ بالفرار بعد هزيمة الجيش الأحمر أمام الجيش الأبيض في عام ١٩١٩ تاركاً القوقاز تحت رحمة العناصر المناهضة للشيوعية . وقد استخدم في هربه جواز سفر مزيفاً باسم فانو داهيشيفيلي ، ووصل إلى أومسك في سيبيريا بعد رحلة محفوفة بالأخطار وسط البراري والقفار ، وقابل في سيبيريا أسرى الحرب المجريين الذين حرّرهم البلاشفة ، وعقد أواصر الصداقة مع كرواتي يدعى جوزيف بروز الذي أصبح بعد عشرين عاماً شخصية مرموقة في العالم ويعرف الآن بالماريشال تيتو .

وعاد إلى القوقاز لينضم إلى الحملة التي انتهت بهزيمة الجيش الأبيض ، وعمل في المخابرات السرية ، وتخصص في تهريب جنود ادّعوا أنهم فارون من الجيش الأحمر لينضموا إلى الجيش الأبيض بقيادة الجنرال دنيكين . وقد وصلت أنباؤه إلى موسكو فأوصى ستالين به لدى دزرشينسكي ، وأصبح بيريا في الثالثة والعشرين من العمر عميلاً موثوقاً بـه ، والتحق بالمفوضية السوفياتية في براغ ، وكانت مهمته الإبلاغ عن ضباط الجيش القيصري المنفيين ، وقاده عمله هذا إلى الاندماج في الحياة الراقية وأصبح معروفاً في الأندية الليلية في مدن وسط أوروبا . وهو يميل إلى تعلم اللغات ، وكان يتكلم الفرنسية والألمانية والتشيكية بطلاقة لا تقل عن طلاقته في الروسية ، وقد استدعي لقيادة حملة تأديبية ضد المزارعين في موطنه جورجيا ، وقد أتم عمله هذا بنجاح ، وأجيب إلى طلبه العودة إلى العمل في أوروبا ، فقضى منذ عام ١٩٢٨ نحو تسعة أعوام في الخارج ، واتخذ لنفسه عدة أسماء مستعارة تمكن بهـا من دخول أوساط المهاجرين من المنشفيك والتروتسكيين ، ونظم الرقابة التي فرضت على تروتسكي ، ومتابعته في الأماكن التي فرّ إليها من تركيا إلى ألمانيا ، ومن ألمانيا إلى الدانمرك إلى أن التجأ أخيراً إلى المكسيك .

وقد تولى بيريا الإشراف على التشيكا في عام ١٩٣٨ في وقت ساد فيه الإدراك بأن الحرب في أوروبا على وشك النشوب وأنها واقعة لا محالة ، فتحول الاهتمام

إلى المخابرات السرية الاستراتيجية ، وبخاصة الكشف عن الأسرار العسكرية العلمية . وكانت الخدمة السرية السوفياتية في ذلك الوقت تتألف كلها تقريباً من أشخاص تدربوا في ظل حكم ستالين وبينهم كثيرون من أهل جورجيا . وقد عمد بيريا ، وهو رحّالة ورجل مثقف ، إلى تشجيع فكرة ضم عملاء ذوي ثقافة عالية لكي يتمكنوا من التعامل مع العلماء ورجال الفكر والثقافة الأجانب ويكونوا في مستواهم العلمي والثقافي .

ويكاد يكون من الأمور المؤكدة أنه لم يكن هو المخطيء في فشل المخابرات السرية السوفياتية أولاً في تقدير المقاومة الفنلندية حق قدرها ، ثم في مدى الهجوم الألماني الذي كان وشيك الوقوع عندئذ ، فان الوقائع توحي بأن المخابرات السرية السوفياتية زوّدت الكرملين بالحقائق ، ولكن هذه الحقائق أسيء تفسيرها في الدوائر العليا لأسباب سياسية . وقد اضطرت المخابرات السرية السوفياتية خلال الحرب بطبيعة الحال إلى استخدام أكبر قدر من مواردها في الأهداف الحربية وتنظيم « حركات سرية » للتخريب في الأماكن التي يحتلها العدو . ولكن العمل الجليل الذي أدته هذه المخابرات بزعامة بيريا يظهر في القضايا العديدة التي وصفت في هذا الكتاب ، ولا سيما قضية «سورج في اليابان» و « الأوركسترا الحمراء » في ألمانيا والمناطق التي كان النازي يحتلونها في أوروبا .

وأخذت مطامع بيريا تنمو داخل الاتحاد السوفياتي ، وكان يعلم أن التشيكا هي السلم المؤدي إلى السلطة العليا . وعندما انتهت الحرب ، وقل الضغط على المسائل العسكرية البحتة ، انهمك في تثبيت مركزه بحيث يصبح مع توقع وفاة ستالين بلا منافس .

وبوفاة جدانوف الذي كان يعدّ خليفة ستالين أصبح بيريا بدون منافس لأنه انفرد بالإشراف على أداة قوية كالتشيكا . وكان مالينكوف من أقرب أصدقاء ستالين ، ولكنه مع هذا كان صغير السن ، ولا يتمتع بنفوذ على القادة الآخرين في الكرملين يمكنه أن يخلف ستالين . وكان هو المنافس الآخر الوحيد الذي قد يخشاه بيريا من صفوف الجيش الأحمر ، فقد كان قواد هذا الجيش

يكرهون التشيكا ويكرهونه هو ، ويستنكرون التدخل المستمر الذي يقوم به أتباعه الذين أطلق عليهم « ضباط الترفيه » و « العمال السياسيون »، والذين ألحقوا بكل وحدة عسكرية . ولم ينسوا، كما لم يغتفروا أبداً ، إعدام الماريشال توخاشنسكي في عام ١٩٣٧ ، وكذلك الضباط السبعة الآخرين برتبة الجنرال . وربما كان بيريا يأمل في أن يتفاوض مع الماريشال بولغانين وآخرين كجوكوف وكونيف ، وفاسيفيسكي وغيرهم من زعماء هيئة الأركان العامة . وكان يقدّر كفاءة مالينكوف ومواهبه ولكنه استهان بمكره ، ولذا جعله يعقد الصفقة مع الجيش قبل أن يفكر بيريا فيها بزمن طويل ، وهكذا ختم مصير بيريا عندما اجتمع حملة نعش ستالين في الكرملين . ولم يكن من المصادفات أن يرأس محاكمة بيريا الماريشال كونيف ، ولا أن يقدم الجيش القضاة العسكريين الذين أرسلوا زعيم التشيكا إلى ساحة الإعدام .

ولا تزال وفاة ستالين وما تلاها من أحداث ماثلة في الأذهان ، ولكن ما لا يعرفه الناس هو مدى عملية التطهير التي أعقبت سقوط بيريا . فقد قيل مثلاً ان بيريا كان أحد ثمانية أعدموا ، ولكن لم يظهر في أي مكان ما يدل على مدى أهمية هؤلاء الأشخاص ، ولم تنشر الصحف البريطانية حتى أسماء الستة الأعضاء في التشيكا الذين أعدموا مع بيريا . وكان كل منهم ، كبيريا نفسه ، مشتركاً في وقت ما في تدبير حوادث قتل أو اغتيال ، لا في داخل الحدود السوفياتية فقط بل أيضاً في عدة أقطار أوروبية .

الفصل الخامس

نظام المخابرات السوفياتية اليوم

تقوم في ميدان كالجاييف دار ذات ثلاث طبقات وباب صغير من المرمر ، تجاور مبنى مجلس الشيوخ القديم ، وقد بنيت في عام ١٧٧٥ وبها حديقة غناء مزدانة بالأزهار الجميلة ، وتطل نوافذها على مناظر طبيعية فاتنة ، وهذه الدار تؤلف مركز أكبر هيئة جاسوسية في العالم ، وان كان مظهرها لا يدل على هذا. وهي دار هادئة محفوفة بالغموض كالذين يعملون فيها ، وهي بعيدة عن حركة المرور وعلى نحو نصف ميل من وزارة الداخلية .

وقد اختار هذه الدار منزينسكي « شاعر التشيكا » لتكون مكتبه الخاص بعد أن قرر الانتقال من لوبينكا ، وكان مكتبه هذا أشبه بصالون حافل بالتماثيل واللوحات الفنية ، وكان يكتب بالقلم ذاته ترجمة الأشعار الفارسية ويوقع به أوامر القتل لموظفيه .

واحتل هذا المكتب بعد منزينسكي شخص يدعى سيرجي نيكوفوروفيتش كروغلوف الذي يحمل وسام الفروسية الفخري للامبراطورية البريطانية ، ووسام الاستحقاق الأميركي . وقد عيّن وزيراً للشؤون الداخلية وأمن الدولة في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٥٣ بعد وفاة ستالين وعندما أصبحت الوزارتان

تحت إشراف بيريا .

ولكن كروغلوف أعفي من بعض مهامه بعد ذلك بعام ، وقد أصبح نائبه السابق في وزارة الداخلية المدعو سيروف رئيساً للجنة الجديدة لأمن الدولة ومنح اختصاصات الوزير وهو يشرف على قوات الأمن والمجلس الاداري المخصوص .

ويتولى كروغلوف وسيروف توجيه أعمال المخابرات السرية السوفياتية ، ولكن الادارة الفعلية كان يتولاها اثنان لم يظهر أسماهما في القوائم الرسمية للحكومة السوفياتية .

وكان كروغلوف رجل بوليس وهو ضخم الجثة له عنق كعنق الثور ، وقد انضم إلى الميليشيا كشرطي وأخذ يرقى السلم ببطء تحت رئاسة منزينسكي وياغودا ويزهوف إلى أن أصبح كولونيلاً وقائداً لحرس الكرملين .

وقد بلغ الثالثة والخمسين عند وضع هذا الكتاب ، وقد أدى خدمات جليلة جعلته ينجو من حركات التطهير التي راح ضحيتها الكثيرون ، ومنهم خمسة من رؤسائه أعدم اثنان منهم رمياً بالرصاص ومات الآخرون ميتة غامضة. والمعتقد أنه هو الذي نفـّذ حكم الإعدام في الماريشال توخاشنسكي رئيس هيئة أركان حرب الجيش الأحمر الذي اتهم بالخيانة والتجسس لحساب ألمانيا ، وأعدم هو وسبعة من الجنرالات في عام ١٩٣٧ . وكوفىء كروغلوف بمنحه رتبة اللفتنانت جنرال الفخرية وأصبح نائب قوميسير الشؤون الداخلية ، وحتى مع وصوله إلى المناصب العليا ظل رجل بوليس ، ففي عام ١٩٤٤ رافق مولوتوف إلى أول اجتماع للجمعية العامة للأمم المتحدة في سان فرانسيسكو ، وقد لاحظ رجال المباحث الجنائية الأميركيين أنه يحمل مسدسين ضخمين تحت سترته .

وقد تولى إدارة تدابير الأمن في يالطا وطهران وأخيراً في بوتسدام خلال عام ١٩٤٥ ، ومما يذكر أن الساسة البريطانيين والأميركيين طلبوا من مولوتوف أن يرشح بعض موظفيه لمنحهم أوسمة بريطانية وأميركية مجاملة لمولوتوف ، فأجاب بابتسامة ساخرة قائلاً : « أعطوا وساماً لكوغلوف رئيس الأمن عندنا»

وسوف يقابل ذلك بالتقدير .. » . وأقيمت حفلة قلّد فيها اللورد إيسماي باسم الملك جورج السادس ، كروغلوف الوسام الأعظم للامبراطورية البريطانية ، وقلّده الرئيس ترومان وساماً أميركياً أعظم وهو وسام الاستحقاق .

وقد قرر مالينكوف بعد سقوط بيريا أن لا يعهد بعد ذلك لرجل واحد بالإشراف على الخدمة السرية ، فعهد بهيئة الجاسوسية لمديرين يخضعان اسمياً لكروغلوف ، ولكنهما في الواقع يبلغان جميع المسائل الهامة لمالينكوف وصهره القوي نيكيتا خروتشوف الذي خلف ستالين في منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي ، وكان هذان الاثنان في وقت كتابة هذا هما الجنرال بيتور ميخالوفيتش بوغدانوف واللفتنانت جنرال سيمونوفيتش بانيوشكين .

ويعد بوغدانوف الرجل الأهم ، وتقع على عاتقه مسؤولية الكفاءة الفنية لشبكة الجاسوسية السوفياتية المنتشرة في جميع ربوع العالم ، وهو على قدر كبير من الكفاءة في أعمال المخابرات السرية . ويقول مساعدوه ان عقله يعمل كآلة حاسبة ، ولا عجب في هذا ، فقد كان أستاذاً في الحساب في جامعة كييف عندما دخل الخدمة السرية منذ ٢٨ عاماً ، وقد استعين به كمنظم وإخصائي لا كثوري محترف ، ولم يكن من البلاشفة القدامى ولم يقم بدور هام في الحزب الشيوعي .

والظاهر أن بوغدانوف كان الطراز الجديد من الرجال الذي كان ياغودا ثم بيريا يتطلعان إليه ، وقد أخذ يرقى مناصب التشيكا بخطى وئيدة ولكنها مؤكدة، ولم يكن يعنى قط بالنضال القائم بين قادة الكرملين في سبيل السلطة ، وإنما كان ولاؤه للعمل وللأشخاص الذين يكونون في منصب الاشراف ، ويغلب على الظن أنه العقل المدبّر لأعمال التجسس على شؤون الذرة وان كانت هذه الأعمال قد نفذت في وقت ما تحت إشراف جدانوف .

وقد وصف بوغدانوف بأنه شخص متواضع خجول يفضل العمل من وراء الستار ، ولم يظهر اسمه قط في الصحف السوفياتية ، ولم تنشر له صورة على الاطلاق . والغالب أنه ظفر بالنياشين المعتادة كوسام الراية الحمراء ، أو وسام

لينين ، وهما الوسامان اللذان يمنحان عـادة للموظفين الذين في رتبته ، ولكن هذا الانعام لم يعلن ، وقد حصل على معلوماته عن البلدان الأجنبية بطريق غير مباشر ، فقد ترك المدرسة الإعدادية في سويسرا قبل الحرب العالمية الأولى ولم يخرج من روسيا بعد ذلك غير مرة واحدة ، وكان والده أستاذاً جامعياً ميسور الحال .

وكانت المرة الوحيدة التي سافر فيها إلى الخارج في شهر أيار (مايو) سنة ١٩٤٥ بأمر من ستالين ليحقق في ظروف وفـــاة هتلر ، ولم ينشر تقريره عن التحقيق الذي أجراه ، بل ولم يشر إليه بكلمة في الصحف السوفياتية .

وكان بوغدانوف يعمل في وقت كتابة هذا المؤلف رئيساً للادارة الأولى في الخدمة السرية السوفياتية ، وكان اللفتنانت جنرال بانيوشكين رئيساً للادارة الثانية التي تضم أقساماً خاصة بالنشاط الإرهابي .

وبانيوشكين الآن في التاسعة والأربعين من العمر ، متوسط الطول لا تفارق الابتسامة فمه، خفيف الروح، وهو أقرب شبهاً بممثل منه بديبلوماسي سوفياتي، وقد ولد في كويبيشيف على نهر الفولغـــا ، وتدرج في التعليم الشيوعي فدخل الكومسومول ، ورابطة الطلبة الشيوعيين ثم التعليم السياسي العالي إلى أن انتخبه ستالين نفسه ، وأصبح عضواً في لجنـــة التنقيح التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي . وبعد ان تنقل في مناصب ديبلوماسية صغيرة عيّن في عام ١٩٣٩ سفيراً سوفياتياً لدى حكومة شيانغ كاي شيك ، وهو منصب شغله في الرابعة والثلاثين من العمر ، وظل فيه خلال الحرب إلى عام ١٩٤٤ ، وكان عضواً غير رسمي في القسم الخارجي للتشيكا ، وقضى في هذا المنصب سنوات إلى أن عيّن سفيراً في الصين .

وفي عام ١٩٤٤ اختفى اسمه من الأنباء ، وفسّر استدعاؤه من الصين بأنه لآلام حادة في المعدة تقتضي علاجاً طويلاً وراحة تامة ، وفجأة عاد إلى الظهور في السلك الديبلوماسي السوفيـــاتي وعيّن في أكبر منصب فيه وهو سفير في الولايات المتحدة ، وقد وصل إلى واشنطن في عيد الميلاد في عام ١٩٤٧ وقدّم

أوراق اعتماده في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) إلى المستر روبرت لوفيت وزير الخارجية بالنيابة ، واعتبر من أكثر الدبلوماسيين الروس قرباً إلى قلوب الناس، وساد هذا الرأي حتى بعد اعتقال أربعـــة من موظفيه وهم يقومون بأعمال التجسس .

واستدعي بانيوشكين إلى موسكو في عام ١٩٥٢ ، وأذيع رسمياً انه نقل ليشغل « منصباً هاماً » ، ولكن لم يذكر شيء عن نوع هـذا العمل ، ولكن علمت بعد بضعة أشهر أنه عهد إليه بالإشراف على الإدارة الثانية للخدمة السرية السوفياتية .

ولم يعرف إلى الآن شيء عن التغييرات الفنية (إذا كانت هناك تغييرات) التي أدخلها بوغدانوف وبانيوشكين على نظام الهيئة منذ إلقـاء القبض على بيريا وإعدامه بعد ذلك في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٥ ، والنظام الذي أعنيه هنا هو الذي قام بعد إدماج في وزارة أمن الدولة خلال الربع الرابع من عام ١٩٥٤ .

ومن خصائص الخدمة السرية السوفياتية المرونـــة في تكوين أقسامها من صغار الموظفين . والتغييرات التي تجري فيها مختلفة ، وأحياناً تكون نتيجة للتنازع على السلطة في الكرملين ، ولهذا نجد أن بعد الستة عشر عاماً التي قضاها بيريا في الإشراف التام على هذه الهيئة ، ظهر أن بعض الأقسام التي يتولاهـــا مديرو أقسام من الذين أعدموا مع بيريا ، قد انشقت على غيرها وانفصلت عنها.

وغالباً ما يؤدي التغيير في المسرح الدولي إلى إنشاء أقسام جـديدة ، فقد حدث خلال الحرب أن أنشئت أقسام متصلة بحرب العصابات وأعمال التخريب، وقد أغلقت بطبيعة الحال أو أعيد تنظيمها بعد انتهاء الحرب. كما أنشئت أقسام جديدة أخرى لمعالجة المخابرات والجاسوسية المتصلة بالحروب في كوريا والهنـد الصينية والملايو . ولقد رأينا بلاغات رسمية تصدر بانتظـام من جنوب شرق آسيا تشير إلى « ضباط روس » أو « مدربين » ملحقين بقوات « فيات منه » أو طرائف الإرهابيين في الملايو .

ولا شك في أن بعض هؤلاء ضباط حقيقيون من الجيش الأحمر وسلاح الطيران السوفياتي نقلوا من وحداتهم وأوفدوا لأعمال عسكرية بحتة . ولكن الواقع أن البعض الآخر من عملاء التشيكا قد أرسلوا إلى جنوب شرق آسيا لتنظيم أعمال المخابرات والدعاية السياسية ، وكانت مهمتهم أن يجعلوا العمل قائماً على أساس المحترفين لكي يكون ذلك ضماناً لأن يتحوّل رجال العصابات أو العصاة إلى قوة أو جيش مهيأ من الناحيتين الطبيعية والعقلية للاشتراك في حرب غزو.

وكان للتشيكا قبل نشوب حرب كوريا في سنة ١٩٥٠ بزمن طويل مكتب كبير في سيول حيث تمّ تدريب مئات الكوريين على العمل كجواسيس .. أما البوليس السياسي لكوريا الشمالية فقد نظمته التشيكا لا الصينيون الذين كانوا مكروهين من الكوريين إلى حد أن الكوريين كانوا يفضلون الشيوعيين اليابانيين على عملاء ماوتسي تونغ .

والواقع أن هيئة التشيكا في الشرق الأقصى تضم عدداً كبيراً من اليابانيين وبعد احتلال أميركا لليابان في عام ١٩٤٥ نزح كثيرون من الشيوعيين اليابانيين إلى فلاديفوستك حيث تلقفتهم التشيكا وأرسلتهم إلى موسكو ليتدربوا في « أكاديمية الشرق الأقصى » التي أخرجت في الماضي بعض الزعماء البارزين من الشيوعيين الصينيين .

وقد اقترنت جميع أعمال إعادة تنظيم التشيكا بالجمع بـين عمل المخابرات الأساسي والجاسوسية والفتن التي تحدثها الدعاية السياسية الهدامة . ويستتبع هذا انه بالرغم من أن الاضراب الذي قد يحدث مثلاً بـين عمال الأحواض في بريطانيا لا يهمّ المخابرات العسكرية الروسية إلا قليلاً لأنه يمنع تدفق الأسلحة على القواعد البريطانية في الخارج ، فانه ينتظر مع هذا من العملاء في بريطانيا أن يستغلوا إضراباً كهذا في مصلحة الحرب الباردة السياسية .

ولا يمكن التأكيد في أكثر المناسبات بأن الفرق بين الحرب الساخنة والحرب الباردة يكون للاتحاد السوفياتي بمثابة الأسلحـــة والتكتيكات التي تستخدم لإضعاف العدو ، فان « المعاقل الأمامية » وشبكات الخدمة السرية السوفياتية

تنظم بحيث يمكن لطوائف من العملاء أن تعمل للتهييج السياسي فحسب، وذلك باستخدام أفراد الطابور الخامس « ورجال الاتصال » في نقــابات العمال ، كما تستغل في الوقت ذاته أي منازعات صناعية كإضراب عمال الأحواض البحرية في جمع معلومات عسكرية هامة .

وفيما يلي بيان عن أعمال قسمي المخابرات الخارجية وفروعهما :

ادارة مناهضة الجاسوسية : وتتولى جمع المعلومات الاستراتيجية والعامــة وتستخدم عملاء سريين في الخارج وتحمي الأسرار العسكرية والاستراتيجيــة للاتحاد السوفياتي، كما تعنى أيضاً بطريقة ما بحماية المعلومات السياسية والاقتصادية. وتخضع هذه الإدارة مباشرة لإشراف بوغدانوف ، وقد انقسمت في عام ١٩٥٤ إلى ١٢ قسماً رئيسياً ، كما أنشئت أقسام اتصال لتنسق عملها مع أقسام المخابرات في وزارات الخارجية والدفاع والتجارة الخارجية وبعض الوزارات المختصة بالصناعة .

وأهم الفروع الاثنى عشر هي :

١ – **القسم الخارجي** : وهو بمثابة هيئة أركان حرب الخدمة السريــة السوفياتية ووظيفته التوفيق بين بحوث المخابرات ، وجمع معلومات المخابرات ، وأعمال الفتن التي تقوم بها المخابرات . وله الإشراف التــام على جميع العملاء السريين ، ويتولى تعيين المهام والأهداف لشبكات المخابرات في الخارج، ويراجع ويفحص التقارير الواردة . ويصدر موظفو هــذا القسم التعليمات إلى موظفي الأقسام الأخرى بشأن المعلومات التي تحتاج إليها الحكومة السوفياتية ، وهو أيضاً يتولى إعداد تقارير عن المخابرات لرئاسة اللجنة التنفيذية التي حلت محل البوليتبورو (المكتب السياسي).

٢ – **قسم العمليات** : ويتولى تنظيم وتوجيه عمليات المخابرات السريــة ويشرف على الشبكات ، ويعين المديرين المقيمين ، ويختار العملاء الذين يوفدون إلى الخارج ، ويتخذ التدابير في حــالة الافتضاح ، ويعنى بأمر المواصلات . ولهذا القسم عملاء ألحقوا بجميع السفارات والقنصليات والبعثات التجاريــة

السوفياتية في الخارج .

٣ – **قسم المعلومات** : وينقسم إلى بعض أقسام تعمل لسد نهم المخابرات السرية وتعطشها إلى كل نوع من المعلومات ، ولهذا يهتم هذا القسم بجميع نواحي النشاط البشري في خارج الاتحاد السوفياتي سواء أكان سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو ثقافياً ، ولكن لا شأن له بالمعلومات العسكرية والاستراتيجية .

٤ – **القسم السري** : ويغلب على الظن أن يكون لديه أكبر مجموعة في العالم من مختلف أنواع الوثائق الحقيقية وأوراق تحقيق الشخصية وجوازات السفر وغيرها الخاصة بكل دولة أجنبية ، وفيه أيضاً مكتبة للخرائط والأزياء والشعارات والملابس . وله فرع طيبوغرافيا يتولى إصدار الوثائق والجوازات والأختام المزورة ، ويزود بها العملاء والرسل . وله فرع آخر يزود العملاء السوفيات « بالشخصيات » ويخترع الأسماء المستعارة ويبتكر اللغات السرية والشيفرة ، ويدبر أمكنة للاقامة ووسائل المراسلة ، ويعد جميع أنواع التزوير الذي تحتاج إليه المخابرات السرية أو مصالح الحكومة .

٥ – **قسم المواصلات** : ويتولى الأعمال العادية للمحافظة على الاتصال بالشبكات ويعالج أي شبكة خاصة بالانتقال .

وهناك أقسام وفروع عديدة أخرى تعالج مختلف نواحي المطالب الادارية واحتياجات المخابرات السرية .

وتحتفظ وزارة الدفاع ووزيرها الماريشال بولغانين بالاتصال الوثيق بادارات المخابرات السرية .

والاسم الرسمي لهيئة المخابرات العسكرية هو « إدارة التحقيق المركزية » لوزارة الدفاع ويرأسها جنرال في الجيش وهو الجنرال سيرجي ميخايلوفيتش شتيمنكو .

وتضم هذه الادارة قسمين رئيسيين وهما إدارة مكافحة المخابرات السرية وإدارة مكافحة التخريب ، ولهما فروع تعمل في شؤون المخابرات المتصلة بالاسلحة وإنتاجها وإنتاج الطائرات والنقل الحربي ، وهناك أيضاً إدارة منفصلة

برئاسة الكولونيل جنرال كوزنتسوف تعمــــل في المخابرات الاستراتيجية ومخابرات الميدان ، والهيئة بأسرها تحت إشراف الماريشال فاسيلفسكي الرئيس السابق لهيئة الأركان العامة ، وهو الآن كبير نائبي وزير الدفاع، وقد استضاف بعد الحرب الفيلد ماريشال مونتغمري في موسكو، وعندما عاد القائد البريطاني إلى لندن وصف فاسيليفسكي بأنه : « العقل المفكر وراء انتصار روسيا على ألمانيا » .

ولوزارة الخارجية أيضاً إدارة مخابراتها ، وينتحل عملاؤها في الخارج عادة صفة السكرتيرين في السفــــارات ، وغالباً ما يوفدون كملحقين ثقافيين ، أما السكرتيرون الثواني والثوالث ، أو الملحقون الذين يتمتعون بالامتيــــازات الدبلوماسية الكاملة ، فقد افتضحوا وتبين أنهم عملاء للتشيكا عيّنتهم إحدى إدارات وزارة الداخلية ، ويرسلون تقاريرهم إلى المقر الرئيسي للتشيكا في موسكو لا إلى وزارة الخارجية .

الادارة الثانية: هي مؤسسة لا يمكن أن تقوم إلا في دولة ذات حكم مطلق، ففضلاً عن أن بعض أقسامها يتولى استخـــدام وتدريب القتلة المحترفين وتنظيم عمليات الخطف والاغتيال ، فان أعمالها القليلة الضرر لا يستسيغها أي برلمان ديمقراطي ولا يحتملها .

ولعل خير ما يبين انفراد الاتحاد السوفياتي بهذه الهيئة التي لا نظير لها في أي حكومة في العالم ، ذكر الأقسام التي تتألف منها وتوضيح المهام المكلف بها موظفوها وعملاؤها .

فالادارة الثانية للأمن الإيجابي للدولة يتولى إدارتها اللفتنانت جنرال الكسندر بانيوشكين الذي خلف أباخونوف الذي « صفي » في مؤامرة الأطباء في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٣ ، وكان منصب أباخونوف كمدير ثان يعد هاماً إلى الحد الذي جعله في مرتبة نائب وزير في وزارة الداخلية تحت إدارة بيريا .

وأهم أقسام هذه الادارة وفروعها هي :

١ ــ **قسم الدعاية** : وهو اسم غامض مبهم ، ولكن مهامه محددة بوضوح

لموظفيه وعملائه ومفهومة تماماً منهم ، وكان هـذا القسم في الأصل جزءاً من سكرتيرية الكومنترن ومكتب التهييج والدعـاية التابع له ، وأهدافه هي إضعاف الأقطار الرأسمالية وتدميرها ، وله اتصالات سرية بالأحزاب الشيوعية في الخارج ، ويستخدم عملاءه في أعمال جاسوسية سياسية بحتة . ومن أهدافه الرئيسية خلق طابور خامس والمحافظة عليه . وينشط هذا القسم بصفة خاصة في الأقطار التي تقمع فيها الأحزاب الشيوعية ، وحيث تكون أعمال الشيوعيين سرية ، ولا تقف معاهدات الصداقة حائلاً في سبيل إضعاف حكومة هـــذا القطر والقضاء عليه .

٢ – **القسم المخصوص** : وهو القسم التاسع « للارهاب والتحول » وقـــد اكتسب شهرة غير مرغوب فيها في حادث هرب نيكولاي أفغنيفيتش خوخلوف العميل السري الذي أرسل إلى برلين في شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٥٤ لاغتيال زعيم هيئة الروس المناهضين للشيوعية .

٣ – **قسم الافراد** : وهو شبيه بالقسم التابع للتشيكا الذي يشرف على مدى الاعتماد على المواطنين بالتدخل في الحيـاة الشخصية لكل فرد من أفراد الشعب ، وذلك باستخدام الرقابة على البريد والتليفون وغيرهما . ويتولى هذا القسم في الميدان الخارجي الاشراف على جميع الرعـايا السوفيات سواء كانوا موظفين أو ديبلوماسيين أو أعضاء في الوفود التجارية أو أشخاصاً أرسلوا إلى الخارج في مهام خاصة ، فلا عجب إذا وجدنا عملاء هذا القسم منتشرين في جميع السفارات السوفياتية والقنصليات والبعثات التجـارية وغيرها . ولهذا القسم فرع منفصل يستخدم عملاء دربوا تدريباً خـــاصاً للابلاغ عن أعمال العملاء العاديين في الخارج ، وهم في الواقع جواسيس يتجسسون على جواسيس .

٤ – **الاقسام المتحالفة** : وهي إدارة المخابرات المختصة بالأقطار الشيوعية والضالعة مع روسيا ، وسأعالجها في أحد فصول الكتاب .

وتضم هذه الادارة الثانية مجموعات من المفتشين الذين ليس لهم عمل إداري وموظفين من ذوي المناصب العالية يوفدون إلى الخارج من حين لآخر ، وهؤلاء

جميعاً يرسلون تقاريرهم مباشرة إلى رؤساء التشيكا، وتؤدي توصياتهم إلى تنفيذ أوامر بفصل عملاء سريين يتهمون بقلة الكفاية أو يشك في أنهم قد يتحولون عن المبدأ الشيوعي ، وربما كانت هذه « التوصيات » تشمل « التصفية » .

ولا يقتصر إشرافهم على العملاء السريين وحدهم ، وإنما في إمكانهم مثلاً أن يحققوا في أعمال مسلك سفير سوفياتي أو مندوب سوفياتي كبير المكانة في الأمم المتحدة .

وتشرف الادارة الثانية أيضاً على « المجموعة المتنقلة ذات المهام الخاصة » التي أنشأها يزهوف في عام ١٩٣٦ للتخلص من الهاربين في الخارج، وتضم مجموعات من العملاء يختلف عددهم بين ثلاثة وثمانية ويعملون عادة مع عملاء القسم الخاص الملحق بقسم « الارهاب والتحول» ولكن إذا اقتضى الأمر القيام بمهام تعد من الأسرار العليا ، اضطلعت بها هذه المجموعات وحدها دون التعاون مع أحـــد. وقد تم التخلص من ايغناس ريس في سويسرا ، وقتل تروتسكي في المكسيك بأوامر أصدرها ستالين نفسه إلى أعضاء هذه المجموعات . والظاهر أن هذه المهام كانت تعد دقيقة إلى الحد الذي لا يسمح بتكليف القسم الخاص بها .

*

والتنظيم الأساسي للجاسوسية السوفياتية واحد في جميع الأقطار ، وان كان يختلف في العمل وفقاً للموقف السائد ، فيتغير عدد العملاء ويتحول اتجاه النشاط ومداه بتغيّر الحالة السياسية .

ففي الأعوام التي سبقت الحرب كان الاهتمام منصباً على التهييج والتخريب أكثر من الاهتمام بسرقة الأسرار العسكرية ، ولكن عندما هاجم هتلر الاتحاد السوفياتي ، تغيّر هذا الاهتمام بين يوم وليلة ، وان لم تبدأ نتيجة هذا التغيير في الظهور إلا بعد بضعة أشهر ، فقد كانت الشعوب التي تتكلم الانكليزية في ذلك الوقت حليفة لروسيا ، فلم يعد للتخريب أي معنى ما دامت هذه الشعوب تزود روسيا بالمواد الحربية ، أما المهيجون والعملاء الذين كانوا مهددين بالخطر بسبب

تمردهم ومعارضتهم للحرب ، ولهذا عمدوا إلى التستر والاختفاء ، فقد أخذوا يعملون علناً وينادون بزيادة المجهود الحربي، وينصحون بفتح جبهة ثانية لمساعدة روسيا .

ولم يكن معنى هذا ان الجهود التي تبذلها روسيا في الجاسوسية قد وهنت ، بل على العكس من ذلك ازدادت هذه الجهود برفع عدد العملاء إلى حد كبير ، ولكنهم وجّهوا توجيهاً آخر، إذ انحصر الاهتمام عندئذ في الجاسوسية العسكرية، مع التسلل إلى الهيئات السياسية والهيئات التي تؤلف الرأي العام ، وهو هدف هام وان كان ثانوياً بالنسبة للجاسوسية العسكرية ، وكانت هذه التغيّرات في الخدمة السرية السوفياتية تعكس قاعدة تنظيم سياسة الكرملين ، فقد رأت موسكو ، وفقاً لمذهب ماركس ، فرصة فريدة في تحويل الأقطار الأخرى إلى الشيوعية ، خلال الفوضى والانحلال اللذين سيحدثان في أعقاب الحرب، ولكنها كانت تتوقع تدخل الغرب في هذه المشروعات ، ولهذا كان يتعيّن على الخدمة السرية السوفياتية ان تقدم المعلومات العسكرية عن قوة الحلفاء العسكرية حتى يمكن بعد انتهاء الحرب المكشوفة تقديرها بدقة ، وان تتسلل أيضاً إذا أمكن إلى الهيئات الحكومية للحصول على معلومات سياسية .

ولهذا نجد « المراكز الأمامية » في الخارج تتغيّر بتغيّر البلاد والأوقات ، فيشتد الاهتمام بالمخابرات السياسية في بلد وبالمخابرات العسكرية في آخر ، فليس من المعقول أن يوفد إلى غواتيمالا مثلا عملاء مدربون خصيصاً على الحصول على أسرار الأسلحة .

وينتظم كل « مركز أمامي » عادة من أربع مجموعات لكل منها مهام معينة ، وهذا المركز الأمامي المثالي مؤلف من :

مجموعة ١ — وهي مختصة بالمخابرات السرية ونشاط الطابور الخامس المحلي.

مجموعة ٢ — وهي مختصة بالاكتشافات العلمية ، وتقدم التجارب الذرية ، والأسلحة ، والمخابرات العسكرية .

مجموعة ٣ — وهي مختصة بالمخابرات الاقتصادية ، والتزود بالمواد .

مجموعة ٤ — وهي مختصة بمهام خــاصة والاشراف على الموظفين والعملاء السوفيات في الخارج .

وان كل من له بعض الدراية بالمخابرات الغربية والجاسوسية القديمة التي عفا عليها الزمن ، سيلاحظ من هذا أن المخابرات العسكرية تأتي في مرتبة دنيا في هذا النظام ، فان المخابرات السرية السوفياتية تضفي عناية بالمعلومات الخاصة بالأسلحة الجــديدة والتطور العلمي أكبر من عنايتها بالشؤون الاستراتيجية العسكرية المتصلة بالقوات . والمخابرات العسكرية البحتة توكل إلى الملحقين العسكريين السوفيــات ، وهم الممثلون الحقيقيون لوزارة الدفاع ، على أن الدراسات الدقيقة للمراكز الأمامية والمعلومات الخاصة التي جمعتها هيئات مكافحة الجاسوسية في الغرب ، والتي تمكنتُ من الاطلاع عليها ، جعلتني أعتقد أن جميع المهام « الكبيرة » في المجال العسكري يتولاها عملاء التشيكا ، وأن الملحقين العسكريين والبحريين والجويين السوفيات يعنون فقط بالمهــام الروتينية التي خصصتها لهم وزارة الدفاع .

ويمكن شرح المهام والأهداف المخصصة لمختلف هذه المجموعات بشيء من التفصيل فيما يلي :

مجموعة ١ — تتألف عادة من العمــلاء السياسيين ، والمهمة الأساسية هي الابلاغ عن المشاكل الحكومية والادارية ، والأحوال الاجتماعية ، والروح المعنوية في زمن الحرب ، والأثر الذي يمكن أن يحدثه في الشعب انقلاب شيوعي .

وتعنى هذه المجموعة بصفة خاصة بتفاصيل نظام الدفاع المدني ، وخطط الجلاء وتموين الأغذية ، والنقل ، والخدمات العــامة ، ويتولى عملاؤها تنظيم الاتصال مع الهيئات الشيوعية والأحزاب اليسارية في البلاد التي يوفدون إليها .

فعندما أمر الماجور جودكوف الملحق الجــوي السوفياتي بالحصول على تفاصيل أحدث الطائرات النفاثة البريطانية ، اتصل بأحد عملاء هذه المجموعة ليظفر له بشيوعي له اتصالات ويمكنه أن يعثر على شخص « بريء » له معرفة أو يستطيع توفير التسهيلات في هذه الناحية . ولا يخفى انه ليس في إمكان

أي ملحق عسكري سوفياتي أن يتصل مباشرة بموظف من الذين لهم صلة بالعمل السري في مصانع الطائرات . كما ان هذا الملحق بوصفه عضواً في السفـــارة السوفياتية ممنوع من مقابلة أعضاء الحزب الشيوعي أو حتى العاطفين على الشيوعية ، ولهذا يتعين الاستعانة بعميل من عملاء « المجموعة ١ » ليكون وسيطاً يحقق الصلة مع الشخص الذي سيكون همزة الوصل الذي يعمل بدوره على العثور على الشخص « البريء » ويجمعه بالملحق الجوي .

ويذهب كثيرون من عملاء هـذه المجموعة إلى البلدان الأجنبية كصحفيين وهناك أمثلة عديدة على هذا. ولا عجب في هذا، فان هؤلاء الصحفيين يظفرون بمزية الدخول إلى أروقة البرلمانات ويحضرون المؤتمرات الصحفية وغالباً ما تمنح لهم بطاقات صحفية تمكنهم من دخول أماكن لا يدخلها الأشخاص العاديون .

ويُطلب من هؤلاء العملاء أن يعقدوا أكبر عـدد ممكن من الصلات ، وإذا عملوا كصحفيين أصبحت مهمتهم في جمع المعلومات السرية أسهل ، فغالباً مـا يحصل الصحفيون السياسيون على معلومات « ليست للنشر » أو تلميحـات من مصادر رسمية ، وربما أبلغوا بقرارات أو أعمال سرية لحكومة من الحكومات.

وهذه معلومات تكون عادة بمثابـة « الدردشة » وليست للنشر ، ولكن الصحفيين يتناولون بطبيعة الحال هذه المعلومات بالبحث ويتحدثون عنها فيما بينهم بحرية وبغير تحفظ . ومن أحـاديث كهذه ، وسقطات في الكلام وهي الصبغة المميزة للصحافة في الأقطـــار الديمقراطية ، يظفر العملاء السوفيات بمعلومات هامة .

مجموعة ٢ – تضم عملاء مهمتهم معرفة تطورات التجارب الذرية وإنتاج الأسلحة والمشاكل العسكرية . وقد حققت المخابرات السرية السوفياتية أكبر مؤامرة في هذا القرن بحصولها على أسرار القنبلة الذرية ، دون أن يكشف أمرها ، كما ظفرت بمعلومات عن الرادار . ويغلب على الظن أن يكون العملاء السوفيات قد حصلوا على معلومات عن التجارب التي أجريت في غابة دوميرا باستراليا على الصواريخ والقذائف الموجّهة ، وعن التجـارب التي أجريت في

مونتبللو على الأسلحة الذرية الجديدة . وليس من شك في أن عملاء هذه المجموعة في بريطانيا قد عهد إليهم بمهمة بث" الجواسيس في مختلف معامل الطاقة الذرية ومراكز الانتاج في هارويل وكمبرلاند وإيست انجليا واسكتلندا .

وعملاء هذه المجموعة يختارون من بين الذين تدربوا تدريباً فنياً كبيراً . ومع أنه ليس من مهمتهم أن يفحصوا بالتفصيل المعلومات التي يجمعونها ، فالمطلوب منهم أن يعرفوا ويفهموا ما يبحثون عنه ، وما يتلقونه من مبلغيهم أو وسطائهم أو الخونة ، ويدركون هل المادة التي حصلوا عليها صحيحة أم هي – كما حدث أحياناً – مزيفة بواسطة المبلغين على أمل الكسب ، أو مدسوسة من هيئات مكافحة الجاسوسية .

وهؤلاء العملاء يتلقون التعليمات الفنية من موسكو لتساعدهم في تحقيق أهدافهم .

مجموعة ٢ – تضم أيضاً إخصائيين عديدين ولكن من نوع آخر، فمنهم عملاء من الاقتصاديين ، وخبراء بمختلف الصناعات ، ويرسل كثيرون منهم كأعضاء في الوفود التجارية السوفياتية ، وان كانت البعثات التجارية تُستخدم أيضاً كستار يحجب جواسيس سياسيين أو عسكريين ، ولقد رأينا خينشوك رئيس الوفد التجاري السوفياتي في لندن يستغل مركزه في تهريب أسلحة إلى الصين .

والمعروف أن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لقطر ما إذا قدرت بمهارة فانها تبين لموسكو هل سيكون في استطاعة هذا القطر الصمود أمام هجوم ذري مفاجيء، أم هل ستتأثر موارده الاقتصادية وإنتاجه للأغذية وتموىناته ووسائل النقل فيه وطاقته الصناعية وغير ذلك ، أم هل تصمد لهذا الهجوم .

وهكذا يجمع هؤلاء العملاء معلومات تبدو في مظهرها بعيدة كل البعد عن أعمال المخابرات ، فهم يفحصون تقارير اجتماعات الشركات وميزانيات الحكومات وإيراداتها ، ويدرسون احصائيات عن الانتاج الصناعي والزراعي ويقدمون معلومات عن الاتجاهات التي تؤثر في أسواق السلع وأسعارها والأرباح والأجور ، ويعنون بإنتاج الفحم والصلب ، وعمليات شق الطرق وبناء مصانع

حديد ومستوى المعيشة والسكن والأحوال الشخصية .

ويتولى فحص هذه التفاصيل خبراء في المقر الرئيسي للخدمة السرية السوفياتية ، وبعض إدارات أخرى في موسكو لاستخلاص صورة عن استعداد إحدى الأمم لمواجهة الحروب أو انعدام قدرتها على مواجهتها ، وتقدير مدى قابليتها للتأثير الشيوعي .

وعملاء هذه المجموعة هم الوحيدون الذين في استطاعتهم أن يعرفوا حقيقة أي إضراب وهل هو من تحريض الشيوعيين أم لا .

ويطلب من هؤلاء العملاء أن يقوموا بأعمال تساعد المصالح الاقتصادية للاتحاد السوفياتي خلال فترة الحرب الباردة ، فيتولون تنظيم تهريب المواد الخام والسلع الصناعية من الأقطار الغربية إلى روسيا ويشرفون على هذا التهريب .

وكانت أغلب الحكومات الغربية تمنع من التصدير إلى الاتحاد السوفياتي أنواعاً كثيرة من المواد كالعدد والآلات ، والسيارات ، والمنتجات المعدنية والهندسية والكهربائية ، وبعض المواد الخام والمعادن ، ومنها الحديد الخام والصلب والنحاس والزنك والنيكل والمطاط وجميع أنواع الأسلحة ، وهي جميعاً مدرجة ضمن قائمة « السلع الاستراتيجية » الممنوع تصديرها إلى روسيا والصين وسائر أقطار الستار الحديدي ، وهي قيود تم الاتفاق عليها بين دول حلف الاطلنطي ، أو فرضتها الأمم المتحدة عقب نشوب الحرب الكورية .

ولكن هذه المواد وغيرها من المواد التي تعد« مواد استراتيجية عليا »كاليورانيوم والتنجستن كانت تهرب بكميات كبيرة في عامي ١٩٥٣ — ١٩٥٤ إلى أقطار الستار الحديدي .

مجموعة ٤ — وتضم أمهر عملاء المخابرات السرية السوفياتية وأجدرهم بالثقة . والمعروف أن عدداً قليلاً منهم يتلقون أوامرهم من رئيس الشبكة أو المدير المقيم ، ولكن أغلبهم تحت الإشراف المباشر للادارة الثانية في موسكو فيرسلون إليها بانتظام تقاريرهم عن الحياة الخاصة لجميع الرعايا السوفيات في الخارج وديبلوماسيي الأقطار المشايعة للاتحاد السوفياتي . وهم موضع شك على

الدوام بسبب كثرة تحولهم عن مبادئهم وطلبهم اعتبارهم لاجئين سياسيين في الأقطار الموجودين فيها .

فإذا ذهب سفير أو أي موظف آخر من موظفي السفارة إلى حفلة رسمية أو خاصة أو إلى مسرح سواء في واشنطن أو لندن أو أنقرة أو بونس ايرس أصبح موضع رقـــابة من العملاء أو الجواسيس المندسين بين الزائرين ويوصف هؤلاء العملاء بأنهم حرس ، ولكنهم في الواقع « كلاب حراسة » يأتمرون بأمر أسيادهم في موسكو وفي استطاعتهم أن يجعلوا حياة الموظفين السوفيات جحيماً .

والمعروف أن عملاء التشيكا أو العملاء المقيمين التابعين لمجموعة (٤) مزودون بتعليمات تقضي بأن يعنوا براحة أي فريق كرة قدم أو أي فريق رياضي آخر مشترك في ألعاب دوليـــة في الخارج ، أو العلماء السوفيات الذين يحضرون المؤتمرات في الخارج ، وكذلك أفراد فرق الباليه الروسي الذين يقيمون حفلات في العواصم الغربية .

الفصل السادس

الفهرس العظيم

ان جزءاً من نظام الادارة السرية السوفياتية ليستحق منا أن نفرد له فصلا قائماً بذاته ، فظمأ الشيوعيين للمعلومات الشخصية لا ينطفىء ، ومن المعتاد أن يطلب من الأعضاء الذين يطمحون لوظيفة من وظائف الحزب أن يكتبوا تاريخ حياتهم كاملاً . وقد أخذ الشيوعيون هذا النظام عن المحللين النفسيين ، ونجد عبارة : « دعه يكتب سيرة حياته كاملة » تتكرر في الأوامر الصادرة من موسكو إلى عملائها . وموسكو لا تكتفي بطلب تاريخ الشخص الذي يكون لها معه شأن، بل تطلب أيضاً معلومات عن أقاربه وجيرانه وأصدقائه وزملائه في العمل . ويمتد هذا الجنون لجمع المعلومات الشخصية إلى الأدلة وكتب المراجع من كل نوع ، بل ان ما يقال عن الشخص يجمع ويدوّن بعناية ، وهذا ما تبين للجنة التحقيق الملكية في استراليا .

وهذه المعلومات هي المواد الخام التي تغذي سنة بعد سنة أعظم مجموعة من الملفات الشخصية في العالم . ولا نكران أن في كل إدارة للمخابرات أو لمكافحة الجاسوسية ملفات ، إلا أنها لا تداني أبداً فهرس موسكو المركزي . لقد كانت سجلات الغستابو شاملة . وقد قال هتلر أنه يستطيع اختيار الرجال الصالحين

ويسيطر على أي دولة من الدول بواسطتهم بشرط أن يعرف كل شيء عن كل رجل . وقد أثبت نظريته هذه إلى حد ما عندما كان يختار الخونة ومعاونيه في أوروبا التي تحتلها الجيوش النازية . ومع ذلك فان سجلات الغستابو لا تقارن بسجلات التشيكا في الضخامة والدقة .

ويرجع منشأ الفهرس إلى فترة التآمر في الصراع الثوري ضد النظام القيصري ، وكانت الحركة السرية تجمع المعلومات الشخصية عن الأصدقاء والأعداء لحماية نفسها ، وكانت المنظمات الثورية تنقسم طوائف وأحزاباً ، وكثيراً ما كان يدب الخلاف بين بعضها والبعض الآخر ، وكان البلاشفة على وجه خاص يحرصون على تسجيل أسماء الأعضاء الذين لا يوثق بهم أو المتهورين المندفعين من الطوائف الإرهابية من حزب « نارودنايا فوليا » وحزب « أسار » — الحزب الاشتراكي الثوري — وحزب « أسدك » — الديمقراطيين الاشتراكيين — إلا أن الزعماء المنفيين كانوا يحتاجون أكثر من غيرهم إلى الأوصاف والتواريخ المفصلة لأعضاء منظماتهم الذين في روسيا نفسها ، إذ كانوا لا يعرفون الكثير منهم شخصياً بما في ذلك القادة العاملون ، فلينين مثلاً لم يكن يعرف ستالين إلا باسمه المستعار « كوبا » ، حتى بعد أن لعب دوراً هاماً في الحركة الثورية في القوقاز .

وكان الثوريون يحتاجون أيضاً إلى معلومات عن أعدائهم وكذلك عمن يرجح أن يعطف على قضيتهم من موظفي الحكومة وضباط الجيش والبوليس ومدرسي الجامعة وصفوة المفكرين . ولكي يستطيعوا القيام بالأعمال المباشرة كإلقاء القنابل ، والاغتيالات ، والسرقات من البنوك ، والهجوم على الترسانات ، كانوا يحتاجون إلى بيانات عن الأشخاص المختصين وحركاتهم وعاداتهم وظروف عائلاتهم .

وأمرت الحكومة السوفياتية بعد ثورة تشرين الأول (اكتوبر) بتوسيع هذه الملفات وجعلها فهرساً مركزياً أدمج في المحفوظات المركزية للحزب الشيوعي ، وخصص للفهرس فيما بعد بناء ضخم على ناصية شارعي ماشوفيا

أوليتزا وخوسد فيشنكا أمام قصر الكومنترن ، وعهد بهـذه المحفوظات إلى بولشفي قديم هو مواسيسي ابراموفيتش تريليسر ، وقد وضع أساس المجموعة الضخمة من المعلومـــات الشخصية والصور الفوتوغرافية والوثائق والخرائط والرسوم والاحصاءات . وما لبثت هذه المجموعة أن أصبحت تحت إشراف التشيكا المباشر عندما تولى تريليسر منصب نائب الرئيس وكان دزرشينسكي هو الرئيس ، وكان تريليسر أمين مكتبة بطبعه وعالماً في الاحصاء له موهبة غريبة على معرفة الحقائق التي تحتاج إليها التشيكا بالذات . ونما الفهرس المركزي بحيث أصبح في الوقت المناسب سلاحاً من الأسلحـــة التي اعتمد عليها لافرنتي بيريا لتوطيد سلطانه .

وكان لكل شيوعي من ستالين حتى أصغر عضو ، ملف منظم تنظيماً دقيقاً يضم تاريخ العضو بين دفتيه ، وكان من الأشياء الطريفة التي تضمنها ملف ستالين فيما تضمن ، السبعة عشر اسماً مستعاراً التي كان يتسمى بها في أيامه الأولى وبعض المعلومات التي لا تشرّفه . وما ان أصبح ستالين سكرتير عـــام الحزب حتى اختفى الملف ولم يحل محله ملف آخر أبداً . ولا يمكن لأكبر رجال الدولة أو حكام الكرملين مثل مولوتوف وفيشينسكي وبولغانين وكاغانوفيتش وميكويان أن يطمئنوا إلى أنه ليس لدى التشيكا تواريخ حوادث وقعت في حيـــاتهم أو ملاحظات أبديت عنهم قد تستخدم يوماً في الشهادة ضدهم . وكثير من الأدلة التي قدمت ضد البلاشفة القدامى الذين حوكموا في التطهيرات الكبرى كان مصدرها هذه الملفات المحفوظة في « الفهرس » . والملفات تنتظمها ثمانية أدوار من مئات الغرف ، أبوابها من الصلب تفتح وتغلق كهربائياً في بناء كبير شمال غربي الكرملين . وتحتفظ آلاف من الدواليب الصلب بملايين من الملفات الصفراء الظهر وكل منها يحتوي على صورة وتاريخ حياة رجل أو امرأة .

ولقد جاوز الفهرس غرضه الأصلي من تسجيـــل البيانات عن الشيوعيين وموظفي الدولة السوفياتية وبضعة آلاف من رجال السياسة الأجـانب ذوي الشأن والسياسيين والنقابيين ، وموظفي هيئة مكافحــة التجسس ، فقد أصبح

الفهرس اليوم يتضمن ملفات عن ملايين الأجانب الذين كانوا سيدهشون ولا شك إذا علموا ان الادارة السرية السوفياتية تعرف حتى أسماءهم . ولكن أي إنسان يكون قد تولى مركزاً عرف فيه أتفه الأسرار الرسمية أو اشتغل في فترة من حياته في إدارة حكومية أو في إنتاج الأسلحة ، أو اتصل أي اتصال برجال من الجانب الآخر من الستار الحديدي ، اجتماعياً أو رسمياً ، أو أبدى مجرد ملاحظة على مسمع من عميل شيوعي يشتم منها العطف على « القضية » أو على روسيا ، قد يتعرض لأن يكون له ملف يحمل اسمه وتتضمنه الدواليب الصلب مع بيانات كثيرة عن حياته وأخلاقه وعمله .

ويسجل الفهرس عدا البيانات الخاصة بمكان الولادة وتاريخ الميلاد والوالدين والأسرة ومحل الاقامة والوظيفة أو الحرفة ، تفصيلات أخرى أكثرها تافه . ومن الطبيعي ان الحصول على البيانات الخاصة بمواطن من الاتحاد السوفياتي أو من دولة تابعة له أسهل من الحصول على بيانات خاصة بشخص من العالم الحر ، وكذلك بعض الرسائل الخاصة ، والتسمع على الأحاديث التليفونية ، وتأثر خطى الشخص ، وقد تشمل هذه البيانات أسماء المدرسين وزملائه في الدراسة والأقارب والصديقات وزملائه في العمل أو في المهنة ، والمطاعم والمقاهي التي يتردد عليها ، والأماكن التي يزورها في العطلات والاجازات ، ومصالحه وهواياته . وتحفظ في ملفه اقتباسات من الرسائل التي يكتبها أو يتلقاها ، وتسجيلات لأحاديثه التليفونية ، وتقارير عن أحاديثه ومقالاته ، بل تحفظ في هذا الملف أيضاً الملاحظات الخاصة التي يبديها. وما من شيء لا يستحق التسجيل والحفظ مهما كان تافهاً ، فقد يصبح يوماً من أدلة الاتهام أو مدعاة للحرج، وهذا غرض من أغراض الفهرس ، وقد استخدم الملف في الحصول على « اعترافات » من متهمين، وللابقاء على الرجال والنساء في حالة يساورهم فيها الخوف من أن يكونوا قد فعلوا أو قالوا شيئاً يؤخذ عليهم في لحظة تخلى عنهم فيها حرصهم . وتجمع « الأشياء القذرة » عن الأشخاص الذين يكونون في الخارج وكثيراً ما يكون أساسها واهياً .

فإذا تصورت أن شيئاً من هذا مما لا يقبله العقل فأمعن النظر في الوثيقة التالية التي وقعت في يد البوليس الكندي بعد أن هرب جوزنكو . فقد أصدرت الادارة الثانية من إدارات التشيكا إلى عملاء شبكة السوفيات في أوتاوا التعليمات التالية :

« .. وليكن اتصالكم شخصياً في حديثكم مع جميع موظفي الحكومة وضباط الجيش وغيرهم من الأشخاص الذين يحتمل أن يصبحوا من المبلغين ، وليتناول حديثكم مواضيع شتى تبدأون فيه بأنفسكم وبتواريخ حياتكم وأعمالكم وحياتكم اليومية ، ولتسألوا معارفكم الجدد بين الفينة والفينة عن هذا وذاك من تفصيلات حياتهم كما لو كنتم تقارنون بين ما مرّ بكم في حياتكم وما مرّوا به .. »

أما المعلومات المفصلة التي كانت تطلبها موسكو فهي كما يلي :

١ – ايضاح المعلومات الجوهرية :

أ – المركز الحالي وأين كان يشتغل قبلاً ؟

ب – هل سيظل في الخدمة (الجيش ، السلاح الجوي ، البحرية الخ ..) وأين هو الآن ؟

ج – منذ متى هو في الخدمة ، وهل الخدمة تروق له ؟

د – علاقته برؤسائه المباشرين .

٢ – ايضاح البيانات الشخصية :

أ – العمر ، الوالدان ، حالة الأسرة .

ب – التعليم ، التخصص الرئيسي ، المعلومات الفنية الخاصة أو سواها .

ج – ميله السياسي ، الحزب الذي ينتمي إليه ، رأيه في الملك والأسرة المالكة .

د – حالته المالية ، رغبته في توفير الضمانات المـــادية لأسرته (مثلاً ميله للاشتغال بالتجارة، أو لشراء سيارة خاصة أو لامتلاك منزل) وما الذي يعوقه عن تنفيذ هذه الخطط .

هـ – موقفه حيال بلادنا (الاتحاد السوفياتي) وحيال سياستنا .

و – أين يجد رفاهية بلاده (مثلاً في صداقتها بأميركا أو الاحتفاظ بالنفوذ البريطاني في العالم) .

٣ – المميزات الشخصية الايجابية والسلبية :

أ – الميل إلى الشرب ، الصديقات ، أو انه رب أسرة صالح .

ب – مغرم بالأشياء الجميلة ، أو انه يميل إلى الوحدة والهدوء .

ج – تأثير زوجته عليه في تصرفاته ، أو استقلاله في البت في الأمور .

د – دائرة معارفه ووصف تقريبي موجز لأخلاقهم .

وقد وضعت هذه الأسئلة على وجه خاص لاختيار العملاء، إلا أنه يتبين منها العناية الدقيقة التي تبذل في جمع التفصيلات والرغبة الملحة في اكتشاف نقـط الضعف البشري التي يمكن استغلالها . وقد طلب من بتروف في استراليا أن يسجل بصفة خاصة أي نقط ضعف في القوم الذين لهم حق الاطلاع على المعلومات الحكومية ، ومعتقداتهم الدينية ، وأية علاقات تكون لهم مع غير نسائهم أو شواذات جنسية يكونون مصابين بها ، ويجب ملاحظة مسلكهم وهم يشربون ثم تدوين الملاحظات التي قد يرونها في صالح روسيا .

ومن الوثائق التي سلمها بتروف ، مستند أطلق عليه مستر وينداير مستشار الكومونولث الأول اسم المستند « ح » وهو يحوي أسماء وأوصاف من يحتمل أن يكونوا من المبلغين أو من يمكن خداعهم في استراليا ، وقد تضمن أحد هذه الأوصاف أن قريباً من أقارب هؤلاء الرجـــال كان من « المصابين بالشذوذ الجنسي » . وقد أسند لرجل آخر أنه اختلس وانه « أغرى امرأة على التبذل

وشجعها على أن تصبح امرأة منحطة سيئة الخلق » . ووصف رجل ثالث بأنه « سعى إلى الاختلاط الجنسي بإحدى النساء » .

وقد قال مستر ويندابر ، الذي ذكر أن هذه الأوصاف ما هي إلا « خليط من الحقائق والأكاذيب والأقذار » ، ان الوثيقة « ح » إنما كتبت في السفارة الروسية بكانبرا ، وسلمت إلى باخينوف الموظف بوكالة تاس والذي كان يعمل تحت رئاسة المراسل الأول أنطونوف ، وهو من قويت الشبهة ضده بأنه المدير المقيم للشبكة الاسترالية . ومن الجلي أن هـــذه الأوصاف كانت تجمع حتى يتضمنها فهرس موسكو للرجوع إليها عندما تقتضي الحال . وقد وصف بعض الاستراليين الذين قيل انهم أسهموا في هذه الوثيقـــة بأنها مزورة . وقد اتهم الدكتور إيفات ، زعيم حزب العمال الاسترالي الذي كان في وقت من الأوقات مستشاراً للجنة التحقيق الملكية ، بتروف وإدارة الأمن الاسترالية « بفبركة » هذه القائمة . ومهما كان من صدق المصادر التي استقيت منها الأنباء الجنسية فان هذه الأنباء كانت تهتم بذكر الأوصاف لتكون من دواعي الحرج عند الاقتضاء . وكان لافرنتي بيريا هو الذي أدخـــل الأمور الجنسية فيما يتضمنه الفهرس من المعلومات عن الشخص . وقد سرد ألبرت جورينسن بعض التفصيلات في سلسلة من المقالات نشرت في بريطانيا سنة ١٩٥٤ ، وكان جورينسن صحفياً تشيكياً هرب بعد احتلال الألمان لبلاده إلى موسكو ، واشتغل هناك في خدمة الادارة السرية السوفياتية خـــلال الحرب ، ثم هرب بعدئذ إلى الغرب . وقد عرف جورينسن بيريا سنة ١٩٢٠ عندما كان بيريا ملحقاً في براغ ، ويقول عنه انه كان يفخر بأن عملاء التشيكا كانوا ينقلون إليه كل مغامرة غرامية يخوض غمارها أحد حكام الكرملين . وقد قال بيريا : « انني لا أحب أن أستخدم النساء في الادارة السرية ، إلا أنهن نافعات في استدراج من تقتضي الحال استدراجهم من الرجال ، ويتعذر على المرء أن يصدق كم يصبح كبار الرجال صغاراً وهم في الفراش ، وأي معلومات يبوحون بها لعشيقاتهم ، وكنت أحصل أحياناً على معلومات من نساء مبتذلات كان عشاقهن من المكتب السياسي (البوليتبورو). وكانت المعلومات

من السرية بحيث لم تكد تطرح على بساط البحث في جلسات ذلك المكتب..».

وقد استخدم الفهرس داخل روسيا كسلاح من « أسلحة الارهاب » ، أما خارج روسيا فقد كان الغرض منه المعاونة على اختيار العملاء الذين يقومون بالتجسس ، والتدمير ، أو على القيام بعمل عسكري إبان الثورات عندما تتهيأ الفرصة لقيامها . وثمة غرض ثالث واضح وهو التهديد ، فقد كان يسجل في هذا الفهرس اسم أي شخص له قيمة اتصل أي اتصال بمنظمة شيوعيـــة ، ويمكن اعتباره لهذا الغرض ممن يعطفون على الشيوعية ولو عن بعد.ويبدأ أولاً بتسجيل اسمه ، ثم تجمع بعدئذ المعلومات عنه بتفصيـل أوفى ، وقد لا يقتضي الأمر استخدام الملف لمدة سنة أو خمس سنوات أو عشر سنوات — إلى أن يصبح في استطاعة الشخص الحصول على المعلومات المطلوبة أو يمكن الانتفاع به انتفاعاً آخر . ولنسق مثلاً على استخدام الادارة السرية السوفياتية للفهرس . وهـذا المثل يتضمن المحاولة الأولى للحصول على معلومات ذريـــة من معمل الاشعاع بجامعة كاليفورنيا كما ذكرتها « لجنة النشاط غير الأميركي » بمجلس النواب سنة ١٩٤٩ في تقريرها عن « التجسس الذري » . فقد ذهبت امرأة خـلال الحرب الأهلية الاسبانية إلى إسبانيا لمقابلة زوجها الذي كان قد تطوّع في القتـــال ، وعلمت عند وصولها أن زوجها قد لقي حتفه ، إلا أنها قابلت عضواً آخر من أعضاء الفرقة الدولية هو ستيف نيلسون ، وكان شيوعياً له نشاط منذ أمـد طويل في الولايات المتحدة ، وارتقى إلى رتبـة ليفتننانت كولونيل ، وصادق نيلسون المرأة ثم عادت في الوقت المناسب إلى الولايات المتحدة وتزوجت من عالم كبير من علماء الطبيعة الأميركيين .

ولا بد أن هذا كله قد سجل في الفهرس ، ذلك أنه ما ان ثار موضوع التجسس الذري بعد ذلك بسنوات ، حتى صدرت الأوامر إلى عملاء السوفيات للاتصال بالمرأة بقصد التسرب إلى المعمل الذي كان يشتغل فيه زوجها . لقـد سجل الفهرس أن المرأة كانت زوج متطوّع في الفرقة الدولية ثم تزوجت بعدئذ بعالم من علماء الطبيعة ، وأن هذا العالم يعمل في الأبحاث الخاصة بالقنبلة الذرية ،

وقد اتضح أن المعلومات التي استقيت من الفهرس لم يكن لها نفع في هذه الحالة بالذات إذ أن المرأة وزوجها كانا من المخلصين ، وقد اضطر العميل إلى القول بأنهما ليسا ممن يعطفون على الشيوعية .

إلا أن الفهرس كان أكثر نجاحاً في حالة دافيد غرينغلاس ، فان غرينغلاس كان قد التحق وهو في السادسة عشرة من عمره بالجمعيـــة الشيوعية الأميركية للشبان . ويبدو أن انضمامه إلى هذا الحزب كان بإلحاح أخته الأكبر منه سناً ، ويلوح انه كان من أولئك الذين يستهينون بالأمور ، وما لبثت همته ان فترت بعد فترة من الزمن فكفّ عن حضور اجتماعات الحزب . وما من شك في انه لم يكن شيوعياً عندما استدعي للخدمة العسكرية بعد أن دخلت أميركا الحرب، وقد درّب تدريباً فنياً . وفي تموز (يوليو) سنة ١٩٤٤ ألحق « بمشروع ناحية مانهاتن » وهو الاسم الرمزي للمصنع الذري في أول ريدج بولايـة تنيسي . ثم أرسل بعدئذ إلى لوس ألاموس حيث كانت تدابير الأمن من الدقة بحيث انه لم يكن يدري فيما تستعمل أجزاء الآلات التي ظل بضعة أسابيع يصنعها نقلاً عن رسوم يعدها له الخبراء ، إلا أن الادارة السرية السوفياتية كانت تعلم ان لوس ألاموس مشغولة بصنع قنبلة ذرية ، وقد لاح الأمل في تسرّب عميل للسوفيات إلى أي قسم مهم من أقسام المصنع بعيداً جداً وذلك بفضل تدابير الأمن التي بلغت الذروة من الضبط والاحكام . وكان السبيل الوحيد هو البحث عن رجال من داخل المصنع يمكن استخلاص المعلومـات عنهم . وقد استشير الفهرس ، وبحثت بطاقة غرينغلاس في الوقت المناسب ، فاتضح منهـــا أنه كان شيوعياً في شبابه، ولكنه أقلع عن مبدئه بسبب فتور همته وخمود حميته . واتضح منها أيضاً انه كان فتى سلس القياد ، من السهل التأثير عليه ، وان أكثر الناس تأثيراً عليه أخته ايثل ثم زوجته روث . وبينت البطاقة أيضاً أن أخته إيثل كانت قد تزوجت جوليس رونبرغ، وهو شيوعي غيور اتصل بالحركة السرية للتجسس وحصل بالفعل على معلومات عن الرادار لها شأنها . وكانت الوسيلة واضحة فما على إيثل إلا أن تستخدم تأثيرها على دافيد وروث غرينغلاس ، واتصل العميل

الروسي باكوفليف بآل روزنبرغ ، وبقية القصة معروفة . ولعل مما يجدر بنا أن نذكره في هذا المقام انه لا إيثل ولا جوليوس روزنبرغ كانا يعلمان أول الأمر أن دافيد يشتغل في أعمال تتصل بالقنبلة الذرية . ولم يكن غرينغلاس يدرك كنه العمل الذي يشتغل به إلى أن أخبره آل روزنبرغ بحقيقة الأمر ، بل لعله ، وهو لم يكن من العلماء ، ما كان ليدرك تماماً أهمية ما كان يفعل بالضبط ، إلا أن الفهرس كان يعلم كل شيء ، وهذه المعلومات التي كانت تبدو تافهة عن شيوعي شاب لم يكن مشتعل الحماسة لشيوعيته والتي حفظت في ملف خاص به منذ سنوات ، كانت هي المفتاح الذي فتح مغاليق أعظم أسرار العالم التي أحاطها المسؤولون بسياج قوي من الكتمان وأقاموا عليها حراسة شديدة .

وكانت البيانات التي تضمنها فهرس موسكو عن كل من نون ماي وكلاوس فوخس أدق من بيانات قوات الأمن عنهما في الدول التي كانا يشتغلان فيها ، ولم يعترف نون ماي اعترافاً كاملاً ، ولم يذكر من الحقائق في المحاكمة العلنية إلا أقل ما استلزمته المحاكمة . ذلك أن الجهود كانت تبذل إبان هذه المحاكمة الأولى من محاكمات التجسس الذري للمحافظة على علاقات الود مع روسيا . إلا أن الوثائق التي قبلتها اللجنة الملكية تدل على انه في مستهل سنة ١٩٤٥ أرسلت موسكو إلى رئيس حلقة التجسس الكندية معلومات عن نون ماي لا بد أن يكون مصدرها الفهرس ، وأرسل الكولونيل زابوتين الليفتنانت أنجيلوف ، أحد معاونيه ، لمقابلة نون ماي في شقته في شارع سويل بمونتريال . وقد سجل الدكتور ماي هذا الحادث بنفسه في اعترافه المكتوب إذ قال : « اتصل بي شخص لا أحب أن أكشف عن شخصيته ، والظاهر أنه كان يعلم أنني أشتغل في معمل مونتريال ، وقد جاء يلتمس عندي معلومات عن الأبحاث الذرية ... » . ومن ثم فان العلم بأن نون ماي كان يعمل في الأبحاث الذرية في معمل بمونتريال ، وأن من المحتمل أن يكون أداة طيعة ، كان مصدره موسكو لا عميلاً في كندا ، ولعل موسكو قد تلقت من لندن قائمة بالعلماء الذين أوفدوا إلى أميركا الشمالية ، ثم تبينت الامكانيات في الحال بالرجوع إلى الفهرس . ونحن لا نعلم ما سجله

الفهرس عن نشاط نون ماي وأخلاقه، إلا أن الثابت أن زابوتين جازف بإرسال أحد معاونيه إليه بدلاً من أن يوسط بينه وبين ماي عميلاً كندياً ، وهذا يوحي بأنه لا بد قد تلقى من موسكو ما يؤكد له أن الاتصال بماي لن يترتب عليه على الأقل أن يستنجد نون ماي بالبوليس .

ولا جدال في أن الفهرس كان يتضمن اسم كلاوس فوخس ، لأنه كان عضواً في جمعية الطلبة الشيوعيين بجامعة كييل قبل أن يهاجر إلى بريطانيا . ويبدو أنه لم يقم بدور بارز في الجمعية ، وربما لم يقيد في الفهرس أكثر من اسمه وعمره ، ولكن ما ان وردت رسالة من عميل من لندن يقول فيها انه تم الاتصال بشخص يدعى فوخس حتى رجعت موسكو إلى الفهرس واستطاعت أن تتحقق من وجوده وأنه ليس مدسوساً عليها من المخابرات البريطانية ، ومن ثم أصدرت الأمر « بتنشئته » تنشئة كاملة وبأسرع وقت ممكن . وقد بدأ فوخس بإعطاء معلومات شخصية لا ضرر منها نسبياً ، ولم يبح بمعلومات سرية بمعنى الكلمة إلا فيما بعد . وقال فوخس : ان هذا الذي أقدم عليه كان بناء على وحي شخصي لم يكن لأحد يد فيه ، إلا أن الواقع أن « تنشئته » كانت قد جرت بمهارة ، بل لعل التأثير كان سبيله التهديد . ذلك أن الفهرس كان قد كشف عن اتصالاته الشيوعية في مستهل حياته ، وكان يكفي التلميح له بأن في نقل هذه المعلومات إلى البريطانيين دمار حياته .

ويتضمن الفهرس أسماء آلاف من الرجال والنساء الذين لا شك في نزاهتهم وإخلاصهم ، وقد سجل اسما ضابطين من ضباط الجيش الكندي في الفهرس ، وأطلق عليهما اسمان رمزيان ، ولم يكن السبب في هذا إلا أنهما كانا يعاملان الديبلوماسيين السوفيات بما يقتضيه الواجب من أدب وكياسة . وقد اشتملت الوثائق التي قدمت إلى اللجنة الملكية الاسترالية على أسماء رجال ونساء لا يوجد من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأنهم خانوا بلادهم في أي مناسبة من المناسبات . وقد سجلت أسماء عضوين من أعضاء البرلمان الاسترالي ، وعضو في حزب الحكومة ، وعضو في حزب المعارضة بالبرلمان الاسترالي ، لأن عملاء

السوفيات السريين ظنوا أنهم قد يفشون بعض الأسرار دون وعي منهم ، وتشتمل ملفات كثير من السياسيين البريطانيين على ملاحظة مفادها أنهم قد يكونون مصادر للمعلومات في غفلة منهم ، أما قائمة أعضاء الكونغرس الأميركي الذين ينطبق عليهم هذا القول فأطول بكثير !

ويتبين تعطش الروس للأسماء والعناوين والتفصيلات من حادث وقع في لندن منذ عهد ليس ببعيد ، فقد تلقى بعض ضباط الجيش البريطاني وسلاحه الجوي دعوات لحضور حفلات كوكتيل واستقبالات يقيمها الملحق العسكري السوفياتي في دار السفارة بحدائق كنزنغتون بالاس، واتصل أحد موظفي السفارة ببعضهم تلفونياً وسألهم في أدب عما إذا كانوا قد قبلوا الدعوة . وما كان في هذا شيء يلفت النظر ، لولا أن موظف السفارة اتصل بهم عن طريق خطوط التليفون الخاصة بهيئة أركان الحرب ومجلس الطيران الأعلى ، وأرقام هذه التليفونات لا ترد قط في أي دليل عام أو قائمة تطبع وتنشر .

وقد دلت التحريات على أن السفارة السوفياتية قد حصلت على الأدلة السرية الخاصة بوزارة الحربية والبحرية ووزارة الطيران ، وهذه القوائم تذكر اسم الضابط ورتبته ورقم الخط التليفوني الخاص به والمصلحة أو القسم الملحق به ، والعمل الموكول إليه . وليست تلك القوائم من الوثائق السرية التي يترتب على الافشاء بمحتوياتها الاخلال بأمن البلاد ، إلا أنها تحمل على غلافها تحذيراً من « اطلاع الأشخاص غير المسؤولين عليها » . أما كيف وقعت في يد السوفيات فأمر لم يكشف عنه القناع ، وكان استخدامها في معرفة من سيلبي الدعوة من الضباط من أدلة غباء الادارة السوفياتية في بعض الأحيان .

ويهتم الفهرس اهتماماً خاصاً باللاجئين والمهاجرين . وذلك لأسباب واضحة من لغو القول شرحها . وقد قال الكابتن نيكولاي خوخلوف : ان قسم الفهرس قد جمع قوائم كاملة بكل « الروس البيض » الذين في الخارج ، وان حركاتهم تراقب بدقة ، وكذلك يرصد أي تغيير في مساكنهم أو محال عملهم . ولا شك أن الهدف من محاولات التسرب إلى المنظمات الحرة والمنظمات المناهضة للشيوعية

التي يؤلفها المهاجرون هي أن يظل الفهرس حديث المعلومات لاحتمال الانتفاع بشيء من هذه المعلومات فيما بعـد للتهديد . ويفسر لنا الفهرس أيضاً كيف استطاع عملاء السوفيات أن يظهروا على أبواب اللاجئين وكأنهم هبطوا من السماء . وبعض هؤلاء اللاجئين كانوا قد غيّروا أسماءهم وقطعوا كل صلة كانت تربطهم بأوطانهم السابقة وبمواطنيهم ، وسأسرد بعض الأمثلة على ذلك فيما بعد. ويكفينا في هذا المقام أن نقول أن أولئك الأشخاص ما كان ليُعثر عليهم قط لو ان المعلومات عنهم لم تكن تتضمنها ملفات موسكو .

ويقول الموظفون السوفيات الذين هربوا إلى الغرب وكانوا يعرفون بعض الشيء عن النظام الداخلي للفهرس المركزي ان أكثر من ٢٥٠ من موظفي التشيكا لا عمل لهم إلا استكمال الفهرس ليكون حديثاً جداً أي مشتملاً على أحـدث المعلومات . ومعظم هؤلاء الموظفين من النساء ، وأغلبهن يجدن اللغات الأجنبية بحيث يمكنهن التصرف في المواد المـأخوذة من كتب المراجع أو المنقولة عن الصحف الأجنبية ،ويصدر الجزء الأكبر من هذه المعلومات عن قسم الاستعلامات بالادارة الأولى من إدارات التشيكا التي « تغربل » التقارير العـامة الواردة من العملاء السريين ، وتتصرف في كل شيء يكتب أو يقال أو يذاع أو ينشر في أي بقعة من بقاع الأرض ويعتبر ذا قيمة أو أهمية لأعمال التجسس .

وتقول النظرية الشيوعية ان الثورة ستنشب في النهاية في كل دولة من دول العالم ، وان هذه الثورة ستكون بطبيعة الحال تحت حماية موسكو ، ولذلـك وجب أن يكون الفهرس متضمناً أتم المعلومـات عن الأشخاص الذين يجب التصرف معهم في أية دولة من الدول . فإذا لاح « موقف ثوري » في بريطانيا أو الولايات المتحدة غداً ، فان الموظفين السوفيات يستطيعون ان يدخلوا لا السياسيين المعروفين فحسب بل كل شخص يستطيع أن يؤثر في الحركة برأي أو عمل . وقد عقدت موسكو معاهدة مع هتلر بعد سقوط بولندا في مستهل الحرب الأخيرة، ومن مقتضاها أن يحتل الجيش الأحمر الولايات المتحدة البولندية الشرقية ، وامتدت بذلك دائرة النفوذ السوفياتي على ثلاث جمهوريات من دول

البلطيق هي لاتفيا واستونيا ولتوانيا، وما ان انقضت بضعة أيام في حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٠ حتى كانت فرق الدبابات السوفياتية تكتسح الدول الثلاث بعد أن هددت حكومتها بإلقاء القنابل على السكان دون تمييز وبذلك أقيم نظام سوفياتي في كل منها .

وقد جاء رجال التشيكا ، الذين صحبوا الجيش الأحمر ، معهم بقوائم أساسها فهرس موسكو ، تتضمن أسماء وعناوين بل مخابىء جميع الأشخاص المطلوب القبض عليهم بعد الاحتلال مباشرة .

وتدل الوثائق التي أصدرها موظفو الجمهوريات الثلاث الذين هربوا ، على أن الفهرس قد أمد أصحاب الشأن بمعلومات كاملة تبعث على الدهشة . ومن الممكن نشر تلك الوثائق العديدة ، إلا أن قائمة واحدة من هذه القوائم تكفي لبيان كفاية نظام الفهرس .

الفصل السابع

الاختيار

في حديثنا عن اختيـــار الأشخاص وتدريبهم للعمل في الادارة السرية السوفياتية ، ينبغي أن نميز بين الطوائف المختلفة للعملاء وبين الرجال والنساء « الأبرياء » والاغرار والمبلغين على غير وعي منهم والثوريين الذين يخدمون تلك الطوائف .

فهناك أولاً نواة الادارة نفسها – وهي مؤلفـــة من مواطنين من الاتحاد السوفياتي ومن الدول الشيوعية التابعة له ، اختيروا من أوطانهم واستخدمتهم التشيكا للتجسس على مواطنيهم في ديارهم في منظمة البوليس الداخلي ، كما عهد إليهم بالحصول على المعلومات السياسية والعسكرية والاقتصادية من الخارج .

وجدير بنا أن نتذكر ان الادارة السرية السوفياتية في الخارج ما هي إلا جزء من نظام البوليس الواسع النطاق التابع لوزارة الشؤون الداخليـــة وأمن الدولة ، وكثير من العملاء الذين يرسلون في نهاية الأمر إلى الخارج يكونون قد بدأوا حياتهم كموظفين في البوليس « الداخلي » أو جـــاؤوا من ذلك الجيش العرمرم من العملاء السريين والمأمورين السياسيين والمنظمين الحزبيين وغيرهم من « الباحثين السياسيين » الذين لا يمكن أن يقوم النظام السوفياتي بغيرهم ، وهم

يزودون نظام التجسس « بالموظفين » ويتولون كافة المناصب المهمة تقريباً في مقر القيادة وفي نقط الطليعة وفي الشبكات والسفارات والقنصليات والبعثات التجارية .

وثمة طائفة أخرى تضم مواطنين من البلاد الخارجة عن نطاق الستار الحديدي ، وهم الذين يصبحون ، لأسباب عديدة منها اعتناقهم المذهب أو سعيهم للمال أو السببان معاً ، موظفين متفرغين في خدمة الادارة السرية السوفياتية ، يتولون في بعض المناسبات مراكز عالية ولكنهم يعملون على وجه عام تحت إرشاد عملاء من الطائفة الأولى . ومن الأمثلة على ذلك هاري جولد العميل الذي كان يجمع الأسرار الذرية من فوخس وغرينغلاس ، وهويتاكر شامبرز الذي عهد إليه فيما بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ بمهمة تنظيم الخلايا بين موظفي إدارة الولايات المتحدة، وجرهارد إيسلر المدير المقيم للتشيكا في نيويورك بين سنتي ١٩٣٣ و ١٩٣٨ ثم خلال الحرب وبعدها ، وفريدريك ارنست ولبر الذي كان يدير التجسس السوفياتي في أوروبا الوسطى خلال الحرب . وهؤلاء العملاء المتفرغون الذين من أصل أجنبي قد أصبحوا اليوم قلة ، وهم الآن يحتلون المراكز الوسطى من الشبكات لا المراكز العليا ، التي كانت في يوم من الأيام وقفاً عليهم قبل أن تدرب التشيكا رجالها المختارين ، وهم قلما يكونون أعضاء في الحزب الشيوعي في الدولة التي يعملون فيها ، فإذا كانوا أعضاء في هذا الحزب فانهم لا يشتركون في نشاط الحزب اشتراكاً علنياً إذا كانوا يمارسون أعمال الجاسوسية ، وكثير منهم يكونون من المهاجرين أو أولاد المهاجرين الذين غيروا جنسياتهم وأسماءهم .

ويلعب الرجال والنساء الذين من هذه الطائفة دوراً هاماً في أعمال التجسس السوفياتية ، فيقومون بالمهام والاتصالات ، وهو أمر يستحيل أن يقوم به عميل روسي « مستورد » من الطائفة الأولى دون أن يثير شبهة .

وكثير من هؤلاء العملاء، ان لم يكن غالبيتهم، قد ارتقوا من الطائفة الثالثة، وهي طائفة أكثر عدداً بكثير من الطائفتين الأوليين ، وتتألف من « الهواة »

والخونة والجواسيس شبه المحترفين والمواطنين من أهل البلاد التي يمارسون فيها نشاطهم . وهم في الظاهر يقومون بأعمالهم العادية ، ولكن الواقع أن فائدتهم للادارة السرية السوفياتية تتوقف على حياتهم وعملهم العاديين ، وهما اللذان يهيئان لهم الوصول إلى مصادر كثيرة من مصادر المعلومات .

ولا بد أن يبقى الذي اختير من « الهواة » والثوريين وأفراد الطابور الخامس الذين يمكن للادارة السرية السوفياتية أن تعتمد عليهم موضع الحدس والتخمين، إلا أن تقدير عددهم بثلاثة أرباع المليون هو دون الحقيقة على الأرجح. ويختلف العدد كثيراً من حين إلى حين ، ويتوقف ذلك على السياسة السوفياتية في بقاع العالم المختلفة ، فمثلاً قد تدعو التطورات السياسية في بعض أنحاء للعالم إلى وضع تدابير سريعة للجاسوسية ، فتصدر موسكو عندئذ التعليمات لانتخاب عدد كبير من الثوريين الذين يعطفون على الشيوعية أو الاغرار ، في حين تظل تلك الشبكات في تلك الأنحاء من العالم ساكنة في بعض الأحيان الأخرى لا يعمل بها إلا العدد القليل من العملاء .

وقد يأتي بعض عملاء الطائفة الثالثة ورجال الاتصالات – كالعلماء الذريين – بمعلومات على جانب عظيم من الأهمية ، والغالبية الساحقة منهم لا تصل إلى مصادر المعلومات ، إلا أنهم في مجموعهم يزودون مقر القيادة في موسكو بمجموعة عظيمة من المعلومات ما كانت موسكو لتستطيع الحصول عليها دون معاونتهم .

ان الادارة البارعة التي يتولاها عملاء الطائفة الأولى ، والتنظيم الدقيق الذي يتولاه عملاء الطائفة الثانية، ينتهيان بالمعاونين من الطائفة الثالثة بأن يكونوا أهم دعائم نظام الادارة السرية السوفياتية كله ، ومن ثم فان قدراً كبيراً من وقت عملاء التشيكا وجهدهم يوجّه إلى اختيار وتنظيم أفراد هذه الطائفة الثالثة . وهؤلاء العملاء شبه المحترفين وأفراد الطابور الخامس يعدون في « الشبكة » ، ولكنهم لا يشتركون في « جذب الخيوط» إلا بعد أن يرقوا إلى الطائفة الثانية. فلنبحث في أمر هذه الطوائف ، طائفة طائفة ، ونرى كيف ينتخبون .

لقد قال السير بازيل طومسون ، منشىء النظام البريطاني لمكافحة الجاسوسية في العصر الحديث ، ان العمل البارع لا يمكن صنعه وإنما هو يولد كذلك. والادارة السرية السوفياتية لا توافق طبعاً على هذا الرأي ، وهي التي تدين بنظرية المادية الجدلية الماركسية ، ومعناها أن الانسان وليد البيئة لا صفاته الموروثة ، ومن مذاهبها أن العملاء لا يمكن إعدادهم وتدريبهم في دقة وعناية فحسب ، بل انهم ليكونون بعد أن يتم لهم هذا أفضل من سواهم .

ولعل ثمة سبباً آخر يدعو إلى أن تكون طريقة اختيار العملاء في الاتحاد السوفياتي جد مختلفة عنها في الغرب، فقد كانت الادارة السرية السوفياتية تعتمد دائماً على العدد . وكان عدد العملاء السريين البريطانيين في وقت من الأوقات بين الحربين العالميتين يعدون بالعشرات لا بالمئات ، وحتى اليوم ربما كانوا يعدون بالمئات لا بالآلاف ولو كان الاعتماد المالي الذي كان يخصصه البرلمان سنوياً للادارة السرية بين الحربين العالميتين قد صرف مرتبات لما كفى لأكثر من ٢٠٠ أو ٣٠٠ رجل وامرأة ، هذا إلى ان ادارة المخابرات تحتاج ، على ما هو واضح، إلى نفقات كثيرة أخرى عدا المرتبات . وفي خـــدمة الادارة السرية السوفياتية نحو ٢٥٠،٠٠٠ عميل محترف مدرب متفرغ ، ولا شك أن طريقة اختيـــار أفراد جهاز بهذا الاتساع لا بد أن تكون مختلفة جـــداً عن الطريقة المستخدمة في اختيار قوة قوامها بضع مئات .

وما من دولة تعلن عن حاجتها إلى موظفين لادارتها السرية ، وكان أفراد الهيئة الصغيرة المهيمنة على المخابرات تختار دائماً من القوات المسلحة ، وذلــك لأنهم ممن يوثق بهم ، ولتعودهم النظام ، ولمعرفتهم الأسرار الفنية للأسلحـــة والنظام العسكري . وتتطلب المخابرات الحـديثة أن يكون بعض العملاء على الأقل مدربين تدريباً علمياً ، وهم يختارون من بين المهندسين والعلماء ، إلا أن الغرب قد اعتمد إلى حد كبير على رجال ونساء مختارين من كافة مناحي الحياة، صحفيين ، ورجال أعمال ، ومندوبين تجاريين ، وموظفي حكومة ، وضباط بوليس ، وجامعيين بارزين، يكونون قد وقفوا على بعض الأمور أثناء مزاولتهم

أعمالهم العادية واتصلوا ببعض الشخصيات ، وقد عينوا في بعض حـــالات الطوارىء عملاء متفرغين بعد تدريب قصير الأمد، ولعل اختيارهم كان في بعض الأحيان اعتباطاً ، إلا أن العمل كان في الأحيان الأخرى رائعاً بفضل ما اتسم به الأشخاص أنفسهم من شجاعة وقدرة .

وبناء على أوامر ستالين شرع ياغودا – وكان وقتئذ نائب منزينسكي – في تنظيم اختيار العملاء وتدريبهم بنفس النظام الرتيب الذي كان يجري في الفروع الأخرى التابعة للادارة المدنية ، وكان من يقع عليهم الاختيار ينتخبون من الطلبة والضباط وأعضاء اتحـاد الشباب الشيوعي (الكومسومول) وموظفي الأحزاب . وكان معظمهم أطفالاً صغاراً عندما نشبت الثـــورة ، فلم يكونوا يعرفون إخلاصاً إلا للكرملين ، ولم يجربوا في حياتهم نظاماً آخر ، وكان كثير منهم من أيتام الحرب العالمية الأولى أو الحرب الأهلية، وقد نشأوا وفي اعتقادهم ان الرأسماليين والاستعماريين هم المسؤولون عن موت والديهم وعن كل ما عانوه من ضروب العذاب . ولقد آمنوا بضرورة قتال مثيري الحروب والمستغلـين الأجانب لا بسبب تحمسهم لفلسفة مذهبية كما كان هو حال الشيوعيين القدماء ، بل لأنهم قد أعدوا لهذا الغرض إعداداً بذلت فيه كل عناية مستطاعة . لقـد كانوا نتاج النظام البيروقراطي والثقـــافي السوفياتي ، موظفين في الحكومة يؤدون واجبهم دون أن يفكروا في مساءلة رؤسائهم عن الحكمة فيما يفعلون . وما فقدته الادارة السرية السوفياتية بذلك من الدهاء والقدرة العقلية عوّضته بالطاعة والاخلاص – ولم تظهر على الادارة السرية السوفياتية منذ ذلك الحين علامات النجابة والخيال إلا نادراً . وقد تصرف عملاؤها في بعض الأحيان تصرفاً يدل على غباوة مطلقة بطرق لا يتصور العقل أن يأتيها عملاء الغرب ، وليس هذا مرده اختيار رجال لا يصلحون للغرض بل مرجعه التدريب الجامد وعدم تشجيع الابتكار والاستقلال . وكانت نتيجـــة ذلك الوثوق بالشخص والمثابرة والنظام الذي لا تلين له قناة . وكان عدد من هربوا من صفوف العملاء تافهاً إذا قيس بمجموع عددهم وبأسباب الاغراء التي لا بد أن تصادف العملاء في

الحياة خارج روسيا . وثمة آلاف من رجال التشيكا المخلصين مستمرون في عملهم مقابل أولئك الذين يهربون من الصفوف من أمثال جوزنكو وبتروف وخوخلوف.

*

وأساس الاختيـــار هو وجود قوميسيرين سياسيين من التشيكا والادارة السياسية للجنة المركزية للحزب الشيوعي الخاص بالاتحاد السوفياتي في كل منظمة سوفياتية ، فأنت تجدهم في الجـــامعة والكليات ، وفي كليات العمال (رابناك) التي تعد العمال الشبان المختارين الذين لم يتلقوا تعليماً عالياً لوظائف المديرين في الصناعة والزراعة وللمراتب الادنى في البيروقراطية السوفياتية ، ويلحق القوميسيرون السياسيون بكل وحدة من وحدات القوات المسلحـة ، ولا يقتصر عملهم على مراقبة إمكان الوثوق سياسياً بالضباط والجنود ، بل يشمل أيضاً « تهذيب » الرجال بالمعنى الشيوعي ، ثم يوجد أيضاً قوميسيرون تابعون للتشيكا في كل مصلحة حكومية أو سلطة محلية أو نقابة أو مصنع أو مزرعـة تعاونية أو جماعية ، سواء أسميتهم ضباط الرعاية أو «السكرتيرين الاجتماعيين». والمفروض أن يؤدي هؤلاء القوميسيرون مهمة الباحثين عن المواهب فيكتشفون الرجال والنساء الذين يليق اختيارهم للتشيكا لتستخدمهم كرجال بوليس ، أو عملاء يلبسون الملابس العادية ، أو حراس في معسكرات السخرة ، أو مراقبين لفتح الرسائل الخاصة ، وذلك داخل حدود الاتحاد السوفياتي ، وكذلك تدريبهم ليكونوا عملاء سريين لمصالح التجسس التابعة للتشيكا .

وتشرف لجنة الحزب المركزية وسكرتيرها العام نيكيتا خروتشوف على جيش من العمال السياسيين. وتمارس اللجنة المركزية على مواطني الاتحاد السوفياتي سلطة أكبر بكثير من سلطة مجلس الوزراء ، وذلك بواسطة أقسامها المختلفـة كقسم الأحزاب وقسم الحملات الجماعية وقسم الدعـاية وإثارة الخواطر وقسم التعليم . ولكي يدرك القارىء مدى السلطة المخولة لقوميسيري الإدارة السياسية التابعة للحزب المركزي أجد لزاماً على أن أدلي ببعض الأرقام . فمع ان عدد

المقيدين في الحزب الشيوعي من مجموع البالغين من السكان لا يجاوز ٦ بالمئة تقريباً ، فان نحو ٨٠ بالمئة من الأربعين مليوناً من الشبان والشابات الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ و ٢٣ سنة ينتظمهم الكومسومول أي اتحاد الشبان الشيوعي . وللكومسومول في المدن والبلاد نحو ١٥ مليوناً من الأعضاء ، وهو مجموع الشبان على وجه التقريب الذين يعيشون في الحضر .

أما عدد القوميسيرين السياسيين الملحقين بكل وحدة من وحدات الحياة الشيوعية فيمكن قياسه بعدد « الموظفين السياسيين » الذين في الجيش الأحمر ، فقد ازداد عددهم من ١٤٫٠٠٠ سنة ١٩٢٥ إلى ٣٤٫٠٠٠ سنة ١٩٣٩ . ويقدر عددهم اليوم بنحو ٦٥٫٠٠٠ قوميسير ،وهذا بالرغم من معارضة القواد السوفيات الشديدة في قبول هؤلاء المراقبين السياسيين في كل وحدة عسكرية .

ومن ثم فليس من المستغرب أن يكون اختيار رجال التشيكا من الشبان في الاتحاد السوفياتي أمراً غير محفوف بالمصاعب . واسم الرجل الذي يوصي به القوميسير السياسي للعمل في التشيكا يخطر به قسم الملاحظة والتوزيع، ويحتمل أن يكون اسمه وارداً في الفهرس المركزي لهيئة التشيكا ويكون ملفه على الأرجح في يد بوليس موطنه ، ويدرس سجله ويبحث تاريخه ، ومهما كان من حماسته هو شخصياً بوصفه عضواً في الكومسومول أو عضواً في أية منظمة شيوعية أخرى فانه قد يرفض إذا كان أحد أقاربه قد تورط في أي وقت من الأوقات في حركة من حركات الانشقاق ، فابن المشايع لتروتسكي لا يمكن أن يلتحق بالتشيكا مهما كانت مؤهلاته . ويبدو من الناحية الأخرى أن خدمة فرد من أفراد الأسرة للتشيكا تعد ميزة من أكبر الميزات ، فمثلاً ابن أو ابنة رجل من رجال التشيكا يقبل في خدمتها دون حاجة إلى النجاح في الامتحان الذي يعقد للاطمئنان على أن الشخص حاصل على المستوى التعليمي الأدنى .

والمرشح الذي يكون تاريخه ومقدرته وإمكان التعويل عليه على ما يرام يوضع تحت مراقبة خاصة تدوم شهراً ، ويتولاها عميل التشيكا الملحق بجامعته أو كليته أو وحدته العسكرية أو مصلحته الحكومية أو الهيئة التي هو تابع

لها ، ثم يبحث قسم المراقبة والتوزيع في تقرير هـذا العميل وتقارير البوليس وموظفي الحزب الذين في موطن المرشح ، فإذا صادق القسم عليها من جهـة المبدأ استدعي المرشح أمام لجنة الاختيار .

وقد أطلقت لفظ المرشح على الشخص الذي يقع عليه الاختيـار ، لأن من الممكن ألا يكون الشخص قد علم بعد ، حتى هـذه المرحلة ، أنه قد رشح للوظيفة ، أو أنه حتى موضوع تحت المراقبة . وهو في معظم الحالات لا يتقدم من تلقاء نفسه ، والملاحظة الوحيدة التي قد يستشف منها أنه مرشح لوظيفة خاصة هي التي تأتي على لسان عميل التشيكا المحلي في حديث ودي معه ، الذي قد يقول له شيئاً غامضاً عن الشبان اللامعين الذين يدعون أحياناً لخدمة الوطن السوفياتي بطريقة ما .

وتخطره لجنة الاختيار رسميـاً بأنه مرشح لوظيفة في قسم من أقسام التشيكا ، والمفروض أنه يجيب على هذا الخبر بحماسة وغيرة ، وربمـا كانت الحماسة صادقة في معظم الحالات بالنسبة لتاريخ الشخص والتربية التي تلقاهـا منذ كان طفلاً . وعلى أي حال فهو يعلم ان أي تردد أو إشارة إلى أنه لا يرغب في الوظيفة سيترتب عليه فصله فصلاً مفاجئاً وانتهاء حياته . وله أن يتم دراسته الجامعية أو يستمر في الجيش أو الوظيفة الحكومية ، ولكن إذا أعوزته الحماسة للشرف الذي عرض عليه ، فقد يعتبر ممن لا يمكن التعويل عليهم سياسياً ، ومن ثم لا يمكن أن يرقى ويظل حبيس الوظائف الصغيرة ، بل ربمـا عين في ناحية نائية من البلاد . وأخطر من هذا كله أنه لو حدث شغب في مكتبه أو مصنعه أو وحدته العسكرية ، أو إذا دعت الحال لسبب من الأسباب إلى كبش فداء فقد تتجه اليه الأنظار ، وإذا كان الشغب خطيراً فقد يتهم بالتخريب والخيانة. ومجمل القول ان حياة شاب يتردد في قبول وظيفة التشيكا تكون مظلمة إلى حد أن معظم المرشحين يجيبون على البشرى التي تزف اليهم باختيارهم بالحمـاسة والغيرة المرجوين منهم .

ويعلم المرشح عندئذ انه سيقضي مدة الاختبار بوصفه « طالباً » ، ويدرب

تدريباً قد يستغرق مدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات ، ولا تدعو الحال في هذه المرحلة إلى أن يقال له انه يدرب ليكون عميلاً من عملاء الادارة السرية . والواقع ان نسبة صغيرة ممن يقع عليهم الاختيار هم الذين يصبحون عملاء في الخارج، وهم في أول الأمر يخدمون في وظائف صغيرة في السفارات والقنصليات والبعثات التجارية السوفياتية ، كعمال تليفون أو كتبة أو ما إلى ذلك . ولم يكن جوزنكو ، الذي هرب من صفوف التشيكا في كندا وأماط اللثام عن شبكة أوتاوا ، إلا كاتب شفرة ، مع أنه كان فيما يلوح رجلاً غاية في الذكاء .

ولا وجود طبعاً لترقية مفتوحة في صفوف العملاء السريين ، فرتبة العميل أو منصبه العلني ليست دليلاً على مركزه في الادارة السرية ، فقد يكون الرجل سكرتيراً ثانياً أو ثالثاً في سفارة وهو يخضع لأوامر البواب الذي يكون أعلى منه رتبة في صفوف التشيكا . وكان الكابتن جورشكوف سائق سيارة في سفارة أوتاوا واسمه الرمزي « شستر » . وكان الكابتن جالكين بواباً آخر ، وكان كلاهما من ذوي الرتب الرفيعة والشأن العظيم في الادارة السرية إذا قورنا مثلاً بالليفتنانت أنجيلوف أحد أعضاء هيئة الملحق العسكري الذي كان جورشكوف يسوق سيارته ويحييه علناً . وقام الليفتنانت جوسييف ، وهو بواب في دار السفارة برحلة إلى فانكوفر ليقدم تقريراً عن نشاط العميل السوفياتي الذي يقوم هناك بأعمال المخابرات البحرية ، وقد انتقد كفايته انتقاداً مراً . وكان جوساروف سكرتيراً ثانياً في الظاهر ، إلا أنه كان في الواقع رئيس القسم السياسي في السفارة ، ويمكن الحكم على أهميته من أنه كان حتى سنة ١٩٤١ مساعداً لمالنكوف الذي كان وقتئذ رئيس القسم الخارجي للجنة المركزية للحزب. وكان المدير المقيم ورئيس مراكز الطليعة السوفياتية في السويد فراشاً في السفارة ، ينحني علناً للعملاء الذين كان يصدر اليهم الأوامر سراً .

وليس من العملاء المتفرغين الذين يقدر عددهم بنحو ٢٤٠٫٠٠٠ أو ٢٥٠٫٠٠٠ إلا ١٢٫٠٠٠ يحتلون مراكز رفيعة ، وهم في كل الأحوال تقريباً رجال ونساء حصلوا على درجات علمية إلى جانب التدريب على أعمال المخابرات،

ومطلوب منهم أن يتقنوا لغتين أجنبيتين على الأقل إجادة تامـــة . ويتضح من وسائل اختيــــار العملاء أنه تغلب عليهم صفة « موظفي الحكومة » أكثر من صفة « العملاء السريين » . وقد علق مراسل صحيفة على مظهر بتروف عندما كان يدلي بشهادته أمام اللجنة الملكية في استراليا بقوله :

« كان في قصره وبدانته وشحوب وجهه الذي يحاكي شحوب القمر وقد أبرزته نظارة من عظم القرن ، أشبه برجل من رجال الأعمــــال يبرىء نفسه والبشر يعلو محياه في محكمة للتفاليس » .

ثم نأتي إلى الطائفة الثانية ، طائفة العملاء المتفرغين الذين من أصل أجنبي ، ويعملون اما في بلادهم الأصلية أو في سواها ، ولقد كانوا وما زالوا يختارون ، أو يختار معظمهم على الأقل ، بواسطة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في البلد الذي يطلب منهم العمل فيه . فمثلاً حدث في سنة ١٩٣٢ أن أمر مــــاركس بيداخت ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأميركي، هويتاكر شامبرز، وكان قد التحق بالحزب سنة ١٩٢٥ وأصبح رئيس تحرير « الجماهير الجديدة » ، أن يتولى بعض الاعمال السرية . وقيل له أنه سيعمل « في مؤسسة خاصة » . ولم يكن ثمة مناقشة في تطوعه ، وكان إذا بدا عليه شيء من التردد قيل له : « لا حيلة لك في الأمر ، والواقع أنني سأصحبك الآن إلى شخص من المؤسسة الخاصة » . وكان يؤمر بالاستمرار في صلاته الشيوعية العادية ويعطى ٥٠ جنيهاً ليشتري ملابس « بورجوازية » ويعيش عيشة محترمة » .

وبعض العملاء من هذه الفئة « يستوردون » ولكن كثيراً ما يأتون كلاجئين ويتجنسون بجنسية البلد الذي تبناهم ، وهو الذي يخونونه فيما بعد . وكان المدير المقيم لموسكو في الولايات المتحدة في تاريخ يرجع إلى سنة ١٩٢٣ « جون بيتر » الذي كان موظفاً بالحكومة المجرية الشيوعية السوفياتية القصيرة الأمد في عام ١٩١٨ وكان اسمه عندئذ جوزيف بوجاني . ومن خلفائه في نيويورك الالماني أرثر ابوارت ، كبير عمــــلاء التشيكا الذي كان يعمل باسم براون وبرجر في نصف الكرة الغربي حتى قبض عليه في البرازيل . وكان ثمة لاجىء المــــاني آخر هو

الفريد كانتور ويكس ، الذي كان من قبل عميلاً للسوفيات في باريس ، وقد احتل خلال الحرب وحتى نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٥ مركزاً رفيعاً في شبكة الجاسوسية السوفياتية التي أنشئت في الولايات المتحدة .

وكان إسم هاري غولد الأصلي ، وهو الرسول الذي كان في شبكة التجسس الذرية التي كان يرأسها ياكوفليف في الولايات المتحدة ، هنريك غولود نوتزكي ، وقد ولد من أبوين روسيين في برن قبل أن يهاجر إلى أميركا ، وقد نال قسطاً عظيماً من التعليم الجامعي والتدريب الفني في الولايات المتحدة ، ولم يكن قط عضواً في الحزب الشيوعي بمعنى الكلمة ، إلا انه وقع خلال سنوات الكساد تحت نفوذ رجل يدعى تروي نايلز وهو الذي « اختاره » . ويلوح ان حقيقة ما حدث هو أن نايلز ، وكان عميلاً تحت رقابة الشبكة السوفياتية التي قامت على أساس شركة أمتورج التجارية ، صدر اليه الأمر بالحصول على معلومات عن عمليات صناعية فنية بمصادقة بعض الفنيين اللائقين وإثارة اهتمامهم بروسيا . وعمد نايلز إلى إثارة عواطف غولد ، وقال له ان روسيا ، الدولة التي تضم رجالاً ونساء لهم حق الحياة ، هي اليوم في حالة من الفقر والعوز لأن الغرب لا يريد أن يقاسمها أسراره الفنية ، فأي ضرر من الحصول على المعلومات الكيماوية السرية من المصنع الذي يشتغل فيه — وكان بالصدفة مصنعاً لقصب السكر — ليساعد الروس الجائعين ؟ ولقد قال غولد انه عندما بدأ التجسس للاتحاد السوفياتي في سنة ١٩٣٥ كان يدرك تمام الادراك ما يفعل . « لقد كنت أشعر أنني أساعد الاتحاد السوفياتي في الحصول على معلومات من حقه الحصول عليها » .

وكانت الخطوة التالية لنايلز هي أن يقدمه خارج محطة بانسلفانيا بمدينة نيويورك إلى « بول سميث » . واختفى نايلز ، ودخل بول سميث ، العميل السوفياتي من الطبقة العليا ، في الموضوع مباشرة ، فقال لغولد أنه لن يرى نايلز مرة أخرى ، وان عليه في الاجتماع التالي أن يأتي معه ببيان مفصل عن تاريخ حياته . وأصبح غولد في « الشبكة » ، وظل ١٤ عاماً يعمل تحت امرة سلسلة من الرؤساء السوفيات حتى استطاع رجال المباحث ، وكانوا يشتبهون في أمره

منذ أمد بعيد دون أن تتوفر لهم الأدلة ، أن يثبتوا أنه كان رسول فوخس ، وحكم عليه بالسجن ثلاثين سنة بتهمة التجسس .

وكان غولد اختصاصياً في سرقة الأسرار الكيماوية والصناعية ، وكان من الضروري لهذا الغرض أن يستمر في عمله،والواقع أنه كان يؤدي عمل وظيفتين، وظل سنوات طويلة يقضي ساعات العمل العادية في مكتبه ، ثم يشتغل ثماني ساعات أخرى في رحلة من فيلادلفيا إلى نيويورك والعودة لمقابلة أولئك الذين كان يتصل بهم ، أما في المهام الخاصة التي كانت تقتضيه السفر إلى بلاد أخرى فقد كان ينقطع عن عمله في إجازة قصيرة حتى قيل له في سنة ١٩٤٤ ان عليه أن يكرس وقته كله لأعمال التجسس ، فقد كانت شبكة التجسس السوفياتية في حاجة إلى رسول يمكن الاعتماد عليه تماماً ويكون من المزودين بالمعلومات الفنية ليتصل بفوخس .

وتناول السوفيات غولد بالتهذيب في خلال بضع السنوات التالية لاختياره، فانقلب من مثالي عاطفي إلى عميل سري متفرغ يتصف بالصلابة والمهارة ، مستعد أن يخاطر وأن يطيع دون مناقشة الأوامر الصادرة اليه من رؤسائه السوفيات. لقد اختير هاوياً فأصبح محترفاً. ومن الأمثلة الناطقة مثال سام كار، الذي كان معروفاً باسم « فرانك » في حلقة التجسس الكندية التي كان يشرف عليها زابوتين . ولد سام في توماشبول من أعمال أوكرانيا ، وهاجر في سنة ١٩٢٤ وهو في التاسعة عشرة من العمر إلى كندا بوصفه عاملاً زراعياً . وقد استخلصت اللجنة الملكية أنه قد أوفد أولاً ليهذّب ويصبح عميلاً، إلا أن كار أنكر هذا ، وقد دخل كندا باسمه الحقيقي شمول كوجان ، وقد غيره فيما بعد إلى سام كوهين ، وسام كار ، وأصبح عضواً في اتحاد الشبان الشيوعي ، وقصد في سنة ١٩٢٩ أو استدعي إلى موسكو ليتلقى برنامجاً في معهد لينين ، وكان نشاطه حتى سنة ١٩٤٢ قاصراً فيما يلوح على الاثارة السياسية دون التجسس بمعناه ، إلا أنه عندما دخل الاتحاد السوفياتي الحرب تغيرت سياسة الحزب وأصبحت الاثارة أقل شأناً من التجسس ، فصدر اليه الأمر بأن يكرس جهده

لتنظيم طائفة ، هي طائفة أوتاوا ــ تورنتو ، تتلقى التعليمات من عميل للتشيكا في سفارة أوتاوا ، ويؤخذ من الوثائق الخاصة به التي جاء بها جوزنكو انه تخصص في التجسس في الشؤون السياسية والاقتصادية ، وكان يستنبط الوسائل لدخول البلاد دخولاً غير شرعي ويزور جوازات السفر وما إلى ذلك .

وقد يتولى العملاء الذين من أصل أجنبي، والمهاجرون ، والهواة الذين يرتقون إلى الطائفة الثانية مناصب رفيعة لها شأنها في نظام التشيكا في بعض الأحيان ، ولكن منذ ان اصطبغت شبكة الجاسوسية في العقد الرابع بالصبغة الروسية ، لم يعد يتولى طوائف وشبكات الطليعة إلا كبار العملاء السوفيات الذين تلقوا برنامجاً كاملاً في التجسس في إحدى مدارس الجواسيس وخدموا التشيكا بضع سنوات ، اما داخل الاتحاد السوفياتي أو بوصفهم عملاء في الخارج . ويبدو أن زعماء التشيكا لا يثقون في الأجانب ، وان كانوا قد أثبتوا في كثير من الأحيان أن من الممكن الاعتماد عليهم أكثر من كبار العملاء الروس . وكان كل الموظفين والديبلوماسيين التابعين للتشيكا الذين هربوا من صفوفها خلال العشرين سنة الأخيرة قد ولدوا ونشأوا مواطنين تابعين للسوفيات، وكانوا جميعاً من المتخرجين من كليات التجسس السوفياتية ، نذكر منهم أجابيكوف وبيسيدوفسكي وكريفيتسكي وريس وأورولوف وجوزنكو وبتروف وخوخلوف ، وليس هؤلاء إلا قلة ممن هجروا التشيكا .

أما الطائفة الثالثة ، طائفة الهواة ، فقد لفتت إليها النظر بشدة ، إذ أن أفرادها خونة أيضاً لبلادهم ، ووسيلة اختيارهم تختلف اختلافاً بيّناً عن الوسيلة التي أتينا على ذكرها وقد هيئت في براعة لتناسب كل حالة على حدة، ولا تسعى الادارة السرية السوفياتية في هذه الحالات إلى عملاء بارعين بقدر سعيها إلى رجال ونساء يكون في استطاعتهم بفضل مراكزهم أو أعمالهم أن يزودوا تلك الادارة بالمعلومات السرية مما شاهدوه ووعوه ، أو يكون في استطاعتهم سرقة هذه المعلومات . فالادارة لا تبحث عن جواسيس مهرة بل ولا تسعى إلى رجال ونساء يستطيعون تقدير قيمة المعلومات التي يحصلون عليها ، إنما هي تريد رجالاً

ونساء يمكن تهذيبهم بحيث يمكن بذل أقصى الجهود الممكنة والمخاطرة بأرواحهم في سبيل الحصول على المعلومات التي تصدر اليهم الأوامر بجمعها . ولم يكن هؤلاء الرجال والنساء يختارون دائماً ، وعلى الأخص في السنوات الحديثة ، من الأحزاب الشيوعية ، إلا أن اختيارهم كان يتم في كل الأحوال تقريباً بوساطة أعضاء الحزب الشيوعي في البلد المختص .

وأهم ما يشترط في المرشح أن يكون ممن يعطفون على الآراء الشيوعية أو قابلاً لأن يتأثر بها ، ولكن وسائل معاملة الشخص تختلف باختلاف الشخص نفسه وبمركزه . ولم يحدث قط ان اختير شيوعي نشيط معروف ليقوم بأعمال التجسس ، وان كان يختار لينظم تجسساً يقوم به غيره ، كما حدث في حالة هويتاكر تشامبرز .

ووسائل الاختيار متفاوتة أشد التفاوت ، وتتم الاتصالات على وجه خاص بواسطة جبهات متنوعة الاشكال .

أما الخطوة التالية بعد الاتصال فهي أن يستدرج المرشح إلى خلية — وهي بالنسبة اليه « حلقة دراسية » . وهو في الخلية يراقب ويختبر ويهذب دون أن يعي شيئاً من هذا كله . ولهذه الفترة التمهيدية في الخلية أهمية عظمى من وجهة النظر السوفياتية لأنها تتضمن تعليم المرشح وتدريبه على ضروب جديدة من الاخلاص على غير وعي منه . « والمعلمون » هم من علماء النفس المتمكنين من مادتهم ، ووضع التقارير السيكولوجية عن المرشحين جزء من الواجب العادي الملقى على عاتق الشيوعي المحنك الموكول اليه أمر الخلية . ويشدد منذ البداية في أهمية السرية وان كان النشاط في الخلايا يكون في الواقع مشروعاً تماماً على وجه عام ، اللهم إلا في الدول التي تفرض بعض القيود على حرية الاجتماع والنشر ، ومن ثم فان النشرات التي توزع على المجتمعين قد لا تكون مثيرة للفتنة من الوجهة القانونية ، ولكن تبذل النصيحة لأعضاء الخلايا بأن يخفوها ، في حين أنهم لو سلموها إلى رجل من رجال الشرطة لما أثارت شيئاً من اهتمامه ، بيد أن الأعضاء يستحثون على الاحتفاظ بما احتوته في طي الكتمان ، ويؤمرون بألا يذكروا

شيئاً عن المواضيع التي تناولتها المناقشة في حلقة الدراسة أو عضويتهم فيها في مجال أعمالهم أو حتى يبوحوا بها لأصدقائهم . ولو أنهم فعلوا هذا ، على الأقل في بريطانيا ، لكانت نتيجة ذلك على الأرجح السخرية لا الاشتباه . وهكذا يبنى جو من التآمر ، حتى قبل أن يشترك القادم الحديث في أية مؤامرة . أما البراعة التي يتم بها هذا فدليلها وثيقة تتعلق بطائفة الأبحاث في أوتاوا المؤلفة من علماء نابهين ، فانهم قبل أن يشتركوا في أي عمل من أعمال الجاسوسية أو عمل من الأعمال المحرمة شرعاً كتب زعيمهم ومنظمهم إلى مدير التشيكا يقول :

« انهم يشعرون فعلاً بالحاجة إلى الاحتفاظ بدرجة عظيمة جداً من الطمأنينة ، ويتخذون إجراءات غير عادية في اجتماعاتهم العادية (نحو اجتماع واحد كل أسبوعين) ، وذلك بالرغم من أنهم لا ينتمون إلى أي حزب سياسي ، بل ان واحداً أو اثنين منهم قد اعترض على قبول عضو جديد في جماعتنا على اعتبار أن ذلك سيهدد سلامتهم » .

وقبل انقضاء بضعة أسابيع أخرى كان العملاء قد اختيروا وهذبوا ونشطوا فعلاً في أعمال الجاسوسية ، وأصبحت حلقة الدراسة خلية من خلايا التجسس ، ومن المزايا العظيمة لنظام الاختيار عن طريق الخلايا خلق شعور بالاتحاد والتضامن حتى انه لو عرض على أحد الأعضاء القيام بأعمال التجسس ، واستخدم في ذلك الضغط عليه ثم رفض العضو هذا العرض فانه لن يشي بزملائه الذين أجابوا الطلب . ومن السهل علينا أن ندلل على كفاية هذا الاخلاص المزيف ، فمئات بل آلاف من الرجال والنساء يلتحقون بحلقات الدراسة في كل عام ، ومنهم طبعاً من يرفض القيام بالتجسس ، ولكن كم منهم لجأ إلى البوليس عندما عرض عليه أن يكون عميلاً أو مبلغاً سرياً ؟ لم يلجأ منهم إلى البوليس إلا القليل فيما أعلم ، ولم يكن منهم أحد في كندا ، وهذا أمر أذهل اللجنة الملكية .

أما الطريقة العادية في اختيار عميل جديد من الهواة فهي أن ترسل عنه أو عنها توصية إلى موسكو بأن الشخص وجد لائقاً ، وهذا يتفق واختيار الجواسيس

المحترفين داخل الاتحاد السوفياتي ، وان كانت دقة اختيار الأول لا تقاس بدقة اختيار الثاني ، وتجمع الشبكة المحلية التفصيلات عن المرشح – وهو لا يعلم بعد أن اختياره قد تم – وترسلها إلى موسكو . ولا يمكن دون موافقة موسكو أن يعهد بعمل من أعمال التجسس إلى أحد هؤلاء المنضمين حديثاً ، أما أن هذه الموافقة ليست إجراء شكلياً فقد دللنا عليه بحـــالة نورمان فبال التي سبق لنا ذكرها ، وتتضمن بطاقة التسجيل التفصيلات العادية الخاصة بعنوان السكن ومحل العمل ومركزه في العمل ، وتاريخ حياته ، وكذلك تفصيلات عن حالته المالية هل سيحتاج لراتب أم أنه يقبـــل الرشوة والتاريخ الذي ضم فيه إلى « الشبكة » .

أما حالتا نون ماي وفوخس ، ويبدو أن كليهما قد تطوع بإعطاء المعلومات ولم يجر اختياره على هذا الأساس ، فحالتان استثنائيتان ، ولكن لولا نشاط الادارة السرية السوفياتية ووسائلها الموضوعة بعناية لما أقدم على الخيانة عدد كبير من الجواسيس الخونة . وافساد المبتدىء جزء مهم من النظام ، فالمعلومات التي يطلب منه نقلها تبدو لأول وهلة لا ضرر منها البتة ، وتتوقف السرعة التي يهذب بها على أخلاقه وظروفه ، إلا أنه يكون قد أفرط فيما قال أو فعل ان عاجلاً أو آجلاً – فهو يقع في الشبكة بالمعنى المزدوج ، ويوضع اللفظ « ناش » (انه ملكنا) أمام اسمه في الملف . وهو إذا كان موظفاً في الحكومة أو عالماً أو جندياً أو له مركز من أي نوع كان – وإذا لم يكن له هذا المركز فلا يستحق الاختيار – يعلم حق العلم أنه لو انفضح أمره لقضي عليـــه . على أن التهديد بفضح أمره قلما يكون ضرورياً . أما والطبيعة البشرية على ما هي عليه فان المبتدىء ، بعد أن يكون قد تم تهذيبه ، يسعى إلى إراحة ضميره فيتورط إلى أعمق مما تورط فيه ويصبح أداة طيعة ، وان كان في غالب الأحيان ينتابه التردد فيما هو مقدم عليه . ولقد قال مازيرال ، وهو أحد من كانوا يزودون لونان بالمعلومات في كندا : « لم يعرض علي أمر تزويد الحكومة السوفياتية بالمعلومات ، ولكن بدا لي أننا كعلماء كنا نجمع المعلومات ، وقد رجوته أن يكون ذلك على

اساس التبادل » . وقال الكابتن لونان : « احب ان اقول انه لم تكن لدي فكرة عن مدى هـــذا العمل واتساعه ، وقد أصابني الذهول عندما أدركت الحقيقة أثناء استجوابي ، وما فكرت في نفسي إلا كشخص واحد في طائفـة صغيرة تتكوّن من خمسة أشخاص ، وأنا لا أقول هذا لأعتذر عن العمل الذي قمت به ، ولكنني أحاول أن أكون منصفاً نحو مثلي دون علم لي بالموقف الذي وجدتني فيه » .

ان الاختيار المنظم وتهذيب هؤلاء الجواسيس الخونة لهو من دعائم نجــاح الادارة السرية السوفياتية . وتدل الدلائل المتوفرة لدينا على أن اعتِاد الروس كله تقريباً كان على عملاء يختارون من عملاء الدول المختصة نفسها ، عملاء ارتقوا من طبقة الهواة بعد تهذيبهم ، ويتسم مسلك رجال الادارة السرية السوفياتية عادة بالفجاجة حتى انها تثير الاشمئزاز في صدور الغربيين المثقفين من أصحاب المثل العليا . ومن قبيل ذلك ما ذكره تشامبرز من أن بوريس بايكوف أمره بأن يعرض مالاً على الهواة الذين يشغلون مراكز مهمة لقــاء الحصول على المعلومات ، ولو أنه فعل هذا لفقدتهم الشبكة حتماً بهذا العرض الفج في تلك المرحلة المبكرة . وكان الليفتنانت كولونيل روجوف يتعجل في كندا اختيار العملاء من بين العلماء والحصول على بعض النتائج منهم ، وقد كتب العميل الذي كان موكولاً إليه أمر هذه الطائفة—وهو كندي على علم أوسع بنفسياتهم— يقول :

« انه لمن الخطل أن يعهد إليهم علانية بكل المهام المطلوبة ، اللهم فيما عدا باكون (الأستاذ هالبيرين) ، وهو شديد الحماسة والغيرة وله خــبرة سياسية ، ولذلك فاني أعتقـــد أنه من الحكمة أن يكون عرض الأمر عليهم في حرص وحذر ، وألا يعهد إليهم بمهمة خطيرة دفعة واحدة . وكذلك أنصح بأن لا يوصف لهم العمل المطلوب منهم القيام به في صورته الحقيقية بل يكفي ان يعلموا أنه عمل له صفة تآمرية خاصة دون حاجة لذكر علاقتي بكم .. » .

وعبارة « له خبرة سياسية » معناها طبعاً أن الشخص قد اكتسب الأخلاق

الماركسية وتعود التفكير المزدوج ، ولا يمكن أن يعتبر الهاوي قد تم اختياره أو أصبح في « الشبكة » قبل أن يبلغ هذه المرحلة .

والطلب على المجندين المستجدين مستمر ولا ينقطع أبداً ، وهم لا يختارون اختياراً يترك للصدفة وحدها ، فان موسكو تصدر الأوامر إلى رؤساء فرق الطليعة المختلفة تشير عليهم بالأماكن التي يختار منها المجندون .

وقد ورد في تقرير اللجنة الملكية الكندية ما يلي :

« توجد إشارات كثيرة في الوثائق الروسية المختلفة تشير إلى الأهميــة التي يعلقها الروس على اختيار العملاء الجدد ... »

وإذا أريد الوصول إلى أهـداف معينة قام الفهرس المركزي في موسكو ببيان أسماء الرجال والنساء الذين في حوزتهم المعلومات المطلوبة أو أسماء من يحسن الاتصال بهم في هذا الشأن ، الذين تم تجنيدهم لهذا الغرض .

فإذا فشلت كل هذه الوسائل في العثور على من يكون حلقـــة الاتصال في المكان المطلوب،بذلت الجهود لاختيار مبلـّغ لائق بواسطة الاتصالات الاجتماعية. وللروس في الخارج سمعة بأنهم منطوون على أنفسهم، إلا أن الواقع أنهم يقومون بحفلات كثيرة . وكان البحث عن حلقات الانصار في المناسبات الاجتماعية جزءاً من مهمة مسز بتروف في استراليا ، وقد يؤدي حديث اجتماعي إلى اعتبار بعض الزائرين الأبرياء تماماً من الأشخاص الممكن تجنيدهم ، وعملاء الادارة السريـة السوفياتية غاية في التفاؤل في محاولتهم التقرب من الناس،ولا شك أنهم يعودون بخفي حنين في كثير من الحالات ، ولكن المجهود له ما يبرره لو أنهم فازوا بحلقة اتصال واحدة من بين مئات الأشخاص الذين يقابلونهم .

وقد استشاط ضابط كندي غضباً عندما علم أن ما أظهره من الأدب نحو ضابطين من ضباط الجيش الأحمر وشربه كأسين معهما قد جعل موسكو تنظر إليه على اعتبار أنه يحتمل تجنيده ، وقال الضابط الكندي : « لقد أساءوا كل الاساءة فهم الجهد الذي كنا نبذله أنا وزوجتي في الترحيب بهما في كندا ، وفي اطلاعهما على شيء من الحياة الكندية . أما الآن فقد شفيت » .

ومثل هذه الحالات لا تفت في عضد السوفيات الذين يبحثون عن المبتدئين أو الأغرار ، وهم يعلمون ان ثمة ملايين لا يدركون أن الصداقة والضيافة المخلصة ينظر إليها في كثير من الأحيان على أنها من نقط الضعف، وان وراء رفع الكأس وشرب النخب سؤالاً يتردد في أذهان العمـــلاء عما إذا كان الصاحب الجديد يمكن رشوته بالمال أو خداعه أو تهديده تهديداً صريحاً مباشراً .

والتهديد هو إحدى الوسائل التي كثيراً ما يلجأون إليهـا لتجنيد المبلغين وخاصة فيما يتصل بالمهاجرين من روسيا والدول التي تسيطر عليها روسيا ، وهي وسيلة يتسع نطاقها ويشتد خطرها حتى لتستحق منا أن نفرد لها فصلاً قائماً بذاته فيما بعد .

وأخيراً فان الادارة السرية السوفياتية تجند بين الحين والحين جواسيس من المرتزقة ، رجالاً ونساء يعتبرون التجسس حرفة لا أكثر ولا أقل، وهم مستعدون أن يبيعوا أسرار الدولة إلى من يدفع فيها أعلى ثمن من أي دولة كان ، وهؤلاء المرتزقة لا يدينون بالولاء إلى أي دولة أو إلى أي مذهب، وإنما يعقدون الصفقات على أساس تجاري بحت ، إلا أن هؤلاء المرتزقة ينقرضون ، وأنت لا تجدهم إلا على صفحات الروايات البوليسية لا في ملفات الادارة السرية . ومع أن الادارة السرية السوفياتية لم تصدر تعليمات خاصة تحرم استخدام المرتزقة إلا أنه قـد لوحظ عزوف في السنوات الأخيرة عن استخدامهم ، ولعل ذلك أساسه تجربة التشيكا التي تدعو للأسى في ذلك الحـــادث الذي عرف فيما بعد باسم حادث « عصبة سويتز »، وهي عصابة من أعجب عصابات التجسس المرتزقة التي عرفت في العالم ، وكانت « نقابة » تبيع الأسرار في الوقت نفسه إلى إدارتي المخابرات السوفياتية والنازية .

وقد كشف الستار عن هـــذه العصابة — لحسن حظ زبائنها وحسن حظ الجمهورية الفرنسية — أثناء محاكمة أعضائها الذين بلغ عددهم ١٢ ، وقد شاهدتها في باريس قبل الحرب ، وكانت قصة تثير المشاعر كأحسن القصص البوليسية ، فقد وقع في يد « المكتب الثاني » بضع شعرات شقراء لاصقـــة بفيلم كاميرا ،

فكانت هي الدليل الذي قاد عملاء ادارة مكافحة الجـاسوسية ، بمعاونة سكوتلانديارد ، إلى مسز مارغوري سويتز ، ومنها توصل البحث إلى العصابة التي ظلت تعمل سنوات في أنحاء أوروبا جميعاً ، وتبين أثناء المحـاكمة أنه بينما كانت النقابة تبيع المعلومات إلى عملاء السوفيات ، كان أعضاؤها يستولون على أجور الالمان، ثم يعملون أيضاً في خدمة المخابرات البولندية واليوغوسلافية. وكان عقل عصابة سويتز المدبر الجبار هو راشفسكي ، وهو من كبار عمـلاء الادارة السرية السوفياتية . إلا ان ذلك لم يمنع من بيع المعلومات إلى من يدفع فيها أغلى ثمن ، وقد هرب راشفسكي عندما ألقي القبض على شركائه فحكم عليه غيابياً . وكان أهم الأعضاء الذين تناولتهم المحاكمة غوردون سويتز ، ضـابط سابق من ضباط الطيران الأميركي ، وزوجته الشابة الجميلة ، وإبنة سائق تاكسي من ستبني ، والبارونة ليديا ستاهل ، وهي أفـاقة دولية كانت تعمل لحساب الادارة السرية السوفياتية في فرنسا والولايات المتحدة ، وكندي ولد في روسيا ولم تعرف شخصيته الحقيقية قط ، ولكنه كان معروفاً باسم بنجامين بروكفتز ، والسيدة دافيدوفتشي ، وطبيب أسنان رومـاني كان يزود رسل العصابة بالاسنان الذهبية المجوفة التي يمكن أن تخفي فيها صور الوثائق السرية المكتوبة على ورق الأرز .

وقد ألف أعضاء العصـابة أوركسترا صغيرة تطوف بعواصم العـالم وتحمل الأسرار المهربة في آلاتها الموسيقية ، وقد أقام آل سويتز في وقت من الأوقات في شيلزيا ، وقد قيل ان المعلومات هربت من بريطانيا في جيب سري كان في مجلد من « مذكرات جورج » ، وكانت العصابة في مجموعها جماعة من الافـاقين الأوغاد كان نشاطهم وخيانتهم مما يبعث على المجون أو يكاد في بعض الأحيان، ولكن لا شك في أنهم قاموا بأضرار كثيرة وباعوا معلومات على جانب عظيم من القيمة ، وقد أوقعوا في حبائلهم عدداً من كبـار الموظفين الفرنسيين الذين زودوهم ببعض أسرار الدفاع التي لها شأنها الكبير ، ومن ضحاياهم الكولونيل دومولان عضو هيئة أركان الحرب الفرنسية العليا ، والاستاذ لوي مارتان رئيس

قسم الشفرة في وزارة البحرية . ولعل الادارة السرية السوفياتية قد كفت عن استخدام الجواسيس المرتزقة بعد اكتشافها نفاق عصابة سويتز . ويبدو أن الجاسوس الذي يمارس عمله عن اقتناع بمبادئه ، وهي أقوى في نظره من المال ، لأفضل من المرتزق وأكثر مدعاة للطمأنينة ، وإذا أمكن الجمع بين المبادىء والمال لنشأ من ذلك « المبتدىء » ، وهو في هذه الحالة في قبضة التشيكا المزدوجة .

الفصل الثامن

التدريب

« ان الحزب ليطلب كل شيء من هؤلاء الرفاق ، فعليهم أن يقبلوا المهام التي يكلفهم بها ، والعلاقات العائلية والمسائل الشخصية الأخرى لها اعتبارها ، ولكنها ليست هي الحاسمة في الموضوع ، وإذا اقتضى الكفاح الطبقي أن يترك الشخص أسرته فهو مكره على أن يتركها شهوراً ، بل سنوات ... ان الثوري المحترف لا يمكن أن يثبط همته مثبط ، انه صلب كالفولاذ ، ثابت كالصخر ، لا يمكن أن يؤثر فيه مؤثر ، وواجبنا أن نجعل كل عضو في الحزب ثورياً محترفاً بهذا المعنى ... » .

هذه عبارة منقولة من « كتاب التنظيم » الذي أصدره مكتب التنظيم التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، وهي تتضمن ما ينتظره الحزب من الأعضاء الذين يعينون في أي وظيفة ، وهذا النص يسري بصفة خاصة على كل من يجند للعمل في صفوف التشيكا ، ويدرب على القيام بمهـــام أي وظيفة من وظائفها في الخدمة الداخلية أو الخارجية .

وإذا شئنا أن نفهم الأساس الذي يقوم عليـــه تدريب موظفي التشيكا وجب علينـــا أن نفكر لحظة في المعاملة التي تعامل بها الدولة بيروقراطيتها ،

وموظف التشيكا فرد من أفرادها . ولعل ذلك يبدو غريباً ولكنه مألوف تماماً من وجهة النظر الشيوعية . وأعضـــاء الحزب الشيوعي هم وحدهم الذين يعينون في وظائف الحكومة و السلطات المحلية ويخضعون للنظام الدقيق الذي تفرضه وزارة رقابة الدولة ومجلس الرقابة التابع للجنة المركزية ، ولا يعين إلا الشيوعيون رؤساء للوحدات الادارية والمنـــاطق والنواحي التي ينقسم اليها الاتحاد السوفياتي ، وغني عن البيان أن الشيوعيين وحدهم هم الذين يتولون المناصب الرفيعة في الحكومة .

وقد يجد رئيس ناحية اداريـــة من النواحي الثماني والستين التي تنقسم اليهـا المنطقة الغربية من سمولنسك انه قد انتقل فجأة إلى وظيفة في جمهورية بشكير ذات الحكم الذاتي في جنوب الأورال على بعد ١٨٠٠ ميل ، وعليه أن يطيع سواء كانت هذه ترقية أم فيهـــا حط من قدره . وأغرب من هذا وأعجب تنقلات كبار الموظفين العديدة ، بمـــا في ذلك وزراء الستة عشرة جمهورية السوفياتية والعشرين منطقة واقليماً « المستقلة » . فوزير المعارف في جمهورية روسيا البيضاء السوفياتية قد يجد نفسه فجأة «منتخباً» ليكون وزير المواصلات في جمهورية شرق القوقاز ، أو رئيس شركات القطن الجنوبية الشرقية . ولعلنا قد نجد بعض التعليل لهذا في أن ٤٨ بالمئــة فقط من السكان السوفيــات هم من الروس ، وأكثر من أربعين جنسية مختلفة تقطن هذه القارة المترامية الأطراف تحت الحكم الشيوعي ، وهي في اللغة والعـــادات والأساطير الشعبية والمظهر مختلفة اختلاف الشعوب العديدة التي تقطن القارة الاميركية .

ونظراً لأن حكام الكرملين لا يثقون في هذه أو تلك من الطوائف القومية فانهم يرسلون الموظفين الذين ينتمون إلى الجنسيات السوفياتية الأخرى ليحلوا كعيون لهم في البلاد التي لا يثقون في أهلها ، ويميل الزعماء الشيوعيون إلى أن يحيطوا أنفسهم بمواطنيهم ، وهم يثقون فيهم أكثر من الروس . وقد وضـــع ستالين وبريا كثيراً من أهل جورجيا في المراكز الرئيسية ، وأحاط البولندايان دزرشنسكي ومنزينسكي نفسيها ببعض الأتباع البولنديين في مقر قيادة التشيكا ،

واستدعى مانويلسكي ، عندما كان رئيس الادارة السرية في الكومنترن ، مواطنيه من أكرانيا . أما راديك الذي لا وطن له فقد فضل أن يكون معاونوه من الالمان والشيوعيين الذين من غرب أوروبا .

ومن نتائج هذه الظروف أن تدريب المرشحين الجدد على أعمال التشيكا يتم بطريقة يمكن معها إلحاق المرشحين إما بإدارات التشيكا الداخلية أو الخارجية ، وان معظم المرشحين للادارة السرية الأجنبية يقضون مدة التدريب في إحدى الوحدات أو الأقسام العديدة الخاصة بالتنظيم الداخلي في أي مكان في الاتحاد السوفياتي .

وقد اهتمت التشيكا أعظم اهتمام في العقد الثالث بإنشاء شبكات للتجسس في الشرق أكثر من الغرب، وقد استخدم الشيوعيون الأجانب ورسل الشيوعية الدولية في غرب أوروبا كمديرين مقيمين وعملاء خصوصيين .

وقد ألف البعض الأعمال السرية وقضوا فيها سنوات طويلة من التجربة كأعضاء في الأحزاب اليسارية الاشتراكية في المانيا في عهد القيصر ، وفي مملكة النمسا والمجر ، وفي دول البلقان في العهود الاستبدادية . وقضى البعض تدريباً فجاً إذ كانت الدولية الشيوعية قد أقامت مدارس للتدريب بعد الثورة مباشرة حيث كان أبرز المدرسين هم بعض كبار البلاشفة القدامى ، ومنهم زينوفييف وبوخارين وكارل راديك ومانويلسكي وبياتنتزكي وأوردزونيكيدز. وقد لعب راديك على وجه خاص ، بوصفه عضواً في رئاسة الكومنترن ومديراً لقسم وسط أوروبا في وزارة الشؤون الخارجية ، دوراً مهماً في بناء جهاز التجسس في سنواته الأولى ، وكان بين أولئك الذين وضعوا أساس التدريب الطويل المعقد الذي يعطى الآن للعملاء السريين السوفيات .

وكان من رأي لينين أن تحمل شعلة الثورة أولاً صوب الشرق إلى الصين والهند . وقد أدى الانشغال بشؤون الشرق الأقصى إلى إنشاء مدارس التدريب الأولى للمجندين الشرقيين الذين سيخدمون التشيكا . وكان بين طلبة الجامعة الصينية في موسكو رجال مثال ماوتسي تونغ ، وهو اليوم حاكم الصين –

وهو شي منه ، زعيم الفيتنام في الهند الصينية ، ومانا بندراناث روي الزعيم الشيوعي الهندي الذي كان حتى تطهيره سنة ١٩٣٧ معبود الثوريين في آسيا .

وأنشأ الشيوعيون بعد الثورة مباشرة عدداً من الأكاديميات السياسية المنظمة الكبيرة ذات الكفاية ، وذلك من ناحية لتعليم موظفي الحزب ، ومن ناحية أخرى لتزويد مصالح الحكومات والسلطات المحلية بموظفين تشبعوا بمبادىء الحزب . ومن المعاهد العلمية العليا التي قدر لها أن تعاون في تدريب العملاء السريين معهد ماركس وانجلز ، والاكاديمية الشيوعية ، ومعهد لينين ، ومعهد كروبسكايا الثقافي ، وكلية العمل المركزية وبعض الكليات التي يشرف عليها المجلس الاقتصادي الأعلى .

وأعد مجلس التخطيط التابع للدولة في سنة ١٩٢٨ خطة مفصلة للتعليم الجامعي وقد فصل في مذكرة سرية منهج التدريب العالي لعملاء التشيكا . وقد حرص المسؤولون على ألا يلقى هذا « التعليم الخاص » إلا أقل دعاية ممكنة . ولعل الاشارة إلى مدارس التجسس هذه في الكتاب الرسمي «الكتاب السنوي» للاتحاد السوفياتي عن سنة ١٩٣٠ كان من قبيل السهو فقد تضمن الكتاب العبارة التالية :

« المدارس السياسية نوعان : أولية وراقية ، وهدف المدارس الأولية تدريب المنظمين وغيرهم من عمال الحزب الآخرين ليتولوا المناصب في مجالس السوفيات المحلية والاقليمية ، وفروع أو أقسام الحزب الشيوعي ، وليكونوا ضباط قوات الأمن . أما المدارس الراقية فتدرب العمال على الوظائف العليا في الحكومة والسلطات المحلية ، كما تدرب كبار موظفي الحزب والعمال الذين سيعملون في الخارج على الوظائف الدبلوماسية أو السياسية » .

وفي الطبعات التالية لهذا الكتاب محيت عبارة : « الذين سيعملون في الخارج » .

ويوجد اليوم ما لا يقل عن مائتي مدرسة خاصة في عدد كبير من البلاد والمدن توفر التدريب لموظفي التشيكا ، وان كان ٢٠ أو ٣٠ منها فقط

تتخصص في تدريب العملاء السريين على الخدمات الخارجية ، فبعضها مثل كلية سيغولدا قرب ريغا تدرب العملاء على العمل في بلاد اسكندنافيا . وفيها برامج خاصة للمتخرجين في مدارس التجسس الأخرى تعدهم للمهام التي يقومون بها في البلاد التي تتكلم الانكليزية وخاصة في بريطانيا وكندا وأستراليا .

وتخرج الكليات والمدارس هذا الجيش الاحتياطي الضخم من الرجال الذين تحتاج اليهم التشيكا لتزود بهـا لا أقسام العمـلاء السريين والمهيجين السياسيين فحسب ، بل لتأخذ منهم حـاجتها من هذا الجيش العرمرم من رديف العمال والفلاحين (وهو البوليس الذي يرتدي الملابس الرسمية) والعمـلاء السريين لوزارة الداخليـة ورجـال البوليس السري والباحثين والمحققين وحراس معسكرات السخرة وحراس السجون والجواسيس والمبلغين والرسل والحراس الشخصيين والجـلادين الذين يتوقف على أعمـالهم البشعة وجود الشيوعية ومستقبلها ، بل كذلك العمـلاء الخاصين ، الذين تتألف منهم الادارة السرية السوفياتية .

والمرشح للتدريب الراقي يكون قد قضى بضع سنوات في جـامعة أو في كلية عسكرية عليا أو أكاديمية للضباط ، ومثل هذا المرشح ينتظر أن يصبح في الوقت المناسب من صفوة الادارة السرية . وثمة وظائف كثيرة طبعاً لا تدعو إلى هذا التدريب الراقي ، مثال ذلك وظائف الرسل وكتبة الرموز والشفرة والكتبة الآخرون على اختلاف مراتبهم ، وهم يدربون على وجه خـاص في الشؤون التي يتخصصون فيها .

ويقرر قسم الاختيار والتدريب ، بناء على توصية لجنة الانتخاب ، التدريب الخاص الذي يجب أن يتولاه المرشح، ويوضع موضع الاعتبار جنسيته ومظهره، فإذا كان قادماً من إحدى المناطق الشرقية أو الجنوبية الشرقية ، فأغلب الظن انه سيدرب ليقوم بالعمل في الشرق الأوسط وإيران وتركيا واليونان والشرق الأدنى وافريقيا ، فان أرمنياً أسمر اللون مجعد الشعر لمستطيع أن يمارس عمله بين أهل الشرق دون أن يلفت الأنظار لأول وهلة أنه أجنبي . وكذلك فان

مواطناً من جمهورية طاجيك السوفياتية المتاخمة لكشمير ، أو رجلاً قادماً من الجمهورية المغولية المستقلة يدرب على العمل في الهند أو باكستان أو الملايو أو الهند الصينية أو كوريا أو اليابان .

والمطلوب أن يكون العميل السري قوياً ينعم بصحة جيدة ، ويجب أيضاً أن يكتسب قوة التركيز وقوة الارادة والعزم على أن يحقق غرضه . وتعتقد التشيكا ان كافة إدارات مكافحة التجسس تستعمل وسائلها العنيفة في التحقيق ، وهي الوسائل للتي اصطلح على تسميتها بوسائل الدرجة الثالثة ولذلك تجعل من القدرة على مقاومة العنف والتعذيب جزءاً مهمــاً من برنامج تدريب العميل السري . ومن ثم فقد ساد الاعتقاد بأن الصفات التي تكسبها الرياضة للجسم لها قيمتها من وجهـــة النظر هذه . وتبذل كل التسهيلات الممكنة للمرشحين ويشجعون على أن يلعبوا الألعاب الرياضية،والرياضة شأنها شأن أي شيء آخر ، يجعلون منها وسيلة لأن يصبح المرشح مقاتلاً شديد البأس في حربه مع العدو الرأسمالي .

ولوزارة الشؤون الداخلية ستادها الخاص في موسكو ، وملاعب أخرى كثيرة في الأقاليم ، ولها فرقها الخاصة من الملاكمين والمصارعين ورافعي الأثقال والسباحين ولاعبي التنس ، ونواديها الخاصة للرماية ، ومدارس الطيران العادي والانزلاق بالطائرات على الجليد ، وكذلك لها نواد خـــاصة للعب الشطرنج . ويشجع رجال التشيكا على لعب الشطرنج ، ذلك أن رؤساءهم يعتقدون أن الصفات التي يكتسبونها من هـــذه اللعبة قد تعلمهم تركيز الاهتمام في مشكلة معقدة تعرض لهم . وثمة ناد للتشيكا مشهور في موسكو ، وهو نادي الدينامو لكرة القدم ، وقد زار لندن سنة ١٩٤٥ وهزم نادي الترسانـــة ٥ — صفر .

ويتخرج في مؤسسات التشيكا الرياضية الأخرى الأبطال في الألعاب التي تتخصص فيها هذه النوادي .

ويخضع كل مرشح لبرنامج مجهد من التدريب الجسماني ، ويجب أن يبلغ درجة مرضية في الملاكمة والمصارعة اليابانيـــة والدفاع عن النفس ، وكذلك

يدرب على استعمال الأسلحة الصغيرة التي سيحملها حتى ولو أصبح «دبلوماسياً» في الخارج. ومن أبطال الرياضة السوفيات عدد من رجال التشيكا مثل شوجاييف، وهو من أصحاب الأرقام القياسية الدولية والليفتنانت كولونيل بيكولاي جودلوفسكي ، مدير قسم الأسلحة الصغيرة من أقسام التشيكا ، وهو البطل السوفياتي في الرماية بالبندقية، وكان ممثل الاتحاد السوفياتي في الألعاب الأولمبية سنة ١٩٥٢ ، إلا أنه لم يستطع السفر إلى هلنسكي « لأسباب فنية » .

والمرشح الذي يبدي استعداداً خاصاً في الملاكمة والمصارعة قد يضم إلى جماعة العملاء الملحقين بالقسم رقم ٩ المشهور . أما تدريب الجلادين فيجري في بناء أشبه بالثكنات على ناصية شارع متروسترويفسكايا وتورتانينسكي بريولوك في موسكو ، ومدير معهد التدريب هذا هو أركادي فوتوييف، وهو موظف برتبة كولونيل في وزارة الشؤون الداخلية. ويتضمن منهج التدريب والرماية بالبندقية والمسدس وقيادة السيارات والموتوسيكلات والمصارعة اليابانية والملاكمة والتصوير الفوتوغرافي ومناهج أولية في وسائل استعمال الراديو ، وهذا المنهج قاصر على المبتدئين .

أما خريجو قسم الإرهاب وتحويل الأفكار فيدربون في مبنى خاص في كوشينو ، وهو منزل ريفي كبير خارج موسكو ، حيث يتم إعدادهم لتولي « مهامهم الخاصة » . ويتضمن برنامج هذا التدريب استعمال الأسلحة الخاصة والسموم ، وهذا المنهج العالي لا يعطى إلا لعملاء لهم شيء من الخبرة وقاموا فعلاً ببعض الأعمال الإرهابية « الأولية » .

وإذا كانت المواد التي يدرسها المرشح لها أهمية في حياته المستقبلة – مثال ذلك اللغات الحية أو الفنون والصنائع أو الكيمياء والطبيعة والهندسة أو الاقتصاد أو الجغرافيا – فان الأمر يصدر إليه عادة أن يتم دراسته الجامعية أو العسكرية ، فالتشيكا اليوم تشترط أن يلي مراكزها العليا رجال نالوا من العلم قسطاً وافراً ، وكان بعض من قابلت من عملاء السوفيات بعد الحرب الأخيرة على علم واسع ، قرأوا كثيراً ، بل ان بعضهم كان خبيراً بعلم من العلوم .

على انه إذا دعت الحال لملء الوظائف في القريب العاجل واعتبر المستوى العام لتعليم المرشح كافياً ، صدر إليه الأمر بأن يكرس نفسه في الحال لدراسة بعض المواد التي يراد ان يتخصص فيها . ويوضع البرنامج بحيث يمكن إرسال طوائف صغيرة من المرشحين إلى إحدى الكليات المتخصصة في المواد المطلوبة بالذات ، فمثلاً قد ترسل طائفة إلى معهد لينين لدراسة المشاكل السياسية الخاصة بأوروبا الغربية أو بدولة بذاتها ، وقد يرسل المرشحون من طائفة أخرى تعد للقيام بالتجسس الاقتصادي إلى كليـــة العمل المركزية التابعة لمجلس النقابات المركزي للاتحاد السوفياتي حيث يلقنون نظام الحركة النقابيـــة الغربية ، وقد يتلقون منهجاً خاصاً أيضاً في مدرسة التجارة الأجنبية ، وكثير من خريجيها أعضاء في الوفود التجارية السوفياتية في الخارج .

وقد تناولت على وجه خـــاص حتى الآن التدريب الراقي للمرشحين الذين يكونون قد نالوا تعليماً عالياً ، ويختار هؤلاء الرجال ليكونوا النخبة الممتازة وهم بعد أن يكتسبوا بعض الخبرة العملية ينتظر أن يمثلوا الوظائف الديبلوماسية الكاذبة في السفارات والمفوضيات السوفياتيـــة والوفود التجارية والبعثات العسكرية ، بينما ينظمون ويمارسون أعمال التجسس . ومنهج التدريب العام في الجاسوسية الذي يتلقونه يكاد أن يكون هو نفس المنهج الذي يلقن للعملاء السريين الأدنى منهم مرتبـــة ، وان كانوا يعفون من حضور بعض الفصول الأولية ، ويدرس لهم المنهج في الوقت ذاته الذي يتلقون فيه التدريب العالي أو بعد ذلك .

ولكي يمكن قبول المرشح للتدريب الأولي ، أو للتدريب المتوسط كما يقال له ، يجب أن يكون قد درس دراسة ابتدائية في واحدة من آلاف الرابفاك أو جامعات العمال ، وهي توازي عندنا الفصول الليلية والمدارس المسائية . فإذا كان مهندساً أو ميكانيكياً أو صانعاً ، تلقى تدريباً إضافياً في علم الألكترونات وفي إصلاح السيارات وإرسال الـــبرقيات باللاسلكي والتصوير الفوتوغرافي ووسائل إعداد الأفلام الدقيقة والكيمياء . والغرض الظاهر هو تدريب العملاء

ليمكن استخدامهم في المراسلات أو في المعامل حيث يتم التزييف أو تستخدم المواد الكيماوية في صنع أنواع الحبر الخفية أو لغير ذلك من الأغراض الأشد ضرراً . وبعض المرشحين الذين لهم خبرة في المصانع يلحقون بطوائف التجسس المعهود إليها جمع المعلومات الصناعية .

وهذا التدريب أوسع نطاقاً وأكثر نظامـاً من أي نظام للتدريب يمكن لإدارات المخابرات الغربية أن تزود به عملاءها . إلا أنه يمكن اعتباره تعليماً عادياً ، وان اتسم بالطموح ، يفيد منه عملاء المخابرات . إلا أن هؤلاء المرشحين يدربون على التجسس لحساب الادارة السرية السوفياتية . فالمسائل الفنية إذاً ليست إلا جزءاً من برامجهم — أما الجزء الآخر فيكرس لغرس بعض الأفكار السياسية في نفوسهم وكذا تلقينهم مبادىء « النشاط الثوري » ، ولا مثيـل لذلك في المناهج الغربية حيث الوطنية والاخلاص مسلم بها .

ويتفاوت المنهج في المدارس المتوسطة ، إلا أن بعض المواد تلقن فيها جميعاً ، وتوجد كتب قليلة مطبوعة وتوزع بعض النصوص ، وعلى الطلبة أن يعيدوها بعد الانتهاء من دراسة المقرر ، وحكمة ذلك واضحة وهي الحيلولة دون وقوع هذه النصوص في يد الغير .

وأحد الكتب الدراسية التي ما زالت مستعملة ، كتاب جمعه في سنة ١٩٢٧ الشيوعي الألماني هينز نيومان (سابقاً : ألفريد نيوبرج) وهو أحـد الكتب القليلة التي ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، منها الألمانية والصينية والفرنسيـة . وكانت النسخة الفرنسية في متناول شبكات الجاسوسية الفرنسية وطبعتها في سنة ١٩٣٤ دار النشر الشيوعية الفرنسية السرية . وقد ضبط البوليس الفرنسي بعض النسخ في حملة قام بها على مكاتب تلك الدار بالمنزل رقم ١٣٢ بضاحيـة سانت دنيس بباريس ، وجرى تطهير نيومان (أي تصفيته) ، وكان عضواً في اللجنة التنفيذية المركزية للكومنترن ، في التطهيرات العظيمة التي تمت في سنة ١٩٣٧ فمحي اسمه من الكتاب .

والبرنامج العام التالي ، وهو في حيازتي ، كان يستعمل فيما بين سنتي ١٩٤٨

و ١٩٥٣ لمناهج المدارس المتوسطة . ويتبين منه القارىء مدى المعلومات التي يزود بها المرشحون :

١ – معلومات سياسية عامة :

مبادىء الماركسية والعلوم والمجتمع .
تعاليم لينين وستالين .
الاتحاد السوفياتي في الشؤون العالمية .
تاريخ الحركة العمالية .
تاريخ الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي .

٢ – العدو الذي نحاربه :

النظام السياسي للدول الرأسمالية وحكوماتها وإداراتها .
واجب الأحزاب الشيوعية في حل الطبقات الحاكمة .
أنواع التنظيم الصناعي .
حالة العمال الصناعيين والفلاحين .
القوات المسلحة في الدول الرأسمالية .
البوليس والهيئات المتطوعة الشبيهة بالحربية في الدول الرأسمالية .
نظم الحكم الفاشية وشبه الفاشية .

٣ – مواضيع في الوسائل الحربية الفنية وفي اثارة الخواطر وفي الدعاية :

الشعوب والهجرة واللغات والأديان .
الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الدول غير الشيوعية .

علم النفس والنظام الاجتماعي .
مشاكل الزنوج وغيرهم من الشعوب المستعمرة .
مشاكل اليهود .
العلاقات الاجتماعية في الخارج ومع الأجانب .
الاضرابات والخلافات السياسية والصناعية (مع التمثيل لذلك ، ومن هذا القبيل الاضراب الكبير في بريطانيا سنة ١٩٢٦ ، واضرابات موظفي الحكومة في فرنسا في العقد الخامس من هذا القرن ، واضرابات عمال النقل) .
مشاكل التمرد المسلح (مع التمثيل لذلك بثورة هامبورغ سنة ١٩١٨ ، وثورة ريفال سنة ١٩٢٤ وثورة شنغهاي سنة ١٩٢٧ ، وثورات الهند ، وثورة افريقيا الشرقية) .

٣ — مواضيع فنية :

الجغرافيا وقراءة الخرائط ورسم الخرائط .
الرموز والشيفرات .
المراسلات ونقل المعلومات (حلقات الاتصال والرسل وصناديق البريد) .
الكتابة على الآلة الكاتبة والاختزال ونقل المعلومات بواسطة الآلات الكاتبة وإرسال البرقيات باللاسلكي .
التصوير الفوتوغرافي وعلاج الأفلام الدقيقة .
تنظيم مراكز البحث في الخارج .
العلاقات مع الديبلوماسيين الموفدين منا ومن عملائنا وعملاء الدول الصديقة.
جوازات السفر ووثائق تحقيق الشخصية وتراخيص الدخول والخروج وتسجيل الأجانب وتصاريح العمل والتعليمات الخاصة بالأجانب في الخارج والمزايا الديبلوماسية .
التصرف في أحوال الطوارىء (في حالات القبض وفقد المستندات وحملات

البوليس والتفتيش وكشف القناع عن شخصية العميل) .

أعمال الميدان — أنواع العمل المطلوب ومداه ونطاقه ، الأهداف والتعليمات — الالتفات للواجب — المشاكل السيكولوجية ، اليقظة ، حسن التصرف ، « السلامة أولاً » ، التبصر ، حضور البديهة ، رباطة الجأش .

وقائمة المواد عظيمة ، والمنهج لا يقتضي من الطلبة الدقة والعناية فحسب بل يتطلب أيضاً أن يكونوا في مستوى عال من الذكاء ، ولكن يجب ألا يغرب عن البال أن الشيوعيين بارعون في العناوين والأوصاف الطويلة المعقدة يطلقونها على الأشياء البسيطة ، حتى في الحياة اليومية يستعملون رطانة الجدليات الماركسية . وبعض المواد يتألف من محاضرة واحدة فحسب تشرح أوليات المادة موضوع الدرس ، وتعالج المواد في مدارس الجاسوسية علاجاً سطحياً ، ذلك أن هدف المدرسين ليس هو تعليم الطلبة بقدر ما هو تهيئتهم وجعلهم يقاومون المؤثرات والمغريات الناشئة عن مشاهدتهم حياة أكثر حرية من حياتهم في الخارج .

وقد جمعت هذه القائمة من منهجين أو ثلاثة مناهج ، أحدهما كان مقرراً تدريسه في ١٨ شهراً واثنان لفترة أقل ، إلا أنهما رتبا مع دراسات متخصصة كلف الطلبة بأن يتلقوها في كلية فنية أو أكاديمية عسكرية . وقليل من المواد هو الذي يستحق منا التعليق . وهناك اهتمام بإلمام العميل بطبوغرافية الدولة أو الدول التي سيوفد اليها ، وأخلاق وعادات سكانها ، ومشاكلهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وتساق الأمثلة على الاضرابات ، بل على الثورات المسلحة ، ذلك أن العميل السوفياتي قد لا يطلب منه تقديم تقارير عن مثل هذه الحوادث فحسب ، بل أن يشترك فيها إذا وقعت ، وذلك ببذل النصائح إلى الثوار الشيوعيين أو الوطنيين ومساعدتهم .

وتعلق أهمية عظيمة على أخلاق المرشح الذي سيصبح عميلاً سرياً ، فالرجال ضعاف الخلق والخياليون ، أملهم ضعيف في الاختيار للتدريب ، بل ان مدة الاختبار ، حتى بين الرجال الأصلب عوداً والأكثر نشاطاً الذين يجندون

ويدربون ، قد قصد بها غرس « النظام الحديدي » في الطالب ، وهو النظـــام الذي أوصى به لينين المرة بعد المرة في كتبه ومؤلفاته ، ومن مقتضاه « أن يتبعه الشيوعي ويلتزم بــه كأنه جندي في جيش التحق بــه وليس من حقه أن يهجر صفوفه وقت الحرب إلا بموافقة رؤسائه » .

ومن ثم فإن الشروط الجوهرية أن يطيع الطالب في دقة تامة قوانين الدولة وقواعد الحزب ، ليس هذا فحسب بل يرضى بوضع نفسه خارج نطاق القانون ، متنازلاً عما يخوله إياه من حقوق ، فإذا فشل في مهمـــة أو هرب من الصفوف عوقب دون محاكمة عقاباً قد يصل إلى الاعدام .

ويطلب منه توقيع « اشتراك » يقر فيه بعلمه بأنه « جزاء أي اهمـــال في تنفيذ التعليمات الخـــاصة بالأعمال السرية يتحمل المسؤولية » خارج « نطاق المحاكم » .

وفيما يلي نموذج طلب الاشتراك الذي يوقعه الموضوعون تحت التدريب حتى قبل أن ينتقلوا إلى فترة الاختبار :

سري جداً

اشتراك

أعلاه) . . . .

أنني قد اطلعت على التعليمات (الصادرة من) . . . . الخاصة بالقيام بالأعمال السرية ، وأتعهد بأن أراعي بتمام العناية والدقة القواعد التي تضمنتها هذه التعليمات ، وأن أحافظ على السرية التامة لكافة الشؤون المتصلة بعملي ، وكذلك كوني في خدمة الادارة السرية .

وأتعهد أيضاً بأن أخطر الادارة (يذكر هنا وصف المنظمة) . . . . بكافة التغييرات التي تكون قد طرأت على تقريري الأخير وخاصة فيما يتعلق بأقاربي ومعارفي الذين لهم صلات بأجانب أو بقوم سافروا إلى الخارج .

وأنني أدرك أن أي اهمال في تنفيذ التعليمات الخاصة بالأعمـــال السرية

والنكث بهذا العهد أتحمل مسؤوليته كاملة وفقاً للقانون ولكن خارج نطاق المحاكم.

التوقيع (بخط واضح) . . . . . .

. . ١٩٠

ويلزم الطلبة في المدارس الراقية مساكنهم ، وعليهم أن يسجلوا أسماءهم في الدخول والخروج ويظلون تحت إشراف المراقبين والمدرسين من رجال التشيكا ، وهم يتناولون طعامهم في المطاعم (الكانتينات) الملحقة بالمدارس ويتلقون خلال التدريب مصروفاً شخصياً يتراوح بين ١٢٠ و ٢٠٠ روبل في الشهر (نحو ١٢ إلى ١٥ جنيهاً انكليزياً وفقاً لسعر القطع الرسمي ، إلا أن القوة الشرائية لهذه المبالغ أقل من ذلك بكثير) . وللطلبة المتزوجين الحق في الحصول على اعانات لزوجياتهم وأطفالهم تدفعها وزارة الداخلية رأساً إلى عائلاتهم ، وليس لدى التشيكا مانع من قبول الطلبة المتزوجين ، إذ أن الزوجات والأطفال وغيرهم من الأقارب يعدون بمثابة رهائن عندما يصبح المرشح عميلاً سرياً ويوفد في مهمة إلى الخارج .

ونظام مدارس التجسس المقيمة ، كنظام المدارس العامة الانكليزية من وجوه كثيرة ، وتجري على نظام شبيه بنظام مدارس الأديرة ، فهي تتخذ مقامها في القصور القديمة التي كانت لعلية القوم من قبل ، وفيها ملاعب جميلة ، وساحات للألعاب الرياضية وساحات للرماية ومعامل . إلا انه فيما عدا منهج التعليم والأهداف النهائية من التعليم يوجد فارق يدعو إلى الذهول بين ما يجري عليه العمل في تلك المدارس وبين الترتيبات المتخذة في المدارس الداخلية أو منازل الطلبة الجامعيين في العالم الحر ، فلا أحد من الطلبة يعرف زميله باسمه الحقيقي ، فكل طالب عند وصوله يطلق عليه إسم آخر ، وتتكرر أحياناً الاسماء كإيفان ونيكولاي وأندره ويوري وكوستا وتضاف اليها الألقاب للتفرقة . وممنوع على الطلبة منعاً باتاً أن يفشوا أسماءهم الحقيقية لزملائهم . وتفض الخطابات التي تصل اليهم في المدرسة ، وبعد أن يقرأها موظفو التشيكا

تسلم اليهم دون ظروف وكل الخطابات التي يكتبها الطلبة إلى أقاربهم وأصدقائهم يجب تسليمها إلى مكاتب البريد حيث تطلع عليها الرقابة .

وممنوع على الطلبة أن يغادروا كلياتهم بمفردهم ، بل يؤخذون في طوائف صغيرة تحت رئاسة مدرس أو معلم لزيارة المـــدينة أو شراء بعض السلع أو مشاهدة السينما أو المسرح ، وللطلبة أن يتلقوا زيارة واحدة في الشهر ، ولا يزيد عدد الزائرين فيها من أقاربهم على اثنين ، وكذلك تقام في الشهر حفلة واحدة للترفيه أو الرقص يجوز لزوجات الطلبة المتزوجين حضورها إذا كانوا يقيمون في جوار الكلية .. إلا أن حضور الصديقات محرم ، والظاهر أن التشيكا تجد من الصعب عليها أن تتحقق منهن ، (أما قريبات الطـــالب فانهن يكن قد تم فحصهن قبل ذلك) ، ولكن يدعى إلى هذه الحفلات عدد من الفتيات الأعضاء في مكاتب التشيكا أو العميلات ، وتقام الحفلة في البهو الكبير الموجود في كل مدرسة والمؤثث أثاثاً جميلا ، ويقدم الطعام والشراب أثناء الحفلات في كرم وسخاء .

ومعاملة الطلبة حسنة ، بغض النظر عن عزلتهم وما يفرض عليهم من نظام دقيق ، ويشترك اثنان أو ثلاثة في كل غرفة من غرف النوم ، وهي بسيطة المظهر حسنة التنسيق . وفي المدارس غرف مريحـــة للدراسة ، وغرف للقراءة ، وردهات يلعب فيها الطلبة الشطرنج والبلياردو ، ولمعظم المدارس دورهـــا الخاصة بها للسينما ، وأوركسترا مؤلفة من الهواة . والطعـــام جيد ومتوفر ولا قيود على الخمر . وفي المساء يختلط المدرسون والمعلمون ، بل كبـــار موظفي التشيكا الذين يديرون المدرسة أو الكلية ، بالطلبة ، ويشتركون في الغنـــاء والرقص الشعبي (وكثير من هذه الرقصات الشعبية بهلوانية «وللرجال فقط») . ولذلك فإن غيـــاب العنصر النسائي ليس مشكلة من المشاكل . وإذا حدث أحياناً أن أفرط بعض الطلبة في الشرب ، وكاد الأمر أن ينقلب إلى عربدة انسحب المعلمون في فطنة وحذر . وليس ثمة محل لتوبيخ أو لاجراءات تأديبية طالما الأثاث سليم ولم تمتد اليه يد الاتلاف .

ويوجد اليوم (١٩٥٤) نحو ٣٠ كلية لتدريب العملاء السريين ذات برامج راقية ، وأكبرها في موسكو وبالقرب منهـــا (وتتخصص كلية كوشينو في تدريب العملاء المعهود اليهم القيام « بالمهـــام الخاصة ») ، وفي لنينغراد (في دبسكوسيلو ، المقر الصيفي السابق للقيصر) ، وكييف ، وخـــاركوف وغوركي ، وتبيليسي (تفليس) ، وخاشوري ، وسيغولدا ، هذا عدا المدارس الملحقـــة بأكاديميات الجيش الأحمر والبحرية الحمراء التي تدرب الملحقين العسكريين ، وثمة مدرسة واحدة على الأقل للتجسس تديرها منظمة الخدمة العسكرية الكيماوية والبكترولوجية حيث يتلقى الطلبة تدريباً متخصصاً ، وفي مدرسة التجسس التي في يغولدا قرب ريغا منهج خاص للهندسة الكهربائيـــة والميكانيك ، وثمة مناهج للتلغراف اللاسلكي وطريقة تداول المفرقعات في بعض هذه المدارس – وقد ينتقل الطلبة من مدرسة إلى أخرى ليتلقوا تدريباً خاصاً .

فإذا ما أتمّ الطالب دراسته ألحق بوحدة داخلية للتشيكا داخل حدود الاتحاد السوفياتي ، ليقضي مدة الاختبار ، وقد يعهد اليه بمراقبة الدبلومـــاسيين والصحفيين الأجانب والزائرين القـــادمين من الخارج ليتعلم وسائل الأجانب الغريبة ، أو قد يصدر اليه الأمر بأن يؤدي مهمـة الدليل « ويكون في ذلك ككلب حراسة سري » لوفود النقابيين والمندوبين الموفدين إلى مؤتمرات السلام أو غير هـــؤلاء من الأبرياء أو الأغرار الذين يدعون إلى روسيا ، ثم يختلط بالشيوعيين الأجانب القادمين « للحج » من الخارج . على أنه يوفد ، إن عاجلاً أو آجلاً ، إلى منطقة من مناطق الحدود في الاتحاد السوفياتي ، حيث يعين في منصب صغير كحارس من حراس الحدود أو حـــارس في الجمارك أو ضابط الهجرة . ويخضع هذا المرشح الموضوع تحت الاختبار لتجارب شتى . وكثيراً ما يستعان بالخدع في اختباره ، فمثلاً يتقدم اليه في منطقة الحدود قوم يمثلون دور اللاجئين أو كأنهم يحاولون الهرب من الاتحاد السوفياتي ، أو تعرض عليه بعض « المعلومات السرية » التي تكون قد اصطنعت في مقر قيادة التشيكا ، وتكون غالبية « اللاجئين » و« الهاربين » من السيدات أو الفتيات الحسناوات ،

وهن طبعاً من عمليات التشيكا ، والقصد من هذه الخدعـــة هو اختباره لمعرفة مدى التعويل عليه وما وهب من ذكاء وفطنة .

وقد يصدر اليه الأمر أيضاً بأن يحاول عبور الحدود بطريقة غير مشروعة إلى فنلندا أو تركيـــا ، وحتى لو قبض عليه فالخطر من ذلك قليل ، ذلك أنه سيعلل تخطيه الحدود بأنه موظف صغير من موظفي الحدود السوفيـــاتية ضل طريقه اثناء تنزهه ، وليس من المحتمل أن تنشأ أزمة دولية بين الدولتين بسبب هذه المسألة التافهة ، إلا أن الشخص الموضوع تحت الاختبار يمكنه أن يثبت ذكاءه واقدامه بالوسيلة التي يعالج بها موضوع الاختبار .

فإذا قضى مدة الاختبار على ما يرام ، استدعي أمام لجنة خاصة من قسم الانتخاب والتوزيع وتليت عليه اللوائح والتعليمات مرة أخرى ، وهو لا يتسلم صورة من هذه الوثيقة التي عرف بها من قبل اثناء ادائه «اليمين القانونية للخدمة» بتوقيعه الاشتراك ، إلا أنه في هذه المرة يقترن التحذير بأن أي اهمـــال في واجباته أو انحرافه عن جادة الصواب فيها سيلقى عنه العقـــاب الشديد ، بتحذير آخر مفاده أنه في هذه الأحوال تتخذ الاجراءات للانتقام من عائلته » .

ويوجه رئيس اللجنة نظره إلى المادة ٥٨ من قانون عقوبات الاتحاد السوفياتي ونصها :

« في حالة هجر أحد أعضاء القوات المسلحـة أو قوات الأمن صفوف تلك القوات ، أو خيانته العهد أو هربه للخارج ، يكون أعضاء أسرته البالغون – إذا علموا بهذا الأمر ولم يبلغوا عنه – عرضة للعقاب بمقتضى المـــادتين ٨٤ و ١٤٦ بالنفي مدة لا تجاوز الخمس سنوات ، إلى مكان من الأمكنة التي تضمنتها القائمة المصدق عليها من وزارة الشؤون الداخلية ، أو النفي مدة خمس سنوات من العاصمة والمدن الكبيرة والمراكز الصناعية في الاتحاد السوفياتي ، أو الحبس في معسكرات العمل الاصلاحية مدة لا تجاوز الخمس سنوات وبمصادرة جميع ممتلكاتهم الشخصية ، أما أعضاء الأسرة البالغون الآخرون فانهم ، سواء علموا بنوايا الهارب أو الخائن أم لم يعلموا ، فيمكن معاملتهم على اعتبـــار أنهم من

الأشخاص الخطرين على المجتمع ، وينفون مدة لا تجاوز الخمس سنوات إلى مكان من الأمكنة التي تضمنتها القائمة المصدق عليها من وزارة الشؤون الداخلية ، أو النفي مدة خمس سنوات من العاصمة والمدن الكبيرة والمراكز الصناعية في الاتحاد السوفياتي » .

وينبه المرشح الموضوع تحت الاختبار تنبيهاً لا يدعو للبس والغموض إلى أنه سيفقد حياته ، ولا يترك له أي شك في العلم بأن التشيكا قد تجده وتعاقبه حتى لو لجأ إلى إحدى الدول الغربية وشملته تلك الدولة بحمايتها ، وان أسرته كلها ستعامل معاملة الرهائن ، وكان خوف مستر ومسز بتروف حقيقياً ومبنياً على أسباب قوية .

ويتم العميل السوفياتي السري الجديد مدة تمرينه ويمر بشتى التجارب ثم يعمل كرجل من رجال التشيكا « الداخليين » ، ويزود بفكرة أن أي انحراف في الواجب أو أقل اشتباه في أنه ارتد عن مذهبه لن ينجم عنه أن يفقد حياته فحسب ، بل يفقد أبوه وأمه وزوجته وأخوته وأخواته وأولاد أعمامه حياتهم أيضاً ، وبعد هذا يتولى أعمال العميل السري الحقيقية في الخارج .

ويوضع له تاريخ رسمي مزيف في معظم ما اشتمل عليه ، ويوضع هذا التاريخ المزور في ملفه . وقال جوزنكو ان الغرض من هذا هو الرد على أية أسئلة محرجة قد تسألها حكومة أجنبية فيما يتصل باعتماد أوراقه الدبلوماسية . وقد جرى العرف الدولي على أن ترسل الحكومة أوراق مبعوثها التي تزمع أن توفده إلى تلك الدولة مقدماً ، فإذا كان لا بد من أعطاء المعلومات عن تاريخ حياة « الدبلوماسي » فإن وزارة الشؤون الخارجية السوفياتية تصطنع قصة تناسب مهمته الدبلوماسية لا نشاطه في الجاسوسية .

ولقد ذكر بتروف ان إسم غندولادن ، كان شوركوف ثم غيره إلى بروليتارسكي في سنة ١٩٢٠ ، ولكن عندما أثير موضوع سفره إلى الخارج قال ديكانوسوف نائب رئيس القسم الداخلي في التشيكا ان الاسم غير لائق ، وأمره بتغييره إلى بتروف . إلا أن بتروف ظل يستعمل الاسم بروليتارسكي كلما عاد

إلى روسيا ، وتخلع الأسماء الجديدة والأسماء المستعارة على الأشخاص في الادارة السرية السوفياتية بالسهولة التي يرتدي بها هؤلاء الأشخاص الحلل الجديدة .

ويقترن الاسم الجديد بشخصية جديدة ، بل يبتكر من العلاقات ما لا وجود له ، وتصطنع تواريخ الحياة المزيفة ، ومما يساعد على هذا تنشئة وتعليم وتدريب الجيل السوفياتي الحالي وكلها تهدف إلى إلغاء الشخصية . ويصبح العميل الذي تمت تنشئته وتدريبه واحداً من صفوة السوفيات . ويتمتع بمزايا كثيرة في بلاد يتسع الفرق فيها بين البيروقراطية الممتازة وجماهير الشعب التي لا تنعم بأي امتيازات ، وهو فرق يزيد كثيراً عن مثيله في البلاد الغربية ، ويتفاوت مرتبه بتفاوت رتبته وخبرته ، ولكنه يزيد كثيراً عن مستوى أي وظيفة مدنية ، وينعم بالترف إذا قيس بمعدل الحياة السوفياتية . ولنضرب مثلاً حديثاً ، فقد كان يدفع لبتروف في أستراليا ٤٠٠٠ روبل في الشهر (أو ما يقرب من ٤٥٠ جنيهاً أسترالياً) ، وكانت زوجته ، وهي بعد عميلة صغيرة ، تستولي على ٢٦٠ جنيهاً أسترالياً في الشهر ، وحتى مع مراعاتنا للفروق في سعر القطع والقيمة الحقيقية للروبل ، فإن بتروف وزوجته كانا يستوليان معاً على ضعف ما كان يستولي عليه رئيس ادارة المخابرات البريطانية . ومع هذا فإنهما لم يكونا من الأشخاص ذوي الشأن من وجهة نظر الادارة السرية السوفياتية . ومتوسط مرتب العميل البريطاني الذي يساويه في المركز لا يزيد عن ربع مرتب بتروف ، على أن المرتب كله لا يدفع للعميل السوفياتي بل ان موسكو تحجز قدراً معيناً منه تضعه له في « صندوق توفير » ، فإن التشيكا لا تحب أن يكون تحت تصرف رجالها مال كثير في الخارج .

والقواعد التي تدرس للمخبر ليتفادى اكتشاف أمره بسيطة جداً، فعليه أن يسجل مواعيده في مفكرة بالرموز على أن يثبت التاريخ والساعة والمكان على غير حقيقتها ، وان كان من الممكن مثلاً إثبات التاريخ قبله بأسبوع ، والساعة قبلها بخمس ساعات . وكانت الأوامر تصدر للعملاء بألا يحتفظوا بالمواعيد مسجلة على الورق ، إلا أن هذا كان من نتيجته الارتباك في بعض الحالات بسبب

ما يعتري الذاكرة من خطأ حتى سمحوا لهم بأخذ المذكرات . ويؤمر المخبر بأن يكتب عدداً من المواعيد الصحيحة أو المشروعة مع المواعيد الأخرى حتى انه في حالة القبض عليه أو ضياع المفكرة يستطيع أن يعلل ما كتب تعليلا صادقاً. وما ان يبدأ المخبر في أعمال الجاسوسية حتى يلقن أن ينسى كل وجه ما عدا وجوه أولئك الذين يتصل بهم ، وانه إذا قابل أحدهم صدفة، لا بناء على موعد، يجب ألا تصدر منه حركة يؤخذ منها أنه يعرفه ، والمفروض أن كافة خطوط التليفون مراقبة ، ولذلك يجب عليه ان يجري محادثته التليفونية بحيث تحمل معنيين وتبدو معقولة لمن يتسمع الحديث، على أن يفهم المعنى بالأمر الذي يقصده المتحدث فعلاً — ولا يثير هذا الشبهة كما يثيرها وضع رموز خاصة تستعمل في الحديث . ويلقن المخبر أن آمن مكان للاجتماع ليس خلف الأبواب المغلقة في شقة خاصة بل في العراء ، والأفضل أن يكون ذلك حيث الكثيرون يروحون ويغدون ، مثال ذلك ناصية شارع ، أو في حديقة ، أو خارج محطة للسكة الحديدية ، أو في مسرح أو سينما ، أو في مطعم حيث تختار مائدة قرب الباب، والمباني لها مخرجان أو ثلاثة أفضل عادة من تلك التي ليس لها إلا مخرج واحد .

ويلقن المخبر الذاهب إلى موعد أن يفترض دائماً أن شخصاً ما يقتفي أثره حتى يتأكد من أن ذلك ليس هو الواقع ، وإذا وصل إلى مدينة وجب عليه ألا يذهب رأساً إلى المكان المعين ، بل عليه أن يتبع دائماً طريقاً ملتوياً يغيّر فيه طرق المواصلات عدة مرات ، ويدخل المحلات من باب ويخرج من الباب الآخر، وهكذا . ويكفي أن يقضي ساعة في هذه المحاولات ليضلل من عساه يكون مقتفياً أثره ، فإذا كان ثمة اشتباه في أن أحداً يقتفي أثره وجب عليه ألا يحافظ على الموعد، بل أن يبتعد عن مكانه قدر ما يستطيع في ناحية أخرى من المدينة، وعلى أن يفعل كما يفعل طائر الزقزاق عندما يحاول إبعاد مقابلاته عن عشه ، فإذا دعت الضرورة العميل إلى أن تتعدد مقابلاته في اليوم الواحد وجب أن تكون الأماكن والمواعيد متباعدة تباعداً كبيراً . ويجب على العميل ألا يذهب من مقابلة إلى أخرى مباشرة ، وإذا لم يجد العميل الشخص الذي واعده في

المكان الذي عيّنه له ، وجب ألا ينتظره أكثر من دقيقة أو دقيقتين .

والتشديد في المحافظة على المواعيد أساسه ان الرجل الذي ينتظر معرّض للقبض عليه ولو بتهمة « التسكع » البسيطة ، وقد لا يشتبه البوليس في أنه جاسوس إلا ان التحقيق في البوليس قد يؤدي إلى معرفة حقيقته ولذلك يجب تفادي التسكع .

ويحرم على العميل الأجنبي أن يتناول شيئاً من الخمر ، وان كان عملاء السوفيات أنفسهم يفرطون في شرب الخمر – واحتمالهم الخمر صفة ضرورية لاجراء اتصالاتهم الاجتماعية . وقد درّب الروسي تدريباً كاملاً حتى انه قلما يخرج عن حرصه بعد أن يجرع من الكؤوس ما يجرعه ، أما العميل الأجنبي فيحتمل أن تؤثر فيه الخمر تأثيراً يطلقه من عنانه ويقضي على التدريب السطحي الذي درّب عليه ، والمعلمون السوفيات مولعون بالتجارب الروائية لتأكيد الدروس التي يلقنونها لطلبتهم ، فالمخبر لا يعرف قط متى يطلب منه أن يفرغ جيوبه على المائدة ، فإذا طلب منه ذلك ووجدت قصاصة من الورق فيها ما يؤخذ عليه وبّخ على هذا توبيخاً شديداً . ويحذر العملاء من الحوادث ومن العمل وهم في صحة سيئة فان نقله فجأة إلى المستشفى قد يؤدي إلى معرفة الحقيقة عنه وعن الأعمال التي يمارسها .

وعلاوة على هذه الدروس التي تزيده علماً بأصول صنعته فقد يدرس منهاجاً في التصوير بالأفلام الدقيقة ، وقد أخذ هذا النوع من التصوير يزداد استخدامه منذ الحادثة الكندية في نقل الرسائل .

ويتعلم المخبر باستمرار من خبرة رؤسائه أكثر مما يتعلم من الدروس النظرية ، ويكتسب عادات الشك والتآمر والخوف المقرونة بالفرح كلما نجح في القيام بعمل مهما كان بسيطاً . وليس أدل على نجاح هذه الطريقة غير الرسمية في التدريب من أن فوخس مثلاً كان يقابل من يريد مقابلات لا حصر لها دون أن يثير شبهة ضباط الأمن الذين كانوا يراقبون علماء الذرة .

ويبدو من شهادة غاري غولد أن فوخس ، كما يتوقع المرء من شخص مثقف ،

يدين بمبدأ التفرد ، كان يأنف ، في البداية على الأقـــل ، من تلك الاحتياطات الواسعة النطاق التي كانت تكفل السرية ، إلا أنه يبدو أنه استوعب الدروس التي مكـّنته فيما بعد من مقابلة عملاء السوفيات في الريف الانكليزي،أو شوارع لندن المزدحمة — دون ان يثير الشبهة ، ولكي نرى أثر النظام في فوخس بعد ذلك نذكر أنه عندما أراد أن تلحق به أخته وولداه ، وكانوا يقيمون في كمبردج من أعمال ماساشوستس ، إلى نيويورك ليعيشوا معاً في شقته هناك،طلب الاذن أولاً من رئيسه في الشبكة السوفياتية ، فقد درّبه غولد تدريبـــاً كافياً أدرك منه أن مجيء أخته دون هـــذا الاذن فيه مخالفة للنظام وقد يعود على الشبكة بأبلغ الضرر .

وبعض الاحتياطيات التي يلقنها المخبرون قد تبدو غير ضرورية،بل مضحكة أحياناً ولكن « ذق تعرف » ! وكان معظم نجاح هيئات مكافحة الجاسوسية منشأه انحراف العملاء السوفيات لا القبض عليهم متلبسين ، وقد ينطوي هذا على لوم نوجهه إلى رجال إدارات المخابرات ، ولكن هـذه هي الحقيقة المرّة للأسف .

ويلقن المخبرون أن من الخير لهم أن يتخذوا ألف احتياط لا تدعو إليـــه الضرورة من أن يثيروا الشبهة حولهم مرة، والخطر من حوافز العمل ، فإذا قام العميل بمهمة يعتقد أنها محفوفة بالمخاطر ، وان كان في أمن تام ، يشبع رغبتـه ويخمد أي هواجس قد تدور بخلده وتؤثر على ضميره ، فتسليم المعلومات علناً ، أو إرسالها بالبريد المسجل ، مأمون تماماً في الدول الديمقراطية في ٩٩ من ١٠٠ من الحالات إلا أن المخبر قد يجد هذا العمل خالياً مما يثير النفس فيفقد حماسه ، والتدريب المستمر في تفادي الأخطار — حتى ما ليس له وجود منها — كفيل بأن يضفي الأهمية على الأعمال التي يقوم بها .

الفصل التاسع

جواسيس السوفيات في العمل

لا يتمتع المديرون المقيمون للمراكز الأمامية إلا بسلطة محدودة مهما كثر عدد الشبكات واتسع نطاقها ، لأن الاشراف يتبقى على الدوام في موسكو ، وقد تبين من الوثائق ضآلة شأن الاشراف المحلي وتفـــاهة القرارات التي يسمح للمديرين المقيمين باتخاذها ، ليس من ناحية الأهداف فحسب ، بل أيضاً من ناحية الأساليب ، ويشعر العملاء المحليون مهما علا شأنهم بأن موسكو تطل عليهم دائماً وترقبهم ، ويعرف المدير المقيم الذي يدير شبكتين أو ثلاث شبكات أنه قد يكون هناك شبكة مماثلة أو أكثر في القطر ذاته ولكنه لا يتلقى اشعاراً رسمياً عنها من موسكو .

ووقعت حالات كان فيها عملاء شبكتين يسعون إلى هدف واحد ، فإذا بهم يعترض بعضهم البعض ، ويحدثون ارتباكاً يهدد المركز الأمــامي بالخطر ، وكل هذا يوحي بأن هناك انقساماً حتى في الرياسة العليا ، ولكن من التسرع في الحكم على الأمور أن نصف ذلك بأنــه ضعف في الخطط ، إذ أن الغرض من تقسيم الاشراف هو الحد من الضرر إذا ما حدث افتضاح أو تحول عن المبادىء .

وقد ترتب على هذا التحول والمنـــازعات التي تحدث بين حين وآخر في

مختلف الشبكات بسبب الغيرة الشخصية ، أن عمدت التشيكا إلى ادخال نظام المفتشين الزائرين الذين يتولون من وقت لآخر التحقيق في أعمال المديرين المقيمين والعملاء الخاضعين لهم ، والمعروف أن هؤلاء المفتشين هم من كبار موظفي التشيكا، ويكونون أحياناً وكلاء الأقسام ، ولهم سلطات واسعة ، وهم يبحثون في العلاقة بين القيادة المحلية والمراكز الأمامية والشبكات من ناحية ، وبين الأحزاب الشيوعية وهيئات الطابور الخامس من ناحية أخرى . ولهم من السلطة ما يخولهم أن يعتقلوا ليس فقط العملاء السريين بل أيضاً زعماء وأعضاء اللجان التنفيذية المركزية للأحزاب الشيوعية المحلية . وهناك حالات طرد فيها مفتشون من موسكو زعماء شيوعيين من مناصبهم في السنوات الأخيرة ، وبخاصة في فرنسا وإيطاليا . وهم عندما توفدهم موسكو ليتولوا التحقيق في العلاقات بين الأحزاب الشيوعية والمراكز الأمامية يطلق عليهم عادة « المدربون » . ولدي وثيقة تشرح مهام زعماء الحزب الشيوعي في مساعدة مبعوثي موسكو ، وهي وثيقة أصدرها مكتب التنظيم للمجلس التنفيذي للدولية الشيوعية وجاء فيها ما يلي :

« يجب على اللجنة التنفيذية (للحزب الشيوعي في القسم المختص) أن تقدم جميع المساعدة للمدرب ، وتعطيه جميع الوثائق اللازمة لزيارته التي ترمي إلى التدريب والمعلومات . وينبغي للمدرب أن يرسل مرة في الشهر على الأقل تقريراً مكتوباً إلى المجلس التنفيذي للدولية الشيوعية يضمنه تفاصيل العمل الذي قام به وحالة عمل الحزب في القطر الموفد اليه . ومن واجب المدرب أيضاً أن يرسل معلومات عاجلة ومقترحات وتقارير عن مسائل خاصة .

ويجب أن تقدم إلى المدرب جميع الوثائق المتصلة اتصالاً مباشراً بعمليته ، ومختلف القرارات والمنشورات الدولية وغيرها من التعليمات وخلافه » .

ولا يخفى أن الاشارة إلى أن من واجب المفتش أن يرسل تقارير منظمة إلى موسكو عن التحقيق في اثناء قيامه به ، من شأنها أن تجعل المسؤولين من الشيوعيين والعملاء في القطر الذي يجري التحقيق فيه على أهبة الاستعداد على

الدوام . وليس ثمة نزاع في قدرة المفتشين على فصل العملاء أو إرجاعهم إلى موسكو . وقد استدعي بهذه الطريقة كثيرون من كبار العملاء والمديرين المقيمين ، وخفضت درجاتهم أو اختفوا من الوجود دون أثر يدل عليهم بعد وصولهم إلى موسكو .

ولعملاء الخدمة السرية السوفياتية في الخارج مهام مختلفة تتراوح بين العمل على تفكك الطبقات الرأسمالية الحاكمة بمساعدة التشكيلات المحلية للحزب الشيوعي ، وبين أعمال تجسس عسكري وصناعي . وقد تخلت الخدمة السرية السوفياتية في الأعوام الأخيرة عن التقليد القديم الذي كان الكومنترن يتبعه ، وهو أن يتعين على العميل السري أن يعمل في وقت واحد كأداة للثورة العالمية ومنظم للدعاية الهدامة وخبير في الأسلحة وتطوراتها ، فإن الجيل الجديد من العملاء يدربون على التخصص كما سبق أن بينت ، فلا حاجة للعميل أن يعرف شيئاً من كل شيء ، وإنما يجب عليه أن يكرس نفسه لمهام معينة محددة واضحة المعالم .

وهذا اقتضى إنشاء هيئة بيروقراطية مركزة تركيزاً عالياً للاشراف ، وأخذت أكوام الأوراق تتجمع في كل مركز محلي وتمرّ بين هذا المركز وموسكو ، ويكتب على كل أمر أو تقرير رقم خاص للرجوع اليه . وهذا النظام يكون مأموناً إذا استخدمت السفارات ومكاتب البعثات التجارية وغيرها من الأماكن التي تتمتع بامتيازات الحصانة . ولكن هذا الأمن ينهار إذا حدث تحول . أما التعليمات المكتوبة التي ترسل من غير طريق السفارات فيكتب عليها عبارة « تحرق بعد استذكار ما فيها » أو عبارات مماثلة بحسب ما تقتضيه الحال .

وتحدد جميع المهام بالكتابة ، سواء كانت هذه المهام خاصة بتفاصيل فنية ، أو تعليمات عامة ، وظهر في بعض الحالات أن من المألوف أن تعاد إلى موسكو نسخ من التعليمات الموجهة للعملاء المحليين ، أما « الفورمات » الموحدة فإذا لم تكن مطبوعة فعلاً في موسكو فإن أمر البت فيها يتم في موسكو .

وتسجل جميع التفاصيل كتابة بدقة وانتظام . وهي في بعض الحـالات تسجل مرتين أو ثلاث مرات ، وليست المسألة مسألة تسجيل المعلومات التي تعطى فحسب ، وإنما يجب أيضاً تسجيل موعد كل اجتماع ومكانه بالضبط ، بل وحالة الطقس أيضاً وقت الاجتماع ، فقد كتب في الملف الكندي مثلاً لمستر ورنفورد سميث أمـام اجتماع عقد في ٢٥ (أغسطس) آب سنة ١٩٤٥ العبارة التالية :

« يا له من مطر غزير ، انه في الحقيقة سيل منهمر ، ولكنه جاء إلى الاجتماع برغم هذا ، وأعطى تعليمات بعدم المجيء في المستقبل في طقس كهذا ، لأنه أمر غير طبيعي » .

وتبث عادةُ الكتابة في العملاء الجدد منذ أول عهدهم بالعمل عندما يكونون أبرياء ، ويشتركون ظاهرياً في مباحثات لا ضرر منها ، ويشجعون على كتابة التقارير لزعمائهم أو مدربيهم ، وعندما يصبحون جواسيس بحق تكون كتابة التفاصيل الدقيقة قد باتت عادة متأصلة .

وعندما قامت السلطات الفرنسية في عام ١٩٥٢ بحملة داهمت فيها مراكز الجاسوسية في باريس وليون وطولون وغيرها من المدن الفرنسية ، عثرت على مئات من الملفات تحوي نسخاً من تقارير أرسلت إلى موسكو ، وتكشف عن عدة أنواع من نشاط شبكات التجسس السوفياتية . وحدث في السويد أيضاً خلال عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ أن ضبطت مواد كثيرة ، لأن عملاء السوفيات أبقوا عندهم نسخاً ومذكرات تبين تفاصيل المعلومات التي أرسلوها إلى موسكو ، وترتب على هذه الضربات الشديدة أن بدأت الخدمة السرية السوفياتية تكثر من استخدام تصوير الوثائق على أفلام صغيرة للغاية ، وبهذا تحسنت وسائل إرسال التعليمات دون ضرر يذكر ، فكانت الرسائل الخاصة بجواسيس التشيكا تصدر من موسكو وترسل اليها في أفلام غير محمضة ملفوفة في ورق لا ينفذ منه الضوء ، فإذا فتحت في الضوء تلفت الأفلام ، ويتعين على الجاسوس أن يحمض الفيلم بنفسه ويطبعه ثم يحرق الفيلم .

ومن بين التعليمات التي أصدرتها موسكو أخيراً ، وجوب اتلاف جميع المراسلات بعد انقضاء عام عليها ، ولكن يجب مع هذا الحصول على موافقة موسكو قبل اتلافها . ويحدث أحياناً أن ترسل موسكو تعليمات بوجوب احراق رسالة بعد قراءتها مباشرة . أما أسماء وعناوين جهات الاتصال أو الأعوان وغيرهم فتلتقط لهم صور على أفلام غير قابلة للحريق وتحفظ في خزانة ، وعندما يطلب اتلاف وثيقة ما يتعين على المدير المقيم أن يرسل إلى موسكو ما يثبت أنه أتلفها فعلاً .

واستخدمت موسكو في السنوات الأخيرة طريقة جديدة تتلخص في أن جميع الخطابات المرسلة إلى موسكو تنسخ أولاً على الآلة الكاتبة ، ثم تصور فوتوغرافياً على أفلام صغيرة ، وترسل الأفلام قبل تحميضها بواسطة رسول إلى موسكو ، وعندما تتسلمها موسكو تبعث برسالة وتحرق الرسائل الأصلية المنسوخة بالآلة الكاتبة ، ولا تبقى منها إلا بعض المقتطفات الهامة .

وتثير الخدمة السرية السوفياتية بين عملائها الخوف من الاكتشاف ، ولهذا فإن أول واجب للعميل أن يبقى مختفياً ، ومن الطبيعي أن يشك جميع الذين يعملون في الجاسوسية في كل إنسان ، ولكن الأمر مع العملاء السوفيات يصل إلى حد الهوس مما يترتب عليه أن يقوموا بأعمال وأساليب تبدو كأنها قصص مغامرات من النوع المخصص للأطفال أكثر منها أعمالاً تتم في الحياة العادية . هذا إلى أنهم تدربوا فترة طويلة على اطاعة الأوامر وافتقروا إلى التدرب على التصرف ، مما يؤدي حتى بذوي الخبرة والتجربة منهم إلى الشعور بالخوف والذعر إلى حد يكون خطراً عليهم .

ويحتم النفوذ البيروقراطي على العملاء السوفيات أن يدبروا اجتماعات منتظمة مع المبلغين ، ولكن الخوف من الافتضاح يجعلهم يتخذون احتياطات كبيرة ، ولعل أكبر تدابير الحيطة تتخذ عندما يجتمع وسيط بأحد كبار العملاء السوفيات . أما إذا كان الوسيط من أهل البلد المقيم فيها ويريد الاجتماع بأحد المبلغين من أهل البلد ذاته ، فالتدابير التي تتخذ لإخفاء الاجتماع لا تكون كبيرة ،

ويكون الوسيط والمبلغ عادة غير معروف أحدهما للآخر ، ولهذا يتبع نظام معقد للتعارف . والمبدأ المرعي في الاتصالات يتلخص في أنه يجب أن يكون عدد الناس المعروفين لشخص واحد قليلاً إلى أقصى حد ممكن . ولا يجب أن يعرف المجتمعون شيئاً عن بعضهم البعض حتى ولا الأسماء إلا في الحالات التي تكون فيها التفاصيل عن الشخص ضرورة يتعين العلم بها .

والاجراء المتبع عادة في كل شبكة ، هو أن الرئيس الذي يرمز إليه بالحرف (أ) يعرف شخصيات مرؤوسيه « ب ١ » ، « ب ٢ » ، و « ب ٣ » ولكن هؤلاء لا يعرف أحدهم الآخر ولو من الناحية النظرية ، و « ب ١ » يعرف « ج ١ » ، و « ج ٢ » ، و « ج ٣ » الذين يعملون تحت رئاسته ، وان كان المرجح أنه يجتمع فقط بالشخص المرموز إليه بحرف « ج ١ » الذي قد يكون بدوره على صلة بالشخص المرموز إليه بالحرف « د ١ » ، وهكذا دواليك في كل مجموعة .

ويعرف « أ » أسماء جميع الرجال والنساء في مختلف المجموعات ولكنهم لا يعرفون بعضهم بعضاً . وقد يعرف « ب » كيف يتصل مباشرة بالأشخاص الذين يرمز إليهم بالحروف « د ١ » ، و « د ٢ » وغيرها في مجموعته ، ولكن « د ١ » لا يعرف أين يجد « ب » ، أو كما يحدث في أغلب الحالات لا يعرف أين يجد رئيسه المباشر إلا إذا كان هناك اجتماع سبق الاتفاق عليه . ولا يتصل المدير المقيم للمركز الأمامي بكبار العملاء الذين يشرفون على الشبكات إلا من طريق وسطاء ، ولا يجب أن يتصل به أحد مباشرة ، بل ان بعض كبار عملائه قد لا يعرفون مكان إقامته ، ولكن يجوز له عادة أن يحتفظ بصلة مكشوفة مع السفارة السوفياتية أو البعثة التجارية السوفياتية .

ويكون المدير المقيم على الدوام تقريباً مواطناً سوفياتياً يتمتع بالحصانة الديبلوماسية ، أو بعض الامتيازات الأخرى على الأقل ، فيكون مثلاً ممثلاً لوكالة « تاس » أو مراسلاً لجريدة « برافدا » أو « ازفستيا » ، أو عضواً في الوفد التجاري السوفياتي ، فلا تثير زيارته للسفارة السوفياتية أي شك ، وإنما

تعد زيارات عادية لشخص في مركزه .

أما الوسطاء الذين يتلقون التعليمات للشبكات من المدير المقيم وينقلون إليه التقارير من العملاء عن مهام تمت تأديتها أو أي نشاط آخر ، فيكونون عملاء لا يشتركون أبداً في أي عمل تجسس مباشر .

ويحظر عليهم بتاتاً الاشتراك في الحياة السياسية لبلادهم ، ويطلب منهم أن يحيوا حياة محترمة ويكون لهم مهنة ثابتـــة . وفي أحيان كثيرة تستخدم المخابرات السوفياتية أطباء أو جراحين أو أصحاب محال تجارية او أصحاب مقاه كوسطاء . وتختار أماكن كغرفة انتظار في مكتب أو محل حيث يدخل الرجال والنساء ويخرجون باستمرار ، ليستخدمها العملاء ، ويمكنهم أن يخفوا فيها أشياء ويأخذوا أشياء دون أن يثيروا شكاً .

ولعل خير ما يصور هذه العملية المعقدة من الاتصالات والاجتماعات أن نذكر بضعة أمثلة. فمثلاً عندما أدلى هاري غولد بشهادته في محاكمة آل روزنبرغ قال في المحكمة :

« ان واجبي كان يقضي أن أحصل على معلومات من بعض المصادر في أميركا وأن أنقلها إلى باكوفليف ، وكانت الاجتماعات مع مصادر المعلومات في أميركا تتم بطريقتين ، أولاً : بالتقدم الشخصي ، وثانياً : يتم التعريف الذي يجري بين الوسيط الأميركي وبيني ببعض إشارات التعـــارف ، وهي تشمل ناحيتين على الأقل ، تكون هناك دائماً مادة أو قطعة من الورق مع أحد الجانبين أو مـــع الاثنين ، أي الشخص الآخر وأنا ، وهناك أيضاً عبارات اصطلاحية ، وعادة ما تكون على شكل تحيـــة . وكنت أقدّم نفسي في جميع الحالات بأسماء مستعارة ، ولم أشر مرة واحدة إلى مكان إقامتي » .

وتختلف إشارات التعارف وعلاماته ، باختلاف المناسبات ، فقد حمل أحد العملاء كرة تنس ، واستخدم آخر قفازاً وكتاباً في مقابلاتهما ، وأمسك ثالث بقصاصة من الورق ، وصدرت التعليمات لغيره بحمل نسخة من جريدة « التايمس» تحت ابطه ، وأمسك عميل بجريدة « البكتشر بوست » بيده اليسرى . أمـا

عبارات التعارف المتبادلة فكانت من قبيل « ما هو أقصر طريق إلى ستراند؟». وتكون الاجابة هكذا « حسناً ، تعال معي فاني ذاهب في الطريق ذاته » .

وفي إحدى الحالات كانت التعليمات تقضي بأن يذهب الشخص إلى ميدان ترافلغار حيث يجد أمام « بيت كندا » شخصاً في زي من التويد بني اللون ، ولا قبعة على رأسه بينما يمسك جريدة بيده اليمنى ، وكانت كلمة السر « كيف حال أليس » ، والرد « انها في خير حال » .

وحدث في اجتماع سري بين عملاء المخابرات السرية السوفياتية وأعضاء شبكة « أنبوم » في السويد خلال عام ١٩٥١ أن كانت علامات التعارف أسماء مشروبات روحية فيطلب العميل المشروب ويكرر الاسم ثلاث مرات أمام البار فيقترب منه الشخص المراد الاجتماع به .

ومن بين العلامات الأخرى ان ذهب شخص ومعه نصف علبة من مسحوق « الجيلاتينة » ، وكانت كلمة السر « أنا قادم من عند جوليوس »، فقدم الشخص الآخر النصف الثاني للعلبة ووضع الاثنان النصفين معاً وعندما تأكد لهما أنهما متطابقان شرعا في العمل .

وهناك علامات أخرى كثيرة تستخدم في التعارف، فمثلاً تكتب عبارة على قطعة من الورق ، وتقطع الورقة نصفين بحيث تنفصل إحدى الكلمات، ويعطى نصف لكل شخص من الاثنين اللذين يراد أن يتقابلا ، وعند تقابلهما يضاهيان النصفين لكي يطمئن أحدهما إلى الآخر .

ويراعى في جميع الحالات اتخاذ تدابير احتياطية ، حتى إذا لم تجر المقابلة في موعدها المحدد ، تكون هناك مواعيد أخرى تحدد من قبل ، فمثلاً إذا كان موعد الاجتماع يوم الأحد ولم يتم الاجتماع ، يتم في الأحد الذي يليه أو الذي بعده وهكذا إلى أن تحدث المقابلة .

ولا تستخدم المخابرات السوفياتية البريد العادي ، وان كانت المخابرات في الأقطار الديمقراطية غالباً ما ترى أن البريد العادي أكثر الوسائل أمناً لانعدام الرقابة عليه . صحيح أن للحكومات بعض السلطـــة في فحص الخطابات ،

ولكنها لا تستخدم هذا الحق إلا قليلاً ، أي في حالة الاشتباه مثلاً ، ولا يعقل أن يختار خطاب من بين ملايين الخطابات لفحصه ، إلا إذا كانت هناك شبهة فتراقب الخطابات المرسلة إلى شخص معين أو عنوان معين .

ومن المناسبات النادرة التي تستخدم المخابرات السوفياتية فيها البريد ، أن يكون لدى المدير المقيم تعليمات بأن لا يرى رسائله إلى موسكو أحد من رجاله أو موظفيه حتى ولا كاتب الشيفرة . وفي هذه الحالة قد تصور الرسالة على فيلم مصغر ويقطع الفيلم غير المحمض إلى قطعتين أو أكثر ، وترسل كل قطعة بالبريد إلى عنوان في قطر آخر ، ومنه ترسل بالبريد إلى قطر ثالث قبل أن ترسل في النهاية إلى موسكو . وهكذا لا تكون هناك أية فائـــدة من قطعة الفيلم بغير القطع الأخرى ، وبذلك يمكن إرسال إحدى قطع الفيلم بالبريد العادي من لندن إلى بروكسل مثلاً فيتسلمها عميل فيها ويرسلها بدوره إلى ستوكهولم ومنها إلى إدارة التشيكا في موسكو ، وذلك في الوقت الذي قد تكون فيه القطعـــة الأخرى من الفيلم في طريقها من لندن إلى برلين مثلاً وهلسنكي ووارسو . وهي طريقة تبدو معقدة ، ويوحي استعمالها بأن الروس لا يثقون دائمـــاً بحقيبتهم الديبلوماسية .

وعندما يراد تجنب كل اتصال شخصي بين العملاء يجري تدبير صناديق بريد يمكن أن تترك فيها الخطابات والوثائق ليلتقطها العميل المعين لأخذها . وقد اتخذ عميل أحد الجسور ليكون مخبأ لصندوق البريد . وكشفت محاكمات الجواسيس عن وسائل عجيبة في هذه الناحية ، منها مثلاً لفـافة من الشيكولاتة تحوي أفلاماً صغيرة ، وتعطى للعميل وهو جالس في دار سينما . أو تجويف في شجرة يكون بمثابة صندوق بريد ، أو قوالب طوب غير ثابتة في جدار . وقد تبين في محاكمة شبكة أنبوم في ستوكهولم خلال عام ١٩٥٢ أن رسائل شيفرة مكتوبة على شكل فاتورة بمشتريات زوجة قد تركت في أحد محال البقـالة مع مساعد البائع وكان هو الوسيط .

وقد استخدم عملاء السوفيات في فترة ما المكتبات العامة لتبادل الرسائل

فيضعون علامات في الكتب بحسب لغة اصطلاحية متفق عليها ليقرأها العميل الآخر فيما بعد ، ولكن الظاهر أن هذه الطريقة أهملت بعد انكشاف أمرها ، وان كان من المستحيل على إدارات مكافحة الجاسوسية أن تفحص جميع الكتب التي تعد بالملايين في المكتبات العامة، ولا سيما في مدن كلندن أو نيويورك. وبرغم هذا فقد تم اكتشاف جاسوس خلال الحرب الماضية نتيجة لاندهاش أحد القراء الأذكياء من خطوط موضوعة تحت حروف وكلمات في الكتاب الذي كان يقرأه فبادر إلى إبلاغ إدارة مكافحة الجاسوسية .

وقد وصف أحد العملاء السوفيات الجاسوسية السوفياتية بقوله : « انها لا تستخدم طريقة واحدة فقط ، بل مزيجاً من جميع الطرق والوسائل ، وتقول على الدوام : لا تضع كل آمالك وأمانيك في طريقة واحدة ، وترى أن الحياة معقدة للغاية ، ولهذا يجب استخدام كل شيء ممكن ! »

وقد توافرت لنا من فحص سجلات عملاء المخابرات السرية أدلة عن الوسائل والتدابير الفنية التي يستخدمونها ، فهم يتوسلون بأساليب الاغراء والرشوة بل والسرقة والتشهير والتهديد واستراق السمع والتسلل .

وهكذا نجد أن المخابرات السوفياتية تستخدم بعض مبادىء أساسية في فن الاتصالات بين العملاء ، ولكنها تستعمل أيضاً وسائل عديدة متنوعة يبدو بعضها معقداً إلى حد لا مبرر له ، والبعض الآخر قديماً عفى عليه الزمن حتى في قصص الجاسوسية الخرافية . ولكن هذه الوسائل تستخدم لأنها تنتهي بالنجاح، والمعروف ان عدد الحالات التي اكتشف فيها العملاء السوفيات متلبسين ، قليل إذا قورن بعدد الحالات التي عرفت فقط عقب نجاح عملية شبكة الجاسوسية بسنوات .

ويخطيء من يظن ان وسائل المخابرات السوفياتية معقدة ومتعددة إلى حد يرهق العملاء بحيث تصبح لا جدوى منها ، فقد ثبت أنه حتى الحوادث ذات الضرر البالغ للشبكات السوفياتية فان الأثر كان محدوداً والسبب الرئيسي في هذا راجع إلى هذه الوسائل .

ولم يتمكن الذين اعتقلوا أو تحولوا عن مبادئهم من ان يقدموا إلا معلومات محدودة عن المخابرات السوفياتية ، وذلك بفضل النظـــام المتسع النطاق الذي تستخدمه هذه المخابرات ، فلم يستطع فوخس مثلاً التعرف على الرسول الذي قابله مرات في الولايات المتحدة،كما لم يتمكن من تقديم أي دليل يثبت شخصيته، ولم يستطع أيضاً أن يتعرف على الرسول الذي قابله في انكلترا بعد عودته من الولايات المتحدة .

وكان لاستخدام الأسماء المستعارة في الشبكة السوفياتية التي اكتشفت في كندا أثر كبير في تأخير معرفة الأشخاص فترة طويلة تمكن بعضهم بفضلها من الفرار .

وقد اكتشف بوليس مونتريال من قبيل الصدفة البحتة في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٣ أي بعد مضي ثماني سنوات على افتضاح حلقات جواسيس الذرة في كندا والولايات المتحدة ، شبكة أخرى تواصل نشاطها في كندا بهدوء ودون أن يعكر صفوها أحد . ففي ٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٣ عثر على شخص يوناني يدعى كونستانتين ستاثا بولوس وهو في الستين من العمر عاش في كندا منذ عام ١٩٢٧ ، ميتاً في منزله في مونتريال . وكانت وفاته بعد مرض طويل ولم تثر أي شك ، ولكن اكتشف في مخبأ سري في داره بعض صناديق من الصلب تحوي مئات الوثائق وصفها المستر لويس شامباني رئيس قسم مكافحة النشاط الهدام في إدارة البوليس الكندي بأنها « أهم مجموعة من وثائق الجاسوسية التي وجدت في مونتريال » . وعثر على مفكرات تحوي إشارات لبعض أشخاص اشتركوا في حلقة التجسس في كندا ، وورد أيضاً اسم فوخس وكانت جميع السجلات والمذكرات تقريباً مكتوبة بالشيفرة الموضوعة على أساس اللغـــة اليونانية ، ولم يتمكن خبراء الشيفرة من حل رموزها جميعاً ، ولكن تبين من المعلومات التي أمكنهم تجميعها ان ستاثابولوس كان يحتفظ بجزء من ملفـــات شبكة الجاسوسية السوفياتية ، واكتشفت السلطات بعد ذلك أن الرجل الميت كان مشتركاً في أعمال تجسس باسمين مستعارين وهما كوستا بولوس ، وكوستا ،

وأن البوليس كان يطارده منذ ثلاث سنوات .

والمعروف أن الوسائل التي جعلت كثيرين من العملاء السوفيات بعيدين عن بعضهم البعض ومنفصلين إلى حد بالغ ، وضعت هيئات مكافحة الجاسوسية في الدول الغربية أمام عدة ألغاز لم تتمكن من حلها ، والظاهر أنها مستعصية على الحل ، ولنذكر هنا مثلاً واحداً من هذه الألغاز .

ففي شهر حزيران (يونيه) سنة ١٩٥٣ اعتقل رجال القسم الخاص في اسكتلاند يارد شخصاً نزل في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٢ في دار بمنطقة بمليكو في لندن ، وأبلغ مديرة الدار أن اسمه الدكتور جوفري نوبل ، وانه في الرابعة والثلاثين من عمره ويشتغل بالبحوث ، ولم يستقبل زائرين في الدار وكان مستأجراً هادىء الطباع دمث الأخلاق .

وبعد وصوله إلى الدار بثمانية أشهر أو نحوها زار البوليس السري الدار للسؤال عن شخص يدعى كولين وارد ، وتبين لهم من الأوصاف التي ذكرت لهم أن الدكتور نوبل هو الشخص المطلوب ، فاقتادوه إلى مركز البوليس في شارع جيرالد بوستمنستر ، ولكن لم تكد تنقضي اثنتا عشرة ساعة حتى وجد مشنوقاً في سجنه .

وكان اعتقاله نتيجة لمعلومات وردت من الخارج إلى سكوتلاند يارد وقسم مكافحة المخابرات، بأن عميلاً سوفياتياً كبيراً دخل بريطانيا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٢ ، وبعد بحث استمر ثمانية أشهر عثروا على الدكتور نوبل ووجدوا أن الأوصاف التي وردت إليهم تنطبق عليه ووجدوا في غرفته أربعة جوازات سفر بريطانية ، وكانت جميعها جوازات صحيحة ، وكلها تحمل صور الرجل ذاته ، ولكن إحدى الصور كانت تظهره بنظارة ، وكان في أخرى أصلع تقريباً ، بينما كان في صورة ثالثة كث الشعر. وقد أصدرت هذه الجوازات سلطات بريطانية مختلفة باسم الدكتور نوبل ، ووارد ، وموريس . وقد رفض الرجل عند اعتقاله أن يدلي بأي أقوال ، وقد انتحر قبل التحقيق معه ، ولم تعرف شخصيته ، وكان يتحدث الانكليزية بلهجة لا تشوبها أية لكنة أجنبية ،

ولهذا حار رجال سكوتلاند يارد ولم يعرفوا هل كان الرجل حقيقة من أهل بريطانيا ، وكان نشاطه خلال الثمانية الأشهر التي قضاها في بريطانيا محفوفاً بالغموض التام .

ومن مميزات المخابرات السرية السوفياتية خلال العمل ، السخاء في الانفاق ، فهي لا تحسب حساباً للمال، كما يحدث في المخابرات السرية في الأقطار الديمقراطية التي تراعي الدقة والاقتصاد في الانفاق . ويحدث في بريطانيا مثلاً أن يجري اقتراع في مجلس العموم في كل عام بشأن اعتمادات المخابرات السرية البريطانية ، ومن التقاليد المرعية في هذه الناحية أن تتم الموافقة على ميزانيتها بغير الدخول في مناقشات طويلة في التفاصيل ، ولكن المؤكد أن النواب يبادرون إلى توجيه الأسئلة والاستجوابات إذا وجدوا أن هذه الاعتمادات كبيرة . والأهم من هذا أن النظام الدقيق المستخدم في الاشراف على نفقـــات المصالح الحكومية في بريطانيا وأميركا يجعل من المستحيل إخفاء المبالغ الكبيرة التي تنفق على المخابرات السرية . ولكن الأمر يختلف عن ذلـــك في الاتحاد السوفياتي حيث ظلت المخابرات السرية ثلاث حقبات من الزمن بعيدة عن أي ضغط من الناحيـــة الاقتصادية ، فكانت تنفق بسخاء ، ناهيك بالملايين العديدة التي تحتاج إليها لدفع مرتبات عملائها .

ولقد رأينا في محاكمات الخونة والجواسيس الذين اكتشف أمرهم أن المحامين الذين تولوا الدفاع عنهم عمدوا تخفيفاً لوزرهم إلى القول « بأنهم لم يأتوا هـــذه الأعمال طمعاً في المال » وقد رأينا أيضاً ان الحاكم والرأي العام يقبل هـــذا الدفاع ويأخذ به . وربما صح في معظم الحالات أن المال لم يكن الدافع الأصلي أو حتى الرئيسي للخيانة ، ولكن إذا ألقينا نظرة على الأرقام رأينا أن المبالغ التي تدفعها التشيكا في هذه الناحية ، كبيرة إلى حد لا يمكن معه أن تهمل أو يغض النظر عنها ، وان كانت في الواقع مبالغ ضئيلة إذا قيست بالأسرار التي تشترى بها ، وليس هناك أي دليل حاسم على أن المبالغ التي اكتشف أمرها هي الوحيدة التي دفعت .

ومن القواعد الأساسية في المخابرات السوفياتية أن العملاء عندما يتعاملون مع أحد الهواة يعمدون إلى حمله على قبول المال في أقرب فرصة ، ولعل خير وصف للحكمة من هـذه القاعدة ما قاله بيكوف في سخرية لاذعة وهو :

« ان من يدفع يكون الرئيس، ومن يأخذ المال يجب أن يقدم شيئاً مقابله». والظاهر أن الأسلوب المألوف في هذه الناحية هو الامتناع عن طلب ايصال في المناسبة الأولى ، وإنما يتم الحصول عليه في فرصة أخرى ، وليس الغرض من هذا الايصال أن يكون لتسوية الحسابات بقدر ما هو مطلوب ليكون سلاحاً للتشهير إذا أحجم الشخص عن تأدية عمل ما . ولكن بعض الذين يقدمون المعلومات يفعلون ذلك بدافع من المبدأ ، أو هـذا ما يوحى به إليهم ، ولهذا يجدون في عرض المبالغ عليهم إهانة لهم . على أن الروس يعمدون في حالات كهذه إلى تقديم هدايا بدلاً من المال ، وقد ظهر في إحدى المحاكمات أن شخصاً من هؤلاء تلقى سجادة اشتريت له بألف دولار .

ويزود العملاء بأموال تكون بطبيعة الحال نقداً – لكي يقدموها لمن يزودهم بالمعلومات ، ولا يطلب منهم إثبات عن طريقة إنفاقها أكثر مما يذكرونه في تقاريرهم ، وقد يتبادر إلى الذهن بان هذه الطريقة قد تغري العميل على الاثراء ، ولكني لم أجد دليلاً يوحي بحدوث هذا . وربما كانت الحوادث من هذا القبيل نادرة ، فان العميل السوفياتي الذي يثري من هذا السبيل لن يتمكن من إنفاق هذه الأموال أو هو يخشى إنفاقها لأنه يعرف أنه مراقب أيضاً من زملائه الروس ، وان ظهور أية بادرة على الثراء ستثير الشك ، وهو لا يستطيع أيضاً أن يعود بهذه الأموال إلى الاتحاد السوفياتي . وربما يكون السبب في انعدام روح الاغراء من العملاء هو التدريب الذي يحصلون عليه ، والسخاء في الأجور التي تدفع لهم ، ويقينهم بأن أغلب مواطنيهم يحسدونهم على مراكزهم ، واني أعتقد أيضاً أن أكثر العملاء السوفيات مخلصون ومؤمنون بأنهم يؤدون عملاً مشرفاً لوطنهم وللشيوعية .

وهناك مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وهي العلاقة بين الديبلوماسيين

السوفيات ولا سيا السفير ، وبين المبعوثين الموفدين في الأصل للتجسس . فقد رأينا مثلاً في قضية هرب جوزنكو من السفارة السوفياتية في كندا والتجائه إلى السلطات الكندية وما تبع ذلك من تحقيق بواسطة لجنة ملكية كندية ، رأينا أن هذه اللجنة برأت السفير السوفياتي من القيام بأي « نشاط غير مسموح به » ، وهذا هو الوصف الذي كان يطلق على أعمال الجاسوسية السوفياتية خلال الأيام التي كانت فيها العلاقات مع روسيا على خير وفاق ووئام . ولكن الشخص العادي ربما لا يصدق أن شخصاً وافر الذكاء كالسفير السوفياتي يمكن أن يكون غافلاً عن وجود غرفة ذات أبواب من الفولاذ في سفارته غير مسموح له بدخولها .

ولكن المؤكد أن موسكو تمنع رؤساء بعثاتها الديبلوماسية من القيام بدور مباشر في الجاسوسية أو هيئاتها ، وقد بعث زابوتين رئيس شبكة الجاسوسية السوفياتية في كندا في أيام قضية جوزنكو برقية إلى موسكو هذا نصها :

« إلى المدير – لقد وجّه إليّ اللوم بسبب مادة معينة قيل انها وصلت إلى علم المترو (السفارة السوفياتية) ، فأرجو إفادتي ما هي هذه المادة ، وقد أبلغت رئيس المترو (السفير) مسائل سياسية واقتصادية وعسكرية وفقاً للتعليمات التي زودني بها كبير المديرين والرفيق مالينكوف ، ولم أبلغ عن مصادر هذه المعلومات ، فأرجو إفادتي بالتعليمات التي أتبعها في المستقبل ، هل أبلغ السفير المسائل الخاصة بكندا التي ترد من المصادر ؟ يخيل إليّ أن من الواجب أن يكون السفير خير من يعلم » .

وفيما يلي رد موسكو :

« تضمنت البرقية رقم ٨٢٦٧ بتاريخ ٢٠ حزيران (يونيه) تعليمات تقضي بحظر الكشف عن شبكة عملائنا للسفير . وقد كان تقرير ويلفرس بتاريخ ١١–٣–١٩٤٤ الذي سلمته للسفير بشأن القروض المالية التي تضمن التجارة بين الاتحاد السوفياتي وبريطانيا بعد الحرب ، وتسليمك له بالشكل الذي تلقيته به ، عاملاً أدى إلى الكشف عن وجود مصدرنا ، كما أن مترجم السفارة علم بهذه

الوثيقة وكأنها مكتوبة باللغة المحلية .

٢ – يتعين عليك فيما يتعلق بالمسائل السياسية والاقتصادية العاجلة الخاصة بالعلاقات المتبادلة بين كندا وبريطانيا وبين الاتحاد السوفياتي أن تبلغها للسفارة، على أن تكتفي بالاشارة إلى أنها مستقاة من مصدر موثوق به دون أن تكشف المصدر نفسه أو الجهة التي حصلت منها على المعلومات .

٣ – يجب تسليم المعلومات بعد إعدادها للتسليم على أن تحذف جميع الرسائل التي قد تكشف عن المصدر السري .

٤ – يتحتم عليك في جميع المسائل التي تبلغها للسفير أن تلفت نظري إليها في التعليقات الخاصة بتقارير معلوماتك .

ومن الواضح أن سياسة موسكو في الحرص على بقاء السفير « نظيفاً » ليست قائمة على أساس مراعـاة المواثيق والاتفاقات الديبلوماسية ، وإنما بسبب ما يتعرض له أمن وسلامة شبكات الجاسوسية من خطر . وقد اشتد تأكيد هـذا خلال السنوات الماضية في التعليمات التي بعثت بها إدارات التشيكا إلى المديرين المقيمين وكبار العملاء ، ومع أن كثيرين من عملاء التشيكا يقيمون في دور السفارات ، إلا أنهم ليس لهم أية معاملات رسمية مع الديبلوماسيين الحقيقيين .

وظهر أنه لم يكن بين العملاء الذين وردت أسماؤهم في قوائم السفارة الكندية ولهم رتب عسكرية أكثر من واحد أو اثنين من ضباط الجيش الأحمر فان هذه الرتب كانت لوحدات « النكفد » وتبين درجاتهم في التشيكا ، فحارس الباب وسائق السيارة يكونان برتبة كابتن ، ومن هذا يتبين أنه قد يكون بين موظفي السفير ديبلوماسيون وملحقون عسكريون قد لا يعرف أسماءهم الحقيقية ولا يعلم شيئاً عن عملهم .

وليس للسفير أن يحل رموز أي رسالة مكتوبة بالشيفرة سواء كانت الرسائل الواردة أو المرسلة والمتبادلة بين رجال التشيكا ومقر المخابرات السريـة في موسكو . ومما أمكنني التأكد منه أن الديبلوماسيين السوفيات في الخارج استعملوا خلال عام ١٩٥٤ خمس طرق شيفرة مختلفة ، لكل منها بطبيعة الحال

أساليب عديدة ، وقد ابتكرت كل من هذه الطرق على حدة ليستخدمها :

عملاء الادارة الأولى لوزارة الداخلية .

عملاء الادارة الثانية لوزارة الداخلية .

عملاء المخابرات العسكرية لوزارة الدفاع .

عملاء وزارة الخارجية .

عملاء وزارة التجارة الخارجية (الذين يعملون في البعثات التجارية السوفياتية ان لم يكونوا من أعضاء الفئتين الأولى والثانية) .

الفصل العاشر

حلقات التجسس الذرية

كشفت محاكات الدكتور نون ماي وكلاوس فوخس ، وجوليوس ، واثيل روزنبرغ عن الوسيلة التي لجأ إليها عملاء السوفيات لسرقة أسرار القنبلة الذرية ، وهي الأسرار التي بذل قصارى الجهد في الحرص عليها وصيانتها ، ولقد قتلت القصة بحثاً وتفصيلاً حتى لا نجدنا بحاجة إلى الاسهاب في ذكر وقائعها في هذا المقام .

على أنه مما يجدر بنا ذكره أنه حين نشبت الحرب في سنة ١٩٣٩ لم تكن امكانيات تفتيت الذرة ، والانتفاع بهـا في الحروب ، وجعلها من أسلحتها ، سراً من الأسرار ، ذلك أن علماء الطبيعة كانوا قد تناولوا الموضوع بنقاش مستفيض أكثر من عشر سنوات ، وكان من مستشاري حكام الكرملين بعض نوابغ العلماء ، منهم الأستاذ بيتر كابتزا الذي عمل سنوات طويلة تحت رئاسة اللورد روثر فورد في معمل كافندش بكمبردج ، وكان قد ذهب في زيارة لروسيا سنة ١٩٣٥ ولم يعد ، ولم يكن ستالين ولا شك أقل إدراكاً لتلك الامكانيات من قادة الغرب الحربيين .

ولعل الذي قرر سياسة السوفيات في صنع الأسلحة الذرية عاملان ، أولهما

استناد المصادر الفنية والصناعية التي يملكها الاتحاد السوفياتي – وخاصة بعد نجاح الغزو الألماني ، في الدفاع عن البـــلاد ، وعدم كفايتها في وضع برنامج للأبحاث يكفل تحويل امكانيات تقسيم الذرة إلى سلاح فعلي، وكان صنع القنبلة الذرية وقتئذ عملاً من أعمال المقـــامرة ، فان بريطانيا نفسها مع ما لديها من مصادر فنية أكبر بكثير مما لدى الاتحاد السوفياتي ، لم تتخذ قراراً لصنع هذه القنبلة إلا في سنة ١٩٤١ ، وكان الشك يساورها في النجاح .

والعامل الثاني أن القنبلة الذرية ، حتى لو نجحت الجهـود في صنعها ، ربما جاءت متأخرة جداً فلا تلعب دوراً فاصلاً في الحرب ، والواقع أنها جـــاءت متأخرة جداً فلم تستخدم ضد ألمـــانيا ، ذلك أن ألمانيا كانت قد خرّت على ركبتيها قبل تجربة القنبلة الأولى ، إلا أنه كان من الواضح أن القنبلة الذرية ربما تكون فاصلة في « الفوز بالسلام » ، فلم تكن الحرب ضد ألمانيا من وجهة النظر الشيوعية ، إلا فصلاً من فصول الحرب ضد الرأسمالية ، وكان « الفوز بالسلام » مع سائر العالم هدفاً لا يقل شأناً عن الفوز في المعركة الفعلية ضد ألمانيا ، ومـا كان ستالين ليفوته أن الأسلحة الذرية حتى لو لم تستعمل أبداً ، ستلعب دوراً فاصلاً في السنوات التي تلي الحرب مباشرة .

وما كان الاتحاد السوفياتي في حاجة إلى أسرار القنبلة الذريـة ليفوز في الحرب على ألمانيا أو اليابان ، فانه لو زود بكل ما توفر لدى القائمين بالأبحاث في الدول الحليفة من معلومات ، لما استطاع أن يصنع الأسلحة الذرية قبل أن تضع الحرب أوزارها ، أما الجاسوسية العسكرية الدقيقة التي فرضها الاتحاد السوفياتي على حلفائه فقد كان هدفها تقوية مركزه في السنوات التي تلي هزيمـة ألمانيا واليابان مباشرة وذلك بصنع الأسلحة الذرية ، وتحطيم مقاومة أولئك الذين يقاومونه، وكان حلفاء الاتحاد السوفياتي يعتبرون أنه لا جدوى من تزويد الاتحاد السوفياتي بمعلومات لن يتسنى له استعمالها خلال الحرب ، في حـين أن هذه المعلومات لو « تسرّبت » إلى ألمانيا أو اليابان لكان في ذلك القضاء على « الحلف العظيم » . ولم يشهر الاتحاد السوفياتي الحرب على اليابان إلا في ٨ آب

(أغسطس) سنة ١٩٤٥ أي قبل نهـــاية الحرب ببضعة أيام ، وقد بقي الديبلوماسيون والجواسيس اليابانيون في الاتحاد السوفياتي طيلة أيام الحرب مع ألمانيا .

وتقوم أهداف الادارة السرية السوفياتية على المذهب الشيوعي الذي مفاده ان كل الدول الرأسمالية « أعداء » – سواء أكان الاتحاد السوفياتي ، في ذلـك الوقت ، حليفاً لدولة أو أكثر من هذه الدول لغرض خاص أم لم يكن . ولقد ظلت الدول الغربية في نظر الاتحاد السوفياتي « أعداء » وفقاً لهذا المبدأ ، حتى خلال تحالفه في الحرب العالمية مع انكلترا والولايات المتحدة الأميركية ، ولم تقتصر مهام الادارة السرية السوفياتية على الأبحاث الذرية بل شملت إنتـــاج الأسلحة الذرية ، فالمستندات التي سلمها جوزنكو تدل على أن موسكو لم تكن مهتمة فحسب « بكيف » تصنع القنبلة الذرية بل « بعدد » ما صنع من هـــذه القنابل . ولم يكن الغرض مجرد سرقة أسرار فنية بغية الاقتصاد في البحث ، بل كان القصد الوقوف على الانتاج المحتمل من هذه القنابل لتقدير «قوة الغرب» بعد هزيمة ألمانيا ، ومن ثم تلقى زابوتين من موسكو ، بعد استسلام ألمانيا بعشرة أسابيع ، برقية يأمره فيها رؤساؤه بما يأتي :

« حاول أن تحصل منه (أي من نون ماي) قبل رحيلك على معلومـات مفصلة عن مدى التقدم في الأعمال التي تجري على اليورانيوم ... » ، واستطاع زابوتين بعد عشرة أيام أن يرسل الرد التالي : « إلى المديرين : لقد زودنا ألك بالحقائق» ، وكانت المعلومات تتضمن نسبة إنتاج يورانيوم ٢٣٥ في مصنع كلنتون (٤٠٠ غرام تقريباً) ولعل علماء السوفيات لم يجدوا صعوبة بعد ذلك في تقدير عدد القنابل الذرية التي يمكن إنتاجها ، وكان في حيازة روسيا فعلاً « أسرار » القنبلة الذرية بفضل تعاون فوخس وغرينغلاس وآل روزنبرغ .

أما متى علمت الادارة السرية السوفياتيـــة ببرنامج الغرب الذري فأمر يستحيل علينا تحديد موعده بالضبط ، على أن ذلك لم يكن بعد سنة ١٩٤٣ ، وكان من التهم التي اعترف بها فوخس أنه « قدم معلومات خلال سنة ١٩٤٣ في

مدينة برمنغهام » ، فمن المحقق إذن أن الادارة السرية السوفياتيــة عرفت في ذلك العام ما لم يعرفه العالم بأسره ، بما في ذلك ألمانيا ، إلا في آب (اغسطس) سنة ١٩٤٥ – وهو أن بريطانيا كانت قد قررت وضع برنامج كبير للأبحـاث الذرية ، ولعل تاريخ قرارها كان قبل ذلك، فقد حدث في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٣ ان طلبت لجنة المشتريات السوفياتية في الولايات المتحدة من إدارة الاعارة والتأجير بضع شحنات من اليورانيوم ومركبات اليورانيوم ، وكان اليورانيوم يستعمل منذ أمد بعيد فيصناعة الفخار الملون وفي التصوير ويستخدم كعامل مذيب ، على أن المقادير الكبيرة التي كان يطلبها الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت ، مقرونة بطلبه الماء الثقيل ، كان مدعاة لإثارة الشك،وقد درست اللجنة الأميركية المشتركة في شؤون الطاقة الذرية الأمر دراسة وافية بعــد ذلك ، فاتضح لها أنه قد شحنت شحنتان إلى الاتحاد السوفياتي في سنتي ١٩٤٣ – ١٩٤٤ مجموعهما ١٤٢٠ رطلاً من أملاح اليورانيوم ، وشحنة قوامها ٢ر٢رطلاً من معدن اليورانيوم ، علاوة على ١١٠٠ غرام من الماء الثقيل ، وكانت كل هذه الشحنات قانونية ، وافقت عليها الجهات المختصة ، ويبدو أن وجهـــة النظر الرسمية كانت تتلخص في أن أميركا لو رفضت فجـأة السماح بهذه الشحنات جميعاً لأثارت اهتمام روسيا بها ولكان ذلك أشد خطراً على الأمن من تزويـد الروس بها ، والواقع أن بعض طلبات لجنة المشتريات السوفياتية رفضت، بحجة « عدم توافرها » إلا ان اللجنة احتجت في نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٣ عندما تبينت أن المواد التي طلبتها موجودة في الولايات المتحدة الأميركية ، وكان الروس يزعمون أن منتجات اليورانيوم تستعمل في السبائك ، ولكننا نتساءل: ألم يكن ثمة تساهل من جانب السلطات وهي تؤمن إيماناً راسخاً بأن البرنامج الذري كان سراً في سنة ١٩٤٢ ؟

وأنشأت الحكومة السوفياتية « قسماً ذرياً » ، وجندت له عدداً من علماء السوفيات الحاصلين على درجات التخصص اللازمة ، وعهد إليهم بوضع الأسئلة الفنية التي يمكن أن يجيب عنها علماء السوفيات في بريطانيا وأميركا – وتقدير

قيمة المعلومات التي يتلقونها منهم ، وكان من هؤلاء العلماء الأساتذة كابتزا ، واليخانوف ، والين ، وكرشاييف ، ولبيريف – وكان جهاز « التشيكا » وبيريا في شغل شاغل بأعمال المخابرات الحربية وهما يديران عدداً كبيراً من المراكز في ألمانيا واليابان والدول المحايدة . وعهد إلى أندريه ألكساندروفيتش جدانوف بالرئاسة العليا للجاسوسية الذرية ، وكان جدانوف قد أصبح منذ وفاة كيروف في سنة ١٩٣٤ في ظروف غامضة ، أصدق أصدقاء ستالين وموضع أسراره ، وكان قد درس العلوم الطبيعية ، ويدرك تمام الادراك مدى الأهمية الاستراتيجية للأسلحة الذرية ،ذلك أنه كان من قواد الجيش الأحمر وعضواً في مجلس السوفيات الحربي الأعلى في زمن الحرب ، ولا شك أن بيريا كان يغار من جدانوف بسبب تقريب ستالين له ، وبسبب هذه المهمة الذرية التي عهد بها إليه ، توفي جدانوف فجأة في ٣٠ آب (أغسطس) سنـــة ١٩٤٨ وعمره ٥٢ سنة بسبب هبوط في القلب – وقد أضحى مرضاً مزمناً في الكرملين – ولم تعلل وفاته تعليلاً مقنعاً، إلا أنها كانت مفتاح رقي مالينكوف .

وقد أنعم عليه ستالين بأرفع الأوسمة لنجاحه في إدارة جهاز الجاسوسية الذرية ، ونعاه الأستاذ فافيلوف ، وكان وقتئذ رئيساً لمجمع العلوم ، في عـدد أول أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٨ من جريدة برافدا ، وأشاد بعظم ما أداه جدانوف من التعليمات والنصائح إلى العلماء ومعاهد العلم فيما يتعلق بالجوهر وتنظيم العلوم في سبيل الدفاع عن البلاد .

وقد أحيلت أعمال الجاسوسية إلى القسم الذري في الشبكات التي كانت موجودة فعلاً ، وقد وسع نطاقها لهذا الغرض ، وكانت الجهود التي تبذل في كسب عملاء في منظمات الحكومة والجيش والبحرية والسلاح الجوي لا يعرفون شيئاً عن القنبلة الذرية ، تعدل الجهود التي تبذل في المعامل لاستمالة العلماء. وكان القسم الذري يتعاون مع جميع أقسام المخابرات السوفياتية ، وحتى في الوقت الذي كان نون ماي (ألك) ينقل المعلومات الذرية النادرة ، كانوا يلحون عليه في الادلاء بمعلوماته عن « التفجير القريب من الهدف » وهو أمر لم يكن له بـه

معرفة أو لديه عنه معلومات موثوق بها .

ويشير كثير من الوثائق الصادرة من السفارة السوفياتية في كندا إلى ان اهتمام الادارة السرية السوفياتية لم يكن منصباً على الأسلحة الذرية وحدها ، فمثلاً جاء في تقرير عن اجتماع لجماعـــة لونان ما يأتي : « يطلب بادو الاذن في الانتقال للاشتغال باليورانيوم » ، إلا أن موتينوف ، مساعد زابوتين ، قرر فيما يتعلق بهذا « الطلب » : « ألا يوصى بنقل بادو إلى إنتاج اليورانيوم ، بل بتوسيع نطاق أعمال البحث » . فمن الواضح إذن ان الجاسوسية الذرية لم تعط الأولوية المطلقة ، وقد نجح روزنبرغ في الولايات المتحدة في الخروج بجهاز ألكتروني هام من أحد المصانع بأن أخفاه في صندوق غدائه وسلمه إلى واسطة من رجـــال الادارة السريـــة السوفياتية ، ولم يكن مورتن سوبل — الذي حوكم مع آل روزنبرغ وحكم عليه بالسجن مدة طويلة — مختصاً بالأسلحة الذرية بل « بالتفجير القريب من الهدف » وبالرادار .

وعندما نقل اختراع السلاح الذري عبر المحيط الاطلنطي ، بدأت موسكو في إدخال تغييرات هامة على الادارة السرية السوفياتية تواصل أعمالها بنجاح في كندا والولايات المتحدة منذ عشرين عاماً ، وكان جاكوب جوليوس في الولايات المتحدة نشيطاً على وجه خاص وناجحاً في أعماله مدة عشر سنوات على الأقل ، وقد تبين للجنة التحقيق الملكية في كندا « ان من أنشط الأشخاص في هـــذه المنظمة اثنين هما فريد روز ، المولود في لوبلين من أعمال بولندا ، وسام كار ، واسمه عند المولد سام كوجان أو كوهين ، وقد ولد في تماشبول من أعمـــال أوكرانيا » . وقد امتد نشاطهما سنوات عديدة .

وأوفد الماجور سوكولوف من موسكو إلى كندا في سنة ١٩٤٢ ، وكان يتلقى الأوامر « موليبه » ، وقد عرف فيما بعد بأنه ميخائيلوف الموظف بالقنصلية السوفياتية في نيويورك ، والذي كان يزور كندا مدعياً أنه يبحث برنامج المعونة الكندية المتبادلة للاتحاد السوفياتي . وأرسلت موسكو سيرجي كودريفتزيف بوصفه مديراً للجاسوسية الحربية متخفياً في منصب السكرتير الأول للمفوضية

التي أصبحت سفارة فيا بعد ، وظل سوكولوف يتلقى أوامره منه حتى أرسلت موسكو في حزيران (يونيه) سنة ١٩٤٣ الكولونيل زابوتين لتوسيع نطاق المنظمة ، ويلوح أنه كان يعلم أن كندا ستلعب دوراً هاماً في البرنامج الذري .

وكان زابوتين من الشخصيات البارزة في الاجتماعات الديبلوماسية ، وقد اشتهر بحفلاته التي يقدم فيها الفودكا والكافيار ، وكانت هذه الاجتماعات تهدف إلى غرضين : أولهما « التعمية » ، وثانيهما تهيئة الفرص للتعرف بعملاء جدد . إلا أنه كان يستعين في أهم أعماله بالعميلين القديمين فريد روز وسام كار ، وقد أوصى روز على «لونان» الذي كان يحرر بمجلة «الشؤون الكندية» الحربية . وقد نظم روجوف مساعد زابوتين خلية من العلماء بواسطة لونان ، وهكذا اتسع نطاق الشبكة بسرعة . وقد كتب زابوتين في مذكراته أنه بفضل روز«روث» الأستاذ ريموند بوابيه الكيماوي الفرنسي المشهور الذي كان يعمل في جامعة ماكجيل ، وهو ثقة من الثقاة في المفرقعات وقد اخترع طريقة جديدة لصنع المادة المتفجرة « RDX » .

ثم ان ألان نون ماي لم يكن عضواً في الشبكة الكندية ، وإنما كان يتصل به أنجيلوف ، مساعد زابوتين ، عملاً بأوامر من موسكو ، وقد ذكرت اللجنة الملكية في تقريرها أن الاتصال بنون ماي حدث بعد وصوله إلى كندا بمدة وجيزة . وتشير الوثائق إلى أنه بالرغم من وصول نون ماي إلى كندا في سنة ١٩٤٣ فانهم لم يبدأوا في استخدامه إلا في باكورة سنة ١٩٤٥ . وكانت الادارة السرية السوفياتية حتى في ذلك الوقت تعلم الكثير عن الأبحاث الذرية وصنع القنبلة الذرية . وقد كشف أنجيلوف عن هذا بطريقة غير مباشرة بالأسئلة الفنية التي كان يسألها لنون ماي ، وقال الدكتور نون ماي في اعترافه « لقد كان يطلب مني بصفة خاصة معلومات كانت تبدو لي هراء – أي أنه كان من الصعب علي أن أفهمها » . ومعنى هذا أن العلماء السوفيات في ذلك العهد كانوا يعرفون أكثر مما يعرف أحد من علماء الطبيعة البريطانيين البارزين المشتركين في البرنامج ! وقد عولج هذا النقص بذهاب الدكتور نون ماي إلى أحد المراكز في

الولايات المتحدة حيث كان العمل يجري في سرية عظيمة ، ولا شك أن اقتراح زيارة هذا المركز كان مصدره أنجيلوف .

وكانت الجهود التي تبـــذل في التجسس الذري في كندا والولايات المتحدة مستقلة بعضها عن بعض ، إلا أن التحقيقات التي جرت منذ الحرب قد دلت على وجود اتصالات قوية بين الهيئتين ، ولو أن اتصالاً من هذه الاتصالات قد اقتفي أثره لكشف عن طريق يؤدي من إحدى الشبكتين إلى الأخرى . وكما أنه كان في كندا شبكات لا صلة لها بزابوتين لم يكشف أمرها أبداً وربما كانت لها علاقة بالمعلومات الذرية ، فكذلك الشبكة التي كانت في الولايات المتحدة والتي كان يديرها ياكوفليف وتضم غولد وروزنبرغ وغرينغلاس وفوخس لم تكن على وجه التحقيق الشبكة الوحيدة ، فان من كشف أمرهم من الرجال والنساء وحوكموا لم يكونوا هم وحدهم المتصلين بياكوفليف ، وربما كان يعمل مع عملاء آخرين غير غولد الذي لم يكن يعرف عنهم شيئاً بطبيعة الحال .

وقد حدث خلال الحرب أن رجلاً يقال له ألكساندروفيتش آدمز ، قـد اكتشف أنه يعمل بنشاط في أعمال التجسس لحساب معلومات تتصل بالتقسيم النووي ، وكان آدمز قد دخل الولايات المتحدة في فترات من سنة ١٩٢٠ وما بعدها مستتراً بشتى الصفات متذرعاً بأعمال تجارية خاصة بالاتحاد السوفياتي . وعندما فتش عملاء الحكومة غرفته سراً سنة ١٩٤٤ وجدوا في حيازته معلومات سرية جداً تتعلق بصنع القنبلة الذرية في أوك ريدج وكذلك معلومـات عن تقدم أبحاث الطاقة الذرية في البلاد الأخرى . وأحس آدمز في مستهل سنة ١٩٤٥ أن السلطات تقتفي أثره ، فحـــاول الهرب على ظهر سفينة سوفياتية كانت راسية في بورتلاند من أعمال أريغون ، إلا أن رجال المباحث الجنائيـة فوّتوا عليه غرضه . ولكنه لم يحاكم لأسباب لم يذكرها تقرير اللجنة الملكية ، وما لبث أن ذهب إلى نيويورك حيث اختفى . وقد رجحت اللجنة أن يكون المطاف قد انتهى به إلى الاتحاد السوفياتي .

ومما يجدر ذكره عن آدمز أنه شوهد في ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) سنة

١٩٤٥ بركب سيارة مسجلة باسم بافيل ميخايلوف نائب قنصل السوفيات في نيويورك ، قادته إلى القنصلية السوفياتية ، وكان ميخايلوف ، كما مرّ بنا ، هو الذي زار الولايات المتحدة لتأليف حلقة التجسس التي أدارها زابوتين فيما بعد ، ويجب أن تعد الادارة السرية السوفياتية نفسها سعيدة لأن إدارة المخابرات في الولايات المتحدة لم تخبر زميلتها في كندا أن هذا الرجل ميخايلوف الذي زار كندا لأعمال تتعلق ببرنامج المعونة المشتركة كان على صلة وثيقة بجاسوس سوفياتي توصل إلى الأسرار الذرية !

وكان ياكوفليف نفسه عرضة للاشتباه بسبب ضيق أفق تلك المنظمة التي وضعت سيرة حياته . ذلك أن الجاسوس الذي يوفـــد إلى الخارج متنكراً في زي ديبلوماسي أو ممثل سياسي ، توضع له سيرة حياة وهمية تكفي للرد على أي استعلام قد يرد من الدولة التي هو موفد إليها . وقد حدث في حالة أناتولي ياكوفليف عند تعيينه نائباً لقنصل السوفيات في نيويورك أن طلبت وزارة الخارجية الأميركية معلومات عنه فأجابتها قوميسرية الشؤون الخارجيـــة السوفياتية بأن ياكوفليف ولد سنة ١٩١١ في بوريوجليبسك بمقاطعة فورينيش وأنه كان قبل التعيين « طالب هندسة بالمعهد الاقتصادي بموسكو من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤١. أما وظيفته الحالية فكاتب ». ولقد كان من حسن حظ الادارة السرية السوفياتية أن أولئك المعنيين بفحص وثائق الأخطار هذه في الولايات المتحدة لم يتملكهم العجب من أن رجلا في سن الخامسة والعشرين يبدأ دراسة الهندسة ويظل طالباً خمس سنوات بطولها ، ثم ما ان يفرغ من دراسته الفنيـة حتى يشرع في الاقلاع فوراً أميركا ليشغل وظيفة كاتب في الادارة الديبلوماسية السوفياتية . ولو أن وزارة الخارجية الأميركية اشتبهت ولو قليلاً في الأمر لأدى ذلك إلى مراقبة ياكوفليف ، ولتكشفت وسائله العجيبة في مقــابلة الأميركيين ، واتضحت صداقته بغولد ، وكانت صلة غولد بجوليوس معروفة وقتئذ ، وقد جيء بغولد إلى ياكوفليف بعد وفاة جوليوس سنة ١٩٤٣ بواسطة سيمين سيمينوف وهو موظف في شركة امتورج التجارية السوفياتية . ولقـد

كانت الادارة السرية السوفياتية حسنة الحظ في هذا الحادث وفي غيره من الحوادث كذلك .

وكانت موسكو في الواقع تعرف في ذلك الحين عن القنبلة الذرية أكثر مما يعرف معظم الذين يقودون الحرب من رجال الغرب ، وكان من حقها أن تعترف بأنها ستقف على كل شيء في الوقت المناسب ، ذلك أن أهم ما كان يميز شبكات التجسس الذرية في شمال أميركا لم يكن مردده نجاحها في الحصول على المعلومات بقدر ما كان مرجعه مهارتها وحسن حظها في عدم إثارة أقل اشتباه في أولئك المكلفين بالحرص على أعظم سر فني من أسرار الحرب .

وكان الحلفاء غاية في السخاء في مدّ الروس بالمعلومات ، وكان ينبغي أن يثير شكوكهم قلة استخدام الروس لهذه المعلومات التي زودوا بها واقتصارهم في الأسئلة على ما ليس منه ضرر البتة . كان يجب أن يبدو لهم غريباً سكوت الروس عن الاستعلام عن المتفجرات الذرية أو حتى عن كنه (السبائك التي في الأنابيب) و (مشروع ناحية مانهاتن).

أضف إلى هذا أن الادارة السرية السوفياتية كانت قد وجدت العون من بعض العوامل الأخرى ، فان قتالها عدواً مشتركاً ، وهو ألمانيا ، كتفاً إلى كتف مع بريطانيا والولايات المتحدة، هيأ لموسكو الفرصة لا لكي تطلب معونة مادية فحسب، بل تعاوناً كاملاً في الشؤون السرية بين أميركا والاتحاد السوفياتي، مما ترتب عليه أن يظل رسل السوفيات يتنقلون من قارة إلى أخرى في حراسة هيئات المخابرات التابعة للحلفاء . وكان في استطاعة موسكو أن تزيد بسرعة عدد مبعوثيها الديبلوماسيين والتجاريين والعسكريين في عواصم الغرب بحجة إجراء المشاورات ، وكذلك فان الفظائع التي ارتكبتها جيوش هتلر عند احتلالها روسيا ، وبسالة الجيش الأحمر ، قد أثارتا العطف على الروس في صدور الغربيين . وكانت الحكومتان البريطانية والأميركية على استعداد لأن تفعلا أي شيء تقريباً لتفادي اغضاب الكرملين ، فقد نسيتا دروس الماضي أو ساد الاعتقاد على الأقل بأن النمر قد تبدلت طبيعته ، فلم تنشر في بريطانيا حوادث

اكتشاف التجسس السوفياتي وما تلا ذلك من محاكمة الجواسيس . أما في أميركا فقد شكا رجال المباحث من أنهم كانوا يمنعون من توجيه التهم إلى عملاء السوفيات المشتبه فيهم .

وكانت موسكو تعلم كل شيء عن القنبلة التي ألقيت على اليابان في ٦ آب (أغسطس) سنة ١٩٤٥ بعد إلقائها عليها بفترة وجيزة ، فإن زابوتين أبرق من أوتاوا بأن ألك ، أخبره أن القنبلة مصنوعة من يورانيوم ٢٣٥ ، وان ما ينتج من هذه المادة يومياً يقرب من ٤٠٠ غرام ، وكان نون ماي على وشك العودة إلى لندن ، وكانت موسكو قد دبرت له مقابلة مع عميل آخر من عملاء السوفيات ، إلا أن زابوتين كان له « زبائن آخرون » على حد تعبيره ، يزودون شبكته في كندا بالمعلومات الذرية . وكانت منظمات مكافحة المخابرات في الغرب لم تشتبه بعد في أن السفارة السوفياتية في شارع شارلوت بأوتاوا هي مركز شبكة جاسوسية وربما كانت تظل سادرة في جهلها هذا إلى أجل غير مسمى لو لم يفضل ايغور جوزنكو كاتب الشفرة الحرية بغتة .

ففي ٥ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٥ بدأ جوزنكو ينفذ خطة كان يفكر فيها منذ أمد بعيد ، وقد أعد لها عدته بجمع مستندات كبيرة تكشف عن نشاط اثني عشر دبلوماسياً كبيراً من دبلوماسيي السوفيات في أوتاوا ، ذلك النشاط الذي يجافي طبيعة عملهم الدبلوماسي مجافاة شديدة . وكذلك كشف عن نشاط كثير من الكنديين الذين كان الروس قد أغروهم بالانخراط في سلكهم . ورغبة في تجنب الاشتباه ثنى حروف المستندات التي وقع اختياره عليها وتركها في الملفات حتى ينتزعها منها في اللحظة الأخيرة ، وقرر ذات يوم في الساعة الثامنة مساء ان اللحظة المؤاتية قد حانت ، فدس في جيوبه من المستندات ما يكفي لأن يزج في السجن باثني عشر جاسوساً ، وقصد من فوره إلى مكاتب صحيفة من الصحف ولكن رئيس التحرير رفض أن يأخذ كلامه مأخذ الجد ، وكذلك كانت حاله في صباح اليوم التالي عندما زار بعض موظفي الحكومة وتردد للمرة الثانية على مكاتب تلك الصحيفة .

وما كانت الحقيقة لتظهر أبداً لولا أن السفارة الروسية ، وقد تملكها الفزع لغياب كاتب شفرتها ، عمدت إلى استعمال وسائل عنيفة لمحاولة إعادته اليها ، فما أن حطم بابه بعض الأجانب وعبثوا بمحتوياته حتى أخذ رجـــال البوليس يهتمون بالأمر فتحفظوا عليه ، واستمعوا إلى قصته ، ويبدو أنهم لم يصدقوا ما سرده عليهم إلى أن تمت ترجمة المستندات ووضح نجاح الادارة السوفياتية في كندا . ومع ان السفارة الروسيـة طلبت « تسليم » جوزنكو بسبب « جريمـة كبرى » وزعمت أنه لص فانه لم يبد على الادارة السرية السوفيـاتية شيء من الانزعاج ، ولم يكن زابوتين يدرك كم من المستندات وقعت في يد جوزنكو ، ذلك ان كثيراً من هذه المستندات كان قد دوّن أمامها في السجلات الرسمية أنها أحرقت ، وعمدت موسكو على سبيل الاحتياط إلى إلغاء الموعد الذي كانت قد دبرته للدكتور نون ماي أمـــام المتحف البريطاني في يوم ٧ تشرين أول (أكتوبر) . ولم يظهر «رجلنا في لندن» في هذا الموعد أو في الموعدين اللذين كان مضروباً لهـما شهرا تشرين ثاني (نوفمبر) وكانون أول (ديسمبر) ، ممـا أحس معه القسم الخاص في سكوتلانديارد بخيبة أمل كبيرة . على أن الدكتور نون ماي نفسه لم يحافظ على الموعد ، وقال بهذا الصدد : « كنت قد قررت ان هذا الاجراء السري لم يعد لائقاً بعد نشر المعلومات رسمياً وإمكان فرض رقـــابة دولية مرضية على الطاقة الذرية » ولعل رأيه هذا كان بسبب مـــا قرأه في الصحف عن هرب كاتب الشفرة من السفارة السوفياتية في أوتاوا .

وكان كل مـــا ورد ذكره في وثائق جوزنكو قد ذكر باسمه المستعار ، وكانت مهمة التعرف على هؤلاء الأشخاص وفك رموز هـذه الوثائق من أشق الأمور ، ولم تكن موسكو في عجلة من أمرها لتسحب الخمسة عشر عضواً من أعضاء سفارتها المشتركين في التجسس ، فان القيادة العامة كانت على ما يلوح مستعدة لأن « تشطب » شبكة زابوتين، فقد كان لديها شبكات أخرى للتجسس في كندا ، ولم يعد ثمة خطر من التوصل إلى شبكة التجسس في بريطانيا بالقبض على « رجلنا في لندن » بعد أن أحبط القبض عليه ولا ندري أكان هو نفس

الرجل الذي استخدم فيما بعد ليكون رسول فوخس .

ولم يكن رجال السياسة في الغرب تواقين لأن يغيروا ما كانوا يرجونه من تناسق في مناقشات مؤتمر وزراء الخارجية الذي عقد في كانون أول (ديسمبر) سنة ١٩٤٥ ، وقد بذل غاية الجهد في محاكمة الدكتور نون ماي لتفادي ذكر الادارة السرية السوفياتية ووصف رجالها بأنهم « أولئك الأشخاص غير المسؤولين » الذين كشف أمرهم . وقال النائب العام وقتئذ : « ليس ثمة إيماء بأن الروس أعداء أو أعداء محتملون ... » .

وقال أيضاً : « أحب أن أعرف لماذا زج الدفاع باسم روسيا ، فإنني لم أشر إلى روسيا أو إلى أميركا ... » .

ومما هو جدير بالذكر أنه بالرغم من إلحاح مجلس العموم البريطاني فإن الحكومة البريطانية رفضت أن تنشر في بريطانيا تقرير اللجنة الملكية في كندا ، وهو يقع في ٧٥٠ صفحة أو نشر ملخص واف منه ، ولو أنها نشرت هذا أو ذاك لكان دليلاً على الوسائل التي تتبعها الادارة السرية السوفياتية في قيامها بأعمال التجسس والتخريب .

ولم يخف تقرير اللجنة الملكية شيئاً من الحقائق ، ولكنه كان ناطقاً بمدى ما تملك واضعيه من عجب مما اتصل بعلمهم من أن الدبلوماسيين السوفيات يشتركون في التجسس ، وان أعضاء برلمان ديمقراطي وبعض موظفي الدولة الذين أقسموا يمين الولاء لدولتهم يضعون ولاءهم للاتحاد السوفياتي فوق ولائهم لبلادهم وزملائهم .

ولم ينل هذا الحادث من الادارة السرية السوفياتية منالاً كبيراً ، وصرفته موسكو بمذكرة نهائية منها ، جاء فيها ان بعض موظفي الملحق العسكري لا بد قد دفعتهم حماستهم إلى اتيان بعض أمور لم يكن من المسموح الاتيان بها ، على ان المذكرة كانت في جملتها تتضمن حملة شديدة على كندا لتلك الدعاية التي قامت بها والتي كانت تنطوي على بواعث شريرة ، وما أن أدرك رئيس الوزارة الكندية مدى اتساع رقعة الجاسوسية حتى ذهب لمقابلة الرئيس ترومان في

البيت الأبيض ، ولعل ما علمه هو الذي دعاه إلى أن يقول : « ان معلومات من هذا القبيل لا يمكن أن يؤتمن عليها الاتصال البرقي » ، وقد وثقت الصلة بين ادغار هوفر رئيس المباحث الأميركية وبين هيئة المباحث الكندية ، ولكن الروس كانوا قد فصلوا شبكات الجاسوسية التي في الولايات المتحدة عن مثيلتها في كندا حتى ان المباحث الأميركية لم تستطع الاهتداء إلى أدلة جديدة تقودها إلى شبكات الجاسوسية القائمة في الولايات المتحدة ، والواقع أن فوخس قابل غولد للمرة الأخيرة في الولايات المتحدة بعد أسبوعين من هروب جوزنكو ، ويؤخذ من عدم إلغاء هذا الموعد بناء على أمر يصدر من موسكو أنه لم يكن ثمة خوف من أن يؤدي دليل ما في كندا إلى الولايات المتحدة .

وقد وضعت الترتيبات في هذا الاجتماع لفوخس لتسهل مقابلته في لندن ، لم ينشر اعتراف فوخس الكامل أبداً ، إلا أن ما لدي من المعلومات تشير إلى أن الموعد كان محدداً له السبت الأول من كل شهر في الساعة الثامنة مساء في محطة للمترو . وكان دليل التعارف خمسة كتب ربطت بدوبارة تحت إحدى الذراعين وكتابين تحت الذراع الأخرى . ويبدو أن الادارة السرية السوفياتية لم تلغ هذه المواعيد بعد القبض على نون ماي ، وإن كانت قد أرجأتها مؤقتاً حتى تتحقق من أنها لم تثر شبهة ما .

أما في الولايات المتحدة فإن تأثير اذاعة الأسرار الكندية كان من شأنه زيادة يقظة الهيئة المكافحة للمخابرات والتشديد في المحافظة على الأمن ، ومع أن هذه الاجراءات لم تؤد إلى القبض على أحد فإنها ألقت الرعب في قلب باكوفليف ، وهو الذي كان منوطاً به التجسس الذري في نيويورك ، وكانت نيويورك قد أعدت العدة لباكوفليف ليقابل في أواخر سنة ١٩٤٥ « شخصاً عظيم الشأن » جاء من أوروبا في زيارة للولايات المتحدة . وقد ترصد رجال هيئة مكافحة المخابرات خطى هذا الزائر حتى اضطر ياكوفليف أن يقلع عن مقابلته . وكان ياكوفليف ثائر الأعصاب في مقابلة جرت له مع غولد في كانون الأول (يناير) سنة ١٩٤٦ وغاب عن الموعد الذي كان محدداً له في شهر شباط

(فبراير) . وقد توقف نشاط غولد بطبيعة الحال ، ويبدو أن ياكوفليف لم يستطع أن يقوم في سنة ١٩٤٦ إلا بالقليل جداً ، ولم يقابل ياكوفليف غولد ثانية إلا في كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٦ وقد اتخذ كل احتياط ممكن لضمان سرية هذا الاجتماع ، وتحدث معه في رحلة إلى باريس وسلمه أوامر مكتوبة على بعض قشور البصل . ولعل موسكو كانت قد قررت وقتئذ أن ما تستطيع الوقوف عليه من المعلومات في أوروبا أكثر مما تستطيع معرفته في الولايات المتحدة ، وصرح له غولد في هذه المقابلة بأنه يعمل لحساب بروتمان . ولما كان ياكوفليف يعلم أن بروتمان كان قد لفت اليه أنظار رجال المباحث فقد أسرع بالعودة إلى روسيا . ولم يذهب غولد قط إلى أوروبا . وكشفت اليزابيت بنتلي الستار في سنة ١٩٤٧ عن نشاط جاكوب جوليوس الواسع النطاق ، وكان قد توفي سنة ١٩٤٣ . وكان رجال المباحث يعلمون كل شيء عن جوليوس إلا أنهم لم يستطيعوا أن يلصقوا به إلا تهمة فنية سنة ١٩٤٠ عوقب عليها بغرامة . وقد استجوبوا آلان غولد ، وكانوا يعلمون صلته بجوليوس ، إلا أنهم فشلوا في الحصول على اعتراف منه ، ومن ثم فقد كانت موسكو تعلم أن فوخس ما زال في أمان ، وقد عمل جوليوس أيضاً مع آل روزنبرغ ولكن لم يكن لدى المباحث ما تأخذه عليه ، ولقد كان من حسن طالع الادارة السرية السوفياتية ولا شك أن المباحث لم تتوصل وقتئذ إلى جوليوس ، ذلك أنه كان المفتاح لكثير من الجواسيس في الولايات المتحدة .

وعندما رحل غرينغلاس عن لوس ألاموس في نهاية الحرب لم يستطع روزنبرغ الحصول منه على معلومات أخرى ، إلا أنه يبدو أنه اتصل بسواه ، وعلى كل حال فقد أخبر غرينغلاس أن لديه في أماكن عدة من ينقلون اليه الأخبار ، وقال أن أحدهم كان ينقل اليه المعلومات عن استعمال الطاقة الذرية في تسيير الطائرات وعن الخطط المتعلقة « بمشروع المنصة العلوية » أو القمر الصناعي . وكان روزنبرغ ينقل المعلومات بواسطة أفلام صغيرة جداً مخبأة داخل سينا ويقابل عملاءه في جهات منعزلة ، ولا ندري أكان روزنبرغ صادقاً

في مفاخراته هذه أم لم يكن ، على أن الشيء المحقق أن الادارة السرية السوفياتية لم تحصل من المعلومات في الولايات المتحدة بعد سنة ١٩٤٥ إلا القليل، فقد شددت الرقابة في الولايات المتحدة حتى أن العلماء البريطانيين عندما جاءوا إلى الولايات المتحدة في زيارة يناقشون فيها علماءها كان رجال المباحث يصاحبونهم كظلهم ولا يتركونهم لحظة واحدة خاصة وهم يزورون المنشئات الذرية .

ولقد كان السبب في كشف أمر فوخس ، الذي ترتب عليه القضاء على نشاطه في التجسس الذري ، غلطة ارتكبها الروس ، فان أحد خبرائهم في اجتماع عقدته لجنة الطاقة الذرية التابعة للأمم الذرية استخدم من الألفاظ ما دل على أنه توصل إلى أعمق أسرار الأبحاث الذرية الأميركية ، وهي أسرار ما كان نون ماي يستطيع الوصول اليها . وقد كشف ذلك عن وجود عميل « س » لم يكشف أمره لا بد أن يكون اشتغل في ميدان خاص في الولايات المتحدة . وأخذت المباحث الجنائية في تحري الأمر ، وأخيراً سألت الهيئة البريطانية لمكافحة التجسس عما إذا كانت راضية عن فوخس . أما باقي القصة فمعروف ، وبذلك فقدت الادارة السرية السوفياتية أعظم عملائها جميعاً وأكثرهم قيمة ، ولكنها فقدته بعد أن خدمها خدمات جليلة خلال سبع سنوات كاملة .

ولكن الادارة السرية السوفياتية كانت واثقة ، حتى مع القبض على فوخس ، من أن الشبكة لن يكشف أمرها ، بفضل نظام الاتصالات التي تجري بين العملاء . وكان من نتائج توجيه التهمة إلى فوخس أن زاره في زنزانته بالسجن اثنان من رجال المباحث هما هيوكليج وروبرت لامفير ، حاولا معرفة الرجل الذي يؤدي له مهمة الرسول في الولايات المتحدة ، إلا أن فوخس لم يكن يعلم اسم هاري غولد الحقيقي ،فقد كان غولد يسمي نفسه ريموند أمام فوخس وجون أمام غرينغلاس ،كما أن وصفه لذلك الرجل لم يكن دقيقاً حتى بعد مرور سنوات عديدة ، وفشل فوخس في التعرف عليه من بين الصور الفوتوغرافية التي عرضت

عليه ، وحصر رجال المباحث شبهتهم في غــولد من بين ١٥٠٠ مشتبه فيهم ، ووجهوا إليه تهمة التجسس بسبب غلطة واحدة ارتكبها وهي أنه فاته إتلاف كتاب دليل إلى « سانتافي » حيث ذهب لمقابلة فوخس .

ولم يتعرف فوخس على غولد إلا بعد القبض على هذا الأخير واعترافه ، وقد تعرف عليه من فيلم سينمائي أخذ له عرض على فوخس ، وأدى اعتراف غولد إلى غرينغلاس ، واعتراف هذا أدى بدوره إلى اثيل وجوليوس روزنبرغ ، على أن هذين لم يعترفا أبداً فانتهت الحلقة عندهما ، ولو أنهما على الأرجح كانا على صلة بكثير من العملاء الآخرين . وكان الفصل الأخــير في مأساة التجسس الذري السوفياتي طيران الأستاذ برونو بونتيكوروفو — الأمر الذي ليس له تعليل حتى الآن — إلى روسيا في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٥٠ وكان بونتيكوروفو قد أسهم بنصيب له شأنه في الأبحاث الذرية ، وهي في رأي بعض الخبراء أهم من النصيب الذي أسهم به فوخس ، ولكن لم يعرف أبـداً هل كانت الادارة السرية السوفياتية على صلة مستمرة به منذ أيامه الأولى التي كان فيها من اليساريين ، والمعروف أنه عمل لحساب مجلس الأبحاث القومي في مونتريال من سنة ١٩٤٣ ونقل في سنة ١٩٤٥ إلى معمل « تشوك ريفر » ليقوم بأعمال على قدر كبير من السرية .

ولم يخلف بونتيكوروفو دليلاً يدل على أنه كان على اتصال بالادارة السرية السوفياتية خلال السنوات السبع التي كان يعمل أثناءها في المشروعات السرية . ولم تكن ثمة إشارة إليه في مستندات جوزنكو ، اللهم إلا إذا كان اسمه قد ورد ضمن الأسماء التي رمزت لها الرموز ولم يكشف أمرها قط . والأرجح أنه قد رشي ليذهب إلى روسيا في وقت اشتدت الحاجة فيه إلى عالم ذري له تخصصه هذا بالذات ، وان نظرة إلى تاريخ حياته في الدليل الروسي كانت كفيلة بأن تبين أسرته وصلاته الأخرى ، بل وميوله اليسارية التي كان يدين بها قبل الحرب . ولو أن الغرب قد عرف هذا عنه لما أطلق له العنان في الوقوف على المعلومـات السرية ولكان قد حدّ من حريته المطلقة التي ينعم بها . ولعل محاكمة فوخس

والحكم عليه أربعة عشر عاماً كانت من البواعث التي أدت ببونتيكوروفو إلى الالتجاء إلى روسيا وقد هددته الفضيحة والخراب . وليس ثمة دليل على أن سفره مع أسرته على متن الطائرة كان خطفاً بالمعنى المعروف ، إلا ان الادارة السرية السوفياتية تعرف كيف ترغم الضحية على السفر دون أن تكرهه على ذلك إكراهاً بدنياً .

ولقد أتينا في هـــذا الفصل على لمحات من التجسس الذري ، وهو مستمر ولا شك ، وكان هذا النوع من التجسس يمثل هدفاً واحداً من أهداف الادارة السرية السوفياتية ، وان كان من الأهداف المهمة جداً ، وقد لقيت هـذه الحملة نجاحاً كبيراً إذ أن كفاية تلك الادارة ونشاطها والوسائل التي تلجـأ إليها لم يقدرها المسؤولون على ما يلوح حق قدرها . وقد ساد الشعور بعد الكشف عن هـــذه الأسرار بأن بعض أصدقائنا قد خانونا . ولا شك أن الادارة السرية السوفياتية اعتبرتنا لذلك غاية في السذاجة ، وإذا كانت موسكو كنتيجـــة للكشف عن حلقتي تجسس ، قد وجدت من الصعب عليها بعد ذلك الحصول على معلومات عما يجري من الأبحاث عن الأسلحة الذرية وعن إنتاجها ، فان حكام روسيا ولا شك قد عوضهم عن ذلك التصدع الذي أصاب العلاقات بين بريطانيا والولايات المتحدة فيما يتصل بالأمن والشعور بالخوف والاشتباه الذي ثار في أميركا.

الفصل الحادي عشر

الفرع التنفيذي

لعل الملايين من الرجال والنساء العاديين قد تساءلوا عما إذا لم تكن ثمة مبالغة في أقوال مسز أفدوكيا بتروف وهي تدلي للجنة الملكية الاسترالية بتصرفاتها وشعورها خلال الأيام التي اختفى فيها زوجها في نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٥ ، فقد أخذت هذه المرأة التي ظلت ١٦ عاماً عميلة لهيئة التشيكا تقول في عبارات مؤثرة : « عندمـــا اختفى زوجي ظننت أنه اختطف ، على أنني حتى عندما علمت أنه بلغ بر الأمان سالماً ووضعته الحكومة الاسترالية تحت حمـــايتها ، لم أكن أستطيع عمل شيء للحاق به » . وروت كيف كانت الرقـابة مفروضة عليها ليل نهار ولم يسمح لأحد بالتحدث اليهـــا ، وكيف كانت الاستعدادات تجري لترحيلها إلى روسيا ، فشعرت بأن المقـــاومة لا جدوى منها ، وانها لو حاولت المقاومة لقتلت لتوها في مبنى السفارة !

ويشهد الكثيرون من شهود العيان في المطار ، كما تشهد الصور الفوتوغرافية العديدة ، بسوء معاملة الحراس السوفيات المسلحين لها ، ولكن هل يعقل أن يخطف المرء ويقتل في سفارة ؟ وهل تبلغ الجرأة حقاً بالموظفين السوفيـات أن يقضوا على إنسان في عاصمة دولة حرة ؟ وكيف يتخلصون من الجثـة ؟ وكيف

يكون رد الفعل الذي يصيب العالم من جريمة كهذه ؟ ألا يكون الأمر بمجرد وهم تسلط على ذهـــن مسز بتروف ؟ ولكن مهما كان مدى الاغراء الذي أوحى إلى بتروف وزوجته بالمبـــالغة كسباً لعطف أصدقائهم الجدد فإنه في إمكاننا أن نقبل بغير تحفظ ما أدليا به من أنهم كانوا يعيشون في رعب .

ان تاريخ الفرع التنفيذي التابع للتشيكا يزخر بحوادث الرجال والنساء العديدين الذي اختطفوا وقتلوا في وضح النهار في قلب عواصم البلاد الحرة ، وقد ارتكبت هذه الجرائم بمعاونة فعالة من موظفي السفارات السوفياتية .

وكان بتروف يعلم ، وشأنه في هذا شأن جوزنكو ، أن من أدار ظهره إلى موسكو قتل تحت سمع رجـال البوليس وبصرهم سواء أكان ذلك في شوارع باريس أو في ظلال جبال الألب السويسرية ، أو في غرفة بفندق في واشنطن ، أو في الشارع الخامس بنيويورك .

ولقد ثار العالم الحر وأعرب عن فزعه واشمئزازه عندمـا أعلنت السلطات الأميركية في ألمـــانيا في ٢٣ نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٥ ان ثلاثة من عملاء الادارة السرية السوفيـــاتية قد سلموا أنفسهم اليها ، وان قائدهم نيقولاي أفغنيفتش خوخلوف ، الضابط في وزارة الشؤون الداخلية ، قد اعترف بأن مهمتم كانت قتل جيورجي أكولوفتش رئيس الجمعية الروسية للاتحاد القومي ، وهي منظمة مناهضة للشيوعيين في فرانكفورت . على أن كشف القنـاع عن نشاط هذا الفرع من فروع التشيكا الذي نصب نفسه لإلقاء الرعب في النفوس والقضاء على خصومه ما كان يجب أن يثير ما أثاره من دهشة ، فإن « جلادي موسكو المتنقلين » كثيراً ما قاموا بمهمات كثيرة مماثلة حالفهم فيهـــا النجاح سنوات كثيرة ، إلا أن ضعف ذاكرة أهل الغرب عما كانت تقترفه التشيكا هو السبب فيما تملك الغرب من دهشة حيـــال « حادث خوخلوف » في ربيع سنة ١٩٤٥ .

ولكن الجديد في هذا الحادث أن خوخلوف جلب معه إلى الحرية الأسلحة التي زود بها ليؤدي مهمته ، ومنها صندوق يطلق رصاص « دمدم » السام من

خلال أطراف السجائر ومسدساً صغيراً جداً يطلق رصاصته بواسطة الكهرباء طوله أربع بوصات وارتفاعه ثلاث بوصات ونصف ويمكن أخفاؤه في راحة اليد ، ولا يصدر عنه صوت أقوى مما يصدر عن فرقعة الأصابع .

ولو أن كاتباً من كتّاب القصص البوليسية قد كتب قصة وجعل من شخصياتها جاسوساً يحمل سلاحاً كهذا يقتل به غريمه في وسط مدينة أوروبية تنشط فيها الحركة ، لوصفها أكثر قرائه تفاؤلاً بأنها قصة لا يمكن للعقل أن يصدقها ، إلا أن مثل هذه الحوادث ارتكبها عملاء التشيكا ووفقوا فيها ، وما كانت حادثة خوخلوف إلا واحدة من سلسلة طويلة من حوادث الخطف والقتل بإطلاق النار والطعن بالمدى والتسميم وإظهار القتل بمظهر الانتحار ، وكان عملاء الادارة السرية السوفياتية وأعضاء الجماعات المتنقلة يدبرون هذه الحوادث وينفذونها .

وليست تصفية الأعداء السياسيين اختراعاً شيوعياً ، فإنه قديم قدم السياسة نفسها ، إلا أن الروس تخصصوا فيه قروناً طويلة . وقد اهتدى الروس خلال الأربعين سنة الأخيرة إلى وسائل أكثر دهاء من تلك الوسائل التي كان يعمد اليها الفوضويون والثوار من إلقاء القنابل على العربات الملكية أثناء مرورها . وقد سمعنا عن حركات التطهير المتكررة والاعدام بالجملة والقتل دون محاكمة والترحيل إلى معسكرات العمل سخرة داخل حدود الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له ، وقبلنا كل ذلك بوصفه جزءاً لا يتجزأ من النظام القضائي الشيوعي ، أما أن تستخدم تلك الوسائل في العالم الخارجي فأمر يتعذر علينا أن نصدقه .

وقبل أن نتولى بالدرس بعض الحالات المميزة من تلك القائمة الطويلة من حوادث الخطف والقتل لنصور الوسائل التي تتبعها التشيكا خارج روسيا، يجدر بنا أن نلقي نظرة على الفرع الخاص من الادارة الثانية الذي يرأسه في الوقت الحالي ألكسندر بانيوشكين ، وهو الذي كان ينزل ضيفاً على البيت الأبيض بوصفه ديبلوماسياً سوفياتياً ويتبادل النكات مع قادة رجال السياسة في

الديمقراطيات الغربية .

كان رئيس القسم في سنة ١٩٤٢ الكولونيل بافيل نيكوفوروفيتش سودوبلاتوف ، ومن أعماله محاولة اغتيال الهر فرانز فون بابن السفير الألماني في أنقرة ، وقد وصفت في أحد كتبي التي وضعتها عن التجسس خلال الحرب كيف أعدت التشيكا هذه الخطة ، فقد كان فون بابن يتنزه في صباح يوم ١٤ آذار (مارس) سنة ١٩٤٢ في شارع أتاتورك في العاصمة التركية عندما انفجرت قنبلة أمامه على بعد ياردات منه ، وقد قتل المعتدي في الحال وكان شاباً كردياً ، وقبض البوليس التركي على روسيين كانا قد وصلا منذ بضعة أسابيع من باكو بطريق الجو ، وتسميا باسم جورجي بافلوف ، وليونيد كورنيلوف ، ولكن المحكمة التي حاكمتهما لم تلح في معرفة حقيقة اسميهما أو تبحث عمن كانا يشتغلان لحسابه ويأتمران بأمره (وهو الكولونيل سودوبلاتوف) وحكم عليهما بالسجن ١٦ سنة . إلا أنه حدث بعد ثلاث سنوات أن أصبحت تركيا حليفة الاتحاد السوفياتي بإشهارها الحرب على ألمانيا في اللحظة الأخيرة ، فأطلق سراح السجينين في هدوء وأرسلا إلى روسيا وطنهما .

وقد زعم خوخلوف، وربما في شيء من المغالاة والاسراف،ان سودوبلاتوف كان قد عهد إليه بمهمة قتل فون بابن ولكنه رفض القيام بالمهمة ، وقد ألقي القبض على سودوبلاتوف مع بيريا في سنة ١٩٥٣ ، ولعله قد أعدم وان كان اسمه لم يظهر في النشرة الرسمية ، وبعد القبض على سودوبلاتوف عين كروجلوف ، رئيس التشيكا الجديد ، والكولونيل ليف ايرودوفيتش ستودينكوف رئيساً لهذا الفرع . وكان ليونيد ألكسندروفيتش ايتنغتون مساعد سودوبلاتوف سنوات طويلة ، وكان في الثانية والستين من عمره عندما قتل بعد سقوط بيريا ، وكانت له خبرة عظيمة « بالتصفيات » التي تجري خارج روسيا ، وكانت مهمته الأولى الكبيرة في سنة ١٩٣٠ عندما نظم خطف الروسي الأبيض المهاجر الكولونيل كوتيبوف في برايس ، وسأصف هذا الحادث فيما بعد . وقد أوفد في سنة ١٩٣٦ إلى اسبانيا حيث عهد إليه بمهمة الاعدام الجماعي للشيوعيين

المناهضين لستالين ، وقد أكسبته خدمته في اسبانيا رتبة عسكرية رفيعة وعهد إليه بإعداد خطة لاغتيال ليون تروتسكي .

ورئيس القسم في الوقت الحاضر هو ستود نيكوف ، وهو من رجال بوليس التشيكا المثاليين ، وكان معهوداً إليه بعض الأقسام الداخلية قبل أن يرقيه كروجلوف للاشراف على الاغتيالات في الميدان الدولي ، إلا أن اتينغتون كان يهودي الأصل نال من التعليم والثقافة قسطاً وافراً ، ويتكلم الانكليزية والفرنسية بطلاقة، وطاف كثيراً في أنحاء أوروبا. وفي الأيام الأولى من كانون الثاني(يناير) سنة ١٩٥٤ كان في فرنسا ، ويقول خوخلوف انه ذهب إليها للاشراف على تصفية مهاجر ، عندما وجهت إليه التهمة بأنه يحاول الهرب إلى الغرب ، فاستدعي إلى الوطن وألقي به في السجن. إلا أن بيريا عفا عنه تقديراً للخدمات العظيمة التي أداها ، وكان اتينغتون معتل الصحة فذهب في نيسان (ابريل) سنة ١٩٥٣ إلى مصحة في سوشي بلاد القوقاز ليستجم، وعندما قبض على بيريا ألقي القبض أيضاً على أتينغتون .

وخلفه أفغني إيفانوفتش مير كوفسكي ، وكان وقتئذ رئيس بوليس الأمن الألباني في تيرانا ، وهي مصلحة كانت من مصالح الجمهورية الشعبية الألبانية إسماً ، وتشرف التشيكا عليها فعلاً. وقد عين مير كوفسكي وكيلاً لتسودنيكوف في رئاسته للفرع الخاص في ١٠ كانون الاول (يناير) سنة ١٩٥٤ ومنح رتبة الكولونيل مع انه كان ما زال شاباً في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره .
ومقر هذا القسم الخاص عمارة لوبيانكا ، وهي المقر الأصلي للتشيكا قبل أن تنتقل معظم أقسامها إلى قصر الكومنترن العظيم في ماشوفايا أولتيزا . ويدرب العلماء في بناء تورنانسكي بوبولوك ، ويرأسه الكولونيل إركادي فوتوبيف .
وللقسم فرعان دائمان في الخارج أحدهما في كارلشورست في المنطقة السوفياتية من برلين ، والآخر في الفيلا الصيفية الامبراطورية السابقة في بادن قرب فيينا .
ويختص مركز برلين بالارهابيين من رجال التشيكا الذين يشمل اختصاصهم ألمانيا وأوروبا الغربية واسكندنافيا ، ويؤدي المركز مهمة نقطة الانتقال

للعملاء الذين يعهد اليهم بمهام في الولايات المتحـدة ونصف الكرة الغربي . أمـا مركز بادن فيستخدمه العملاء وهم في طريقهم إلى أوروبا الجنوبيـة الشرقية ويوغوسلافيا واليونان وتركيا وإيطاليا وشمال افريقيا .

ولقد كشف خوخلوف عن الاستعدادات المفصلة والتدريب النهـائي والتعليمات التي تعطى للجلادين المتنقلين ، وساق لذلك مثـلاً الاستعدادات التي جرت « لتصفيـة » جيورجي أكولوفتش في فرانكفورت ، وكانت موسكو تضمر لأكولوفتش حقداً شديداً نظراً لنجاح دعاية منظمته (جمعية الاتحـاد القومي) المناهضة للسوفيات ، والتي كان ينشرها بين رجـال الجيش الأحمر والموظفين الذين يعملون في المـانيا الشرقية والنمسا . ولقد تسربت المـلايين من النشرات التي طبعتها منظمته إلى ثكنات الجنود السوفيات ، وزعمت جمعية الاتحاد القومي بأن دعايتها نفذت إلى الاتحاد السوفياتي نفسه والدول التابعة له.

وقد استدعى الكولونيل ستودنيكوف في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٥٣ خوخلوف وطلب اليه أن يستعد للذهاب إلى ألمانيا للقيام « بتصفية » وفي أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) طار خوخلوف إلى المانيا الشرقية وقدم نفسه إلى مركز كارلشورست وهناك قدموا اليه شيوعيين المانيين هما هانز كوكوفتش وكيرت ويبر ، وكانا يقومان ببعض الأعمال البسيطة للادارة السرية السوفياتية في المانيا . وفي ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) طار خوخلوف ومعاوناه إلى موسكو، حيث يتدرب الالمانيان ومنح خوخلوف اجازة قضاها مع زوجته وابنه البالغ من العمر ٢١ شهراً ، وقد باح في هـذه الزيارة بمهمته لزوجته فألحت عليه ألا يرتكب جريمة قتل ، إلا أنه كان مكرهاً على العودة وإلا ألقي القبض عليه وربما كان مصيره الاعدام رمياً بالرصاص .

وكان كوكوفتش وويبر في الوقت نفسه في المدرسة الخاصة بأعضاء القسم رقم ٩ بكوشينو قرب موسكو ، يتدربان على استعمال المسدسات وقيـادة السيارات وما إلى ذلك . واستدعي خوخلوف إلى كوشينو بضع مرات ليدرس مع معاونيه خرائط فرانكفورت وصوراً فوتوغرافية للمبنى الذي يضم منظمة

الروس البيض وصوراً لجيورجي أكولوفتش رئيسها ، وقد لقنتهم بعض هذه الدروس موظفة كبيرة من الموظفات القليلات اللواتي كن يعملن في تلك المدرسة هي الماجور تمارا نيكولايفا إيفانوفا ، وكانت خبيرة بالطوبوغرافيا (التخطيط) ، وقد وصفها خوخلوف بأنها « عانس عصبية مرهقة » .

وفي ٢٩ كانون الأول طار خوخلوف وزميلاه عائدين إلى برلين ، وقد قال له رئيسه الكولونيل ستودنيكوف في زيارته الأخيرة أنه لو نجحت مهمته فانه سيرقى وربما أنعم عليه بوسام . وأضاف ستودنيكوف إلى ذلك قوله أن عملية الراين (وهو الرمز الذي أطلق على اغتيال أكولوفتش) قد صدر الأمر بتنفيذها من الجنرال كروجلوف نفسه ، وهو وزير أمن الدولة ، وقد أيد هذا القول بانيوشكين ، رئيس الادارة الثانية ، الذي قصده خوخلوف ليقدم له تحياته قبل مغادرته موسكو .

وقد صدر الأمر للرجال الثلاثة في برلين بألا يدخلوا ألمانيا الغربية من برلين بل عليهم أن يدوروا دورة، وذهب الالمانيان إلى فيينا مزودين بأوراق مزورة لتحقيق الشخصية ، ومن فيينا قصدا إلى المركز الذي في بادن ، وفجأة صدر الأمر إلى خوخلوف بالعودة إلى موسكو حيث قيل له أن « العملية » قد أرجئت لأن الحكومة السوفياتية لا تريد اغتيالاً خلال انعقاد مؤتمر الدول الأربع من مولوتوف ودالس وإيدن وبيدو ، وكان وشيك الانعقاد في برلين .

وصدر الأمر إلى خوخلوف في ١٣ كانون الثاني (يناير) بأن يطير إلى فيينا ، وظل عاطلاً حتى ٨ شباط (فبراير) عندما أرسل بانيوشكين بعد أن انفض المؤتمر إشارة ببدء العمل إلى رئيس مركز التشيكا في بادن ، الكولونيل بيلا أكوم ، وهو مجري المولد .

وصدر الأمر إلى خوخلوف بأن يسافر بالجو إلى زيوريخ ، وسافر معاوناه الالمانيان بالقطار عن طريق أينسبرك وهما يحملان جواز سفر نمساويين ، وقد قابلا خوخلوف في زيوريخ في ١٣ شباط (فبراير) فأمرهما بالذهاب إلى فرانكفورت وتبعهما وحده بعد أربعة أيام ، وكان قد استقر رأيه على أن

يبوح بالخطة إلى السلطات الغربية ، إلا أنه كان يساوره بعض الشك في حسن استقبال تلك السلطـــات له ، فقرر أن يأتمن ضحيته على سره أولاً ، وفي ١٩ شباط (فبراير) قصد إلى مسكن المستر أكولوفتش لا لاغتياله تنفيذاً للأمر الصادر اليه بل ليقص عليه قصته ، وأبلغ أكولوفتش النبأ في الحال إلى ادارة الأمن الأميركية في فرانكفورت .

وتحفظ رجال البوليس على خوخولوف ، وعملاً بتعليمات أصدرهـــا اليه الأمير كيون ، أمر الالمانيين بالذهاب إلى أوغسبرغ كما اتفق على ذلك في موسكو لاستلام الأسلحة التي سيتم بها الاغتيال من رسول من مركز التشيكا النمساوي . وكان خوخولوف مقتنعاً بأن جماعة متنقلة أخرى قد أرسلت إلى فرانكفورت لمراقبته ، ورجا ضباط الأمن الأميركين أن يكونوا على حذر لأنه كان يخشى أن يقتل حتى وهو في صحبتهم ، ولذلك دبر الاجتماع الفاصل بينه وبين الضباط الأميركين في أوبرا فرانكفورت في ٢٠ شبـــاط (فبراير) ، وقد تمت بعض المحـادثات الجوهرية في دورة للمياه وفي غرفـة للملابس خلف المسرح . وأخيراً دبر خوخلوف اجتماعاً مع الالمانيين في ٢٥ شباط (فبراير) وحثهما على أن يسلما نفسيهما ، وقد راقب هذا الاجتماع سراً بعض ضبـــاط الأمن الأميركين المسلحين . وفي وقت متأخر من ذلك اليوم تسلموا أسلحة الاغتيال من مستودع الأمانات في محطة السكة الحديدية المركزية بفرانكفورت حيث كان الالمانيان قد أودعاها ، وهكذا انتهت عملية الراين – ولكنها لم تتم وفقـــاً للخطة الموضوعة .

وقد قضت الادارة السرية السوفياتية أربعة أشهر في الاستعداد لهذه العملية وأنفقت ١٠٫٠٠٠ جنيه على الأقل ، وكان القصد منها القضاء على أكولوفيتش ، وهو شخص ليست له أهمية سياسية ممتازة ، إلا أن التشيكا أنفقت أكثر من ذلك بكثير في اغتيال أشخاص أقل منه أهمية ، وكان اغتيالهم أحيـــاناً يتم إرضاء لشهوة انتقام ائتماراً بأمر أحد حكام الكرملين ، ويدل اغتيال « أجناس ريس» على يد عملاء التشيكا في سويسرا سنة ١٩٣٧ ، على أن الحكومة السوفياتية كانت

مستعدة أن تنفق مبلغاً يصل إلى ٥٠٠٠٠ دولار للقضاء على هارب من صفوف التشيكا ، وقدرت السلطات المكسيكية ان اغتيال تروتسكي كلف موسكو نحو ٦٠٠٠٠٠ دولار .

وقد كثرت حوادث الخطف الذي يقوم به عملاء السوفيات حتى أنها لم تعد تثير الاهتمام ، إلا أن الحادث الأول الذي هزّ الرأي العالمي هو الحادث الذي وقع منذ ٢٥ عاماً ، فلقد خرج الجنرال كوتيدبوف في صباح يوم الأحد ٢٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٠ من شقته في شارع روسيليه بباريس قاصداً إلى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية ، تاركاً زوجته وابنه الذي يبلغ الخامسة من العمر ، وقال أنه سيعود لتناول الغداء ، إلا أنه لم يعد قط . وكل ما استطاع البوليس أن يكشفه من أمره هو انه نشب عراك بين رجل ملتح وشرطيين على بعد مئات من الياردات من مسكنه . وقد تبين من الصور الفوتوغرافية أن هذا الرجل الملتحي كان الجنرال ، وما لبث الشرطيان أن دفعا به إلى سيارة أخذت تنهب الأرض نهباً ، وتحرت إدارة الأمن في باريس الأمر فاتضح لها أن رجال البوليس لم يقبضوا على أحد في تلك المنطقة في يوم الأحد المذكور ، وأصبح من الجلي أن رجلين متخفيين في زي الشرطة قد اختطفا الجنرال .

وقد أعلن عن مكافأة قدرها ٨٠٠٠ جنيه لمن يدلي بمعلومات عنه ولكن لم يعثر له مع هذا على أثر ، ولقد كان رئيس اتحاد قدامى المحاربين الروس ، وهي منظمة عنيفة مضادة للشيوعية ومؤلفة من المهاجرين ، أسسها الغراندوق نيكولاي المنفي . وكان عدد أعضائها ٦٠٠٠٠ في فرنسا ولها جماعات في بلاد أخرى من أوروبا الغربية وأميركا . وكان كوتيبوف قد تلقى خطابات تهديد كثيرة من الشيوعيين ، وكان من السهل بعد ذلك ، الاستنتاج بأن « الشرطيين » كانا من عملاء السوفيات ، وأسدل النسيان ستاره على الحادث ، إلا أنه عاد للأذهان على أثر حادث مماثل ، ففي سنة ١٩٣٧ كان يرأس اتحاد قدامى المحاربين أوجين ميلر ، الذي كان رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش الخامس القيصري ، والذي قاد الجيش الأبيض في مورمانسك سنة ١٩١٨ . وبعد انسحاب الجيوش

البريطانية التي كانت تحت امرة الجنرال ايرونسايد ، قصد الجنرال ميلر إلى انكلترا ثم استقر بعدئذ في باريس ، وكان وقت اختفائه في السبعين من عمره وترك كثيراً من العمل الاداري الخاص بالاتحاد إلى سكوبلين سكرتير الشرف .

وكان سكوبلين من أولئك الذين يؤمنون بأن النظام السوفياتي لا يمكن القضاء عليه إلا بحرب مع ألمانيا ، ونصح بعقد أواصر الصداقة مع هتلر ، فاتهم بأنه عميل للسوفيات ، وهي تهمة أنكرها بازدراء واستخفاف ، وشكلت « محكمة شرف » من أربعة جنرالات كانوا في خدمة القيصر من قبل ، فبرأوه من هذه التهمة ، ويلوح أن ميلر كان يثق تماماً في إخلاص سكوبلين ، وطلب سكوبلين من ميلر في ٢٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٧ أن يقابل مبعوثين سريين من الألمان ، أحدهما يسمى الكابتن سترومان والآخر يقال له فون ورني ، وقال سكوبلين أنهما يحملان أنباء هامة من غورنغ .

وغادر ميلر منزله ليقابل سكوبلين والألمانيين في مقهى في غابة بولونيا فلم يعد ، وتأثر البوليس فيما بعد خطاه إلى الهافر حيث وجدوا أن سفينة الشحن السوفياتية « ماريا أوليانوفا » قد أقلعت في مساء اليوم الذي اختفى فيه الجنرال ميلر .

وأنكر سكوبلين معرفته بالموعد الذي كان مضروباً مع الألمانيين أو بأنه دعا ميلر إلى أي اجتماع ، وانعقد مجلس اتحاد قدامى المحاربين الروس فوجهت إليه فيه للمرة الثانية تهمة التجسس لحساب السوفيات ، وبأنه دبر اختطاف الجنرال ميلر واغتياله على أغلب الظن . وغادر سكوبلين الاجتماع بعد شجار عنيف واختفى عن الأنظار بعد ذلك ، ثم ألقي القبض بعد بضعة أيام على زوجته ، نادين بليفتسكا المغنية والراقصة المشهورة في أندية باريس الليلية ، ووجهت إليها تهمة الاشتراك في جناية الخطف ، وحكم عليها بالأشغال الشاقة ٢٠ عاماً ، وهي أطول مدة حكم بها على امرأة . وتوفيت نادين في سجن رين سنة ١٩٤٤ ، على أنها لم تبح أبداً بسر اختفاء الجنرال أو بسر اختفاء زوجها . وأثار ناظر مدرسة يدعى مارسيل كانس ، ويقيم في الهافر ، اهتمام البوليس الفرنسي

أثناء تحرياته ، وكان كانس على صلة بربان السفينة السوفياتية «ماريا أوليانوفا» في الليلة التي ساد الاعتقاد فيها بأن ميلر وضع فيها على ظهر السفينة، وقد كشف القناع قبـــل نشوب الحرب ، على أن كانس كان من رؤوس شبكة التجسس السوفياتية في فرنسا، ولم يبلغنا من أنباء سكوبلين إلا نبأ لم يتأيد تلقته المخابرات الفرنسية بعد الحرب خلاصته أنه توفي في روسيا حيث كان يعمل في خدمـة التشيكا باسم آخر غير اسمه هذا .

أما منذ وضعت الحرب أوزارها ، وخاصة في ألمانيا والنمسا ، فقد حدثت مئات من حوادث الخطف المماثلة ، وعندما زرت برلين في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٤ قال لي الهر ستوم ، رئيس البوليس في برلين الغربية ، ان سجلاته تضم نحو ٤٠٠ حادثة خطف دبّرها عملاء السوفيات بمعاونة الشيوعيين الألمان خلال سنة ١٩٥٣ وحدها ، وقال ان عملاء السوفيات في المنطقة الشرقية كانوا يدفعون مبلغاً يتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ مارك إلى رجال ونساء من الألمان ليستدرجوا الضحايا ، وكان لخطف المحامي الألماني الدكتور اريك لينز ، رئيس اللجنة الألمانية للشرعيين الأحرار ، واحتمال قتله ، دوي شديد في العالم بأسره ، وتصور هذه الحادثة بعض الوسائل التي يلجأ إليها عملاء السوفيات .

في الصباح الباكر من يوم ١١ تموز (يوليو) اقترب رجل من سائق تاكسي في غرب برلين ، وطلب منه أن يوصله إلى ميدان سنفلدر في القطاع السوفياتي ، ولم يكن سائقو التاكسي الألمان يحبون دخول المنطقة الشرقية ، إلا أن الراكب نفحه عشرين ماركاً (نحو ٣٥ شلناً) فقبل السائق على أثرها توصيله ، وانحنى الراكب أثناء الطريق إلى الأمام وألقى بعلبة فيها ١٠٠ سيجارة أميركية على المقعد الأمامي المجاور للسائق ، فظن السائق أن هذه نفحة خاصة فأعرب له عن شكره .

وعندما وقف التاكسي بعد لحظة في المكان الذي عيّنه الراكب انقض شرطيان من « بوليس الشعب » على التاكسي وهما يصيحان قائلين « إذن فأنت أحد المهربين الأميركيين الذين يهربون السجائر إلى المنطقة الشرقية ! » وسيق

السائق والراكب إلى مركز البوليس حيث ألقي بالسائق في السجن ، وبقي فيه يومين إلا أن نظره لم يقع على الراكب مرة أخرى ، وعندما أطلق سراحه قيل له أن يعود إلى غرب برلين حيث يجد سيارته .

وقد دبّر هذا الحادث للحصول على سيارة من غرب برلين تحمل أرقاماً قانونية ، وقد دل التحقيق بعد اختفاء الدكتور لينز على أن هذا التاكسي ظهر في صباح اليوم التالي في شارع غريشتستراس الهادىء ، وهو شارع سكني تحف به الأشجار على الجانبين ويقيم فيه الدكتور لينز . وكان المحامي يغادر داره رقم ١٢ في ذلك الشارع في موعد مضبوط صباح كل يوم ليستقل القطار من محطة « ال » ، وهو على مسافة قريبة من داره ، وفي صباح ذلك اليوم عندما سار نحو ٣٠ خطوة خرج عليه رجلان من التاكسي ، وكانا قد تبعاه ، وانقض عليه أحدهما ، في حين ضربه الآخر على رأسه وأفقده الوعي ، وحمل الرجلان لينز إلى التاكسي الذي كان يتبعهما ببطء ، وما لبث ان انطلق بأقصى سرعته صوب القطاع السوفياتي ، وعلت صرخة امرأة كانت ترقب ما يحدث من الافريز المقابل ، فأخذ الناس يطاردون المعتدين ، وكان بينهم شاب يركب دراجة ، واشتركت عربة نقل في المطاردة .

وأطلقت خمس طلقات من مسدس على المطاردين ، كما ألقيت عليهم بعض القنابل التي كانت تستخدم في الحرب لفرقعة اطارات العربات العسكرية ، وتوقفت العربة وبعدت الشقة بين المطاردين والتاكسي الذي كانوا يطاردونه ، إلا أنهم رأوا على بعد نحو ٢٠٠ ياردة منهم جماعة من « بوليس الشعب » في شرق برلين ، والظاهر أنهم كانوا في انتظار التاكسي ، إذ أنهم ما ان اقترب التاكسي منهم حتى رفعوا الحاجز ليمرق التاكسي ، وهذا الحاجز هو الذي تقف عنده كل سيارة للتفتيش والتحري قبل دخول شرق برلين ، وكان هذا آخر ما شوهد أو عرف عن الدكتور لينز ومطارديه .

وسرعان ما قدم المندوبان الساميان الانكليزي والأميركي الاحتجاجات لدى رئيس لجنة المراقبة السوفياتية ، الجنرال فاسيلي شويكوف ، فوعدهما

بالبحث في الأمر، ولما انقضت بضعة أسابيع دون أن ترسل السلطات السوفياتية ردّها، أثير الموضوع في مجلس العموم البريطاني، واحتج المستر ايدن رسمياً لدى الحكومة السوفياتية وتبعه في ذلك جون ماكلوي المندوب السامي الأميركي، إلا أن كل ما أسفر عنه هذان الاحتجاجان مذكرة رقيقة من الجنرال شويكوف إلى زميله البريطاني والأميركي مفادها أن التحريات كانت «سلبية تماماً» وانه لم يعثر على أثر للتاكسي أو لركابه في المنطقة السوفياتية، وأردف يقول «انه يرجو ألا يكون المندوبان الساميان البريطاني والأميركي قد ساورهما الشك حقاً في أن للسلطات السوفياتية يداً في هذا الحادث المؤلم في أي صورة من الصور..»

وكان الدكتور لينز مع زميله الدكتور تيودور فريدنو قد قاما بحملة لمكافحة الشيوعية في برلين سنوات طويلة، يعاونهما العمدة الراحل ارنست رويتر، وأصدرا عدداً من النشرات تكشف عن نشاط الجواسيس، أما السبب المباشر «لتصفية» لينز فكان على ما يظهر نشره وثيقة تفضح مدى تنظيم وتسليح «بوليس الشعب» في ألمانيا الشرقية، ومدى تعاونه مع التشيكا. وقد عرضت حكومة ألمانيا الشرقية نيابة عن التشيكا على ما هو واضح مكافآت وصلت إلى ١٠٫٠٠٠ مارك (٩٠٠ جنيه) ثمناً للينز وفريدنو.

ولقد استخدمت وسيلة الخطف في كثير من الحوادث الأخرى للقضاء على الخونة الشيوعيين، ومعظمهم من عملاء التشيكا الذين هربوا من صفوفها إلى الغرب، إلا أنه ثمة اختلاف جوهري بين معاملة المناهضين للشيوعية ومعاملة المرتدين، فالهدف في حالة المناهضين للشيوعية مثل ميلر ولينز هو الاختفاء دون ترك أي أثر من الآثار، أما في حالة المرتدين فلدى أعضاء طوائف التشيكا المتنقلة الأوامر بأن يخلفوا وراءهم جثث الضحايا لتكون عبرة لمن تحدثه نفسه بأن يولي موسكو ظهره. وليس أصدق على التمثيل بالوسائل العنيفة التي يلجأ إليها رجال التشيكا في الانتقام، من حادث أجناس ريس، وهو مدير مقيم سابق في الادارة السرية السوفياتية.

فبينا كان أصحاب المحلات يفتحون محلاتهم في الصباح الباكر من ٥ أيلول

(سبتمبر) سنة ١٩٣٧ في شارع شامبلاند بلوزان ، لاحظوا أن سيارة كبيرة تحمل أرقام مقاطعة برن تقف على الجانب الخطأ من الطريق . وكانت السيارة تبدو خالية ، غير أن بعض أصحاب المحلات قصدوا إليها فوجدوا رجلاً فاقد الحس في أرضية الجزء الخلفي منها ، تلطخت ثيابه بالدم وتجمعت حوله بركة من الدماء . وتبين البوليس ان الرجل قتل داخل السيارة بأن انهال عليه الجناة بمدفع رشاش . وقد وجدت سبع رصاصات في صدره وبطنه وخمس في رأسه ، ويبدو أن القاتل أو القتلة كانوا يطلقون الرصاص ويطلقون ، كأن الغضب أخذ منهم كل مأخذ . ولم تبذل محاولة لإخفاء شخصية القتيل ، فقد وجد في جيبه جواز سفر صادر من الجمهورية التشيكوسلوفاكية باسم هانزارهرت من براغ وعمره ٤٥ سنة ومتزوج . ولم يمس الجناة مبلغاً كبيراً من الفرنكات السويسرية وساعة فضية وغير ذلك من الأشياء الثمينة التي كانت معه مثل علبة سجائر فضية وخاتم من الذهب يحمل توقيعه . وقد انطبقت قبضة الرجل اليمنى على خصلة من شعر امرأة جللّه البياض ، والظاهر أنه انتزعه من رأسها أثناء قتال مستميت .

وقد اتضح ان السيارة كانت قد استأجرتها منذ يومين من كاراج الكازينو على جسر كرسنفلد في برن امرأة قالت ان اسمها فراولين ريناتا ستينر ، وقد شاهد صاحب الكاراج رخصة قيادتها فتبين أنها مواطنة سويسرية ، ودفعت ١٥٠ فرنكاً تأميناً عن السيارة .

ونشرت الصحف السويسرية قصة الاغتيال الغامض ، ووصفت القتيل ، ولكنها لم تنشر شيئاً عن مسز ستينر التي كان البوليس يبحث عنها ، وما ان انقضت ساعة على توزيع «الغازيت دي لوزان» حتى زارت امرأة رئيس البوليس الجنائي بلوزان ، وقالت انها زوجة أجناس ريس وتخشى أن يكون القتيل زوجها، فصحبوها إلى المشرحة وانهارت أعصابها عندما تحققت مخاوفها.

ولم يكن لدى البوليس علم بهانز ارهارت ، أما أجناس ريس فقد كان معروفاً للبوليس والمخابرات في أوروبا كلها بأنه عميل من عملاء السوفيات خدم

الادارة السرية السوفياتية في ألمانيا وفرنسا وفيينا وهولندا واسكندينافيا وهو بولندي المولد وكان في الأربعين من العمر عند اغتيـــاله ، وكان أحد المديرين المقيمين لشبكة التجسس السوفياتية في فرنسا . وكان من أتباع السوفيات سنين طويـلة ، مثل زينوفييف وكامنييف وبوخارين وسميرنوف وراكوفسكي ، وهم الذين عارضوا ستالين فأعدموا أو ألقي بهم في غياهب السجون خلال التطهيرات ، وقد تلقى ريس في تموز (يوليو) سنة ١٩٣٧ إنـذاراً بأنه إذا لم يذعن لأمر استدعائه إلى موسكو فانه « سيعامل معاملة خائن ويعاقب وفقـاً لذلك » ، فكتب خطاباً إلى « السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي العـام » — أي إلى ستالين — ولو انه لم يذكر اسمه إمعاناً في تحقيره ، وقد سلم ريس هذا الخطاب إلى زينيترين المدير المقيم الجديد في باريس ، وقد كان رسمياً رئيس البعثة التجارية السوفياتية .

وقد اقتبس هوغو ديوار في كتابه « قتلة مطلقو السراح » عبارات من هذا الخطاب ، وكان ريس قد سلم صورة منه إلى زوجتـــه . وقد كتب جاسوس التشيكا الأكبر السابق في رسالة وداعه لستالين يقول : « .. هذا الخطاب الذي أكتبه لك اليوم كان ينبغي علي أن أكتبه لك منذ أمد طويل ، يوم قتـــل الستة عشر [1] في حجرات لوبيانكا بأمر من أبي الشعب . لقد لزمت الصمت وقتئذ ، ولم أرفع صوتي بالاحتجاج في الاغتيالات التالية ، ولذلك أثقلت على ضميري بما حملته من مسؤولية كبيرة . ان ذنبي لعظيم ، ولكنني سأسعى إلى أن أصلح خطئي وأعوّض ما فات بسرعة حتى تطيب نفسي ويرضى ضميري ، لقد تبعتك حتى الآن ، أمـا منذ الآن فلن أتبعك خطوة واحدة ! هنـــا يختلف طريقنا ! ان الذي يلزم الصمت في هذه اللحظة يصبح شريكاً لستالين وخائناً لقضية الطبقة العاملة والاشتراكية . لقد قاتلت منذ كنت في العشرين من عمري

---

١ — جرت محـــاكمة الستة عشر (زينوفييف وكامينيف وغيرهما) في آب (أغسطس) سنة ١٩٣٦ وقد أعدم جميع المتهمين .

في سبيل الاشتراكية ، وتشهد لي ستة عشر عاماً من الخدمة السرية ، وهذا أمر لا يستهان به . ولكن بقي لي من القوة ما يجعلني أبدأ الكفاح من جديد ، ذلك ان خلاص الاشتراكية يقتضي (بداية جديدة) . لقد بدأ النضال منذ أمد بعيد وسأنضم إلى صفوفه ، وستحاكم الاشتراكية الدولية كل من اقترف إثماً خلال السنوات العشر الماضية ! ولن يمتد النسيان أو العفو إلى شيء ... ان التاريخ سيد صارم ، وعلى (الزعيم العبقري ، أبي الشعب وشمس الاشتراكية) أن يجيب عن كل ما اقترفت يداه ... سأعود إلى الحرية ، إلى لينين وتعاليمه ، إلى مبادئه ... ! »

ولقد أخطأ ريس ، إذ حسب أن من الممكن له أن يعود إلى عالم الحرية . فإن من يرسل خطاباً كهذا إلى ستالين لا يجوز أن يراوده الأمل في الهرب من انتقام الرجل الذي قال : « النوم يكون أهنأ بعد أن تسوي حسابك مع عدوك » . وكان ريس قد ظل اشتراكياً مخلصاً وشيوعياً لا يزال يؤمن بمثل لينين العليا ، ولم يكن ثمة خطر من أن يفشي أسرار خدمته مع التشيكا إلى الغرب ، ولم يطلب ريس أن يكون لاجئاً سياسياً ، ولم يتصل بالسلطات في فرنسا أو يطلب الحماية ثمناً للخيانة . وكل ما فعل أنه استقال من التشيكا ، ولكن رجال التشيكا لا يستقيلون .

وارتكب ريس جريمة أخرى لا تغتفر ، فقد كتب في حاشية ذيل بها خطابه :

« لقد أنعم عليّ في سنة ١٩٢٨ بوسام العلم الأحمر لخدمات أديتها لثورة الطبقة العاملة ، وأنا أطوي كتابي هذا عليه ، فانه مما لا يتفق وكرامتي أن أتقلده في نفس الوقت الذي أتقلد فيه صورة جلاد أفضل ممثلي العمال الروس » .

واضطرب نوم ستالين ، وكان لا بد له من أن يسوي حسابه مع ريس ليعود هادئاً هانئاً كما كان ، وقد اعتبرت التشيكا وهي تواقة إلى إرضاء ستالين الذي جن جنونه غضباً وغيظاً ، أن « تصفية » ريس أمر على جانب عظيم من الأهمية ، فأطلقت خلف هذا الخائن الوقح ثلاث طوائف متنقلة .

وقد تولى الكولونيل ميخائيل شبفلغلاس تدبير خطط الاغتيـــال بالجملة . وكان هذا الكولونيل نائب رئيس القسم الخارجي من التشيكا ، وقد بقي في باريس فترة طويلة للتفتيش على شبكات التجسس الفرنسية في طريق عودته من الحرب الأهلية الاسبانية . وكان برأس إحدى الطوائف المتنقلة عميل مثالي من رجـال التشيكا ، كانت له أسمــاء مستعارة كثيرة ، وعرف في المنظـمات الاوروبية لمكافحة التجسس باسم رولاند أبيات ، من مواليد لنـدن ومن أهل مونا كو ، وكان في وقت من الأوقــات نائب المدير المقيم في براغ وكان اسمه المستعار في حادثة ريس هو فرانسوا روسي ، وكانت ثمة طائفة متنقلة أخرى تحت رئاسة فلاديمير كونراديف وقد قضى في باريس شطراً من الزمن كموظف في جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي ، وهي إحدى جبهات العلاقات الثقافية ، وقد تخصصت شبكته في تأثر خطى النــازحين الروس في فرنسا ، وكان على رأس طـــائفة ثالثة من الجلادين المتنقلين سيرج افرون ، وقد أوفد إلى باريس كمراسل لبعض الصحف السوفياتية ، وكانت كل طائفة متنقلة تضم عدداً من الأعضاء بعضهم كان يسافر بشق الطرق إلى موسكو ، والبعض ينتخب من العملاء السريين الموجودين فعلاً في فرنسا وسويسرا .

ومن الأمور الطريفة في حادث اغتيال ريس ذلك الدور الذي عهد به إلى ريناتا ستينر المعلمة السويسرية ، وهي العضو الوحيد في عصابات القتل التي قبض عليها فعلاً وقدمت للمحاكمة. ان ذلك الدور يكشف عن طريقة معاملة الادارة السرية السوفياتية لمن تستخدمهم .

ولدت ريناتا ستينر في سانت جول واشتغلت بمهنة التعليم في زوريخ واشتركت وهي طالبة في الحزب الشيوعي السويسري الصغير . وفي سنة ١٩٣٤ ، وكانت في السادسة والعشرين من العمر ، خرجت في رحلة إلى روسيا ، وهناك سجل اسمها « كمعاونة » وطلب إليها أن تتصل بإحدى شبكات التجسس الفرنسيـة وفقاً لما درجت عليه التشيكا من عدم استخدام العملاء في الدول التي ينتمون إليها . ثم زارت روسيا مرة أخرى بعد ذلك بسنتين ، وقررت أن تكف عن

التدريس وأن تصبح عميلة من عملاء السوفيات المتفرغين . وبالرغم من هذا فانها ظلت غريرة كما كانت ولم يعهد إليها إلا بالمهام الصغيرة . وفي سنة ١٩٣٦ ناطت بها إحدى الشبكات الفرنسية العمل كمساعدة في محل للآثار القديمة في شارع بونابرت بباريس، وكان المحل يستخدم وقتئذ لتوصيل رسالات التجسس الصادرة من الشبكة التي يديرهـا العميل لارين سكرتير منظمة جبهة « اتحاد ترحيل الروس إلى روسيا » .

وفي آب (أغسطس) من ذلك العام صدر الأمر إلى ريناتا ستينر بأن تتأثر خطى اثنين من الروس كانا معروفين في باريس باسم السيد والسيدة ليوسيدوف، ولم تكن تعلم أن ليو سيدوف هو ابن ليو تروتسكي ، وأن عملها هذا لم يكن إلا مقدمة لمصرع سيدوف الذي اغتالته طائفة كونراديديف المتنقلة في ١٦ شباط (فبراير) سنة ١٩٣٦ ، بعد اغتيال أجناس ريس بستة أشهر ..

وقد تبعت آل سيدوف في رحلتيهما إلى هولنـدا وسويسرا وأبلغت عمن قابلها من الرجال ، وكان أحدهم « رجلا نظارته ذات زجـاج سميك » وهو أجناس ريس ، وكان لا يزال أحد جواسيس التشيكا البارزين وقد اتصل سراً بابن تروتسكي ، وكانت ريناتا ستينر تعطى مبالغ تتراوح بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ فرنك لتنفق منها ، وكانت تقدم عنها بياناً غاية في الأمانة ثم صدر إليها الأمر أخيراً بأن تلحق بطائفة افرون للمهمات الخاصة وجعـل اجرها ٢٠ فرنكاً في الأسبوع ، وهو أجر ضئيل جداً حتى في سنة ١٩٣٧ وفي آب (اغسطس) سنة ١٩٣٧ أصبح البحث عن « الرجل ذي النظارات » من الأمور العاجلة الملحة .

لقد رمى ريس بقفازه في خطابه الذي كتبه في تموز (يوليو) ولم يعد من المشتبه فيهم ، بل من الذين صدر عليهم الحكم بالموت . واكتشف العملاء أنه عند عودته من هولندا استأجر شقة صغيرة في شارع موزار بباريس حيث كان يقيم مع زوجته وطفله باسم مستعار ، وكان لا يزال معه بعض جوازات السفر التي أمده بها القسم الخاص من التشيكا بوصفه مديراً مقيماً . ورحل ريس فجأة إلى سويسرا ، ولعله شعر بأنه مراقب ، واستخدم جواز سفر تشيكياً باسم هانز

ارهارت ، تاركاً زوجته وولده في باريس . واعتقد الجلادون أن ريس سينتظر حتى يحسب أنهم كفوا عن ملاحقته ثم يطلب إلى زوجته وولده أن يلحقا به ، وقد صدق حدسهم ، فقد كانوا يعرفون عنه أنه مثال رب الأسرة الصالح .

وبعد أسبوعين من اختفائه رحلت السيدة ريس ومعها طفلها إلى سويسرا وحاولت أن تخفي طريق رحلتها ، فذهبت أولاً إلى برن ثم سافرت بطريق ملتو مجتازة غرب سويسرا وحطت رحالها أخيراً في فندق بمونترو، وكان ريس قد استقر في الوقت نفسه في فينهو ، وهي قرية صغيرة على منحدرات الجبل الأبيض لا تبعد إلا بضعة أميال عن شاموليكس ، مشتى الحدود الفرنسي المشهور ، وكانت طائفة افرون قد تعقبته ولكنها وجدت من المستحيل عليها أن تنفذ الأوامر الصادرة إليها ، ذلك أنه لم يكن يبارح فندقه إلا نادراً ، مكتفياً بالجلوس في الشرفة يتجاذب أطراف الحديث مع السائحين الآخرين ، فقرروا أن يستدرجوه خارج الفندق .

وصدر الأمر إلى ريناتا ستينر ، وكانت تحمل رخصة قيادة سويسرية بالذهاب إلى برن للبحث عن رجل أعطيت لها أوصافه ، وكان عليها أن تسلمه خطاباً مختوماً ، وقد أصدر اليها هذا الأمر مارسيل رولان وهو أحد العملاء الذين كانت تشتغل معهم في باريس . ووصلت إلى برن في ٢٨ آب (أغسطس) فاقترب منها رجل همس لها بكلمة السر المتفق عليها ، وأخذ منها الخطاب وذهب بها إلى فندق « سيتي » حيث كانت قد حجزت لها غرفة ، وقال لها أن تذهب إلى كاراج الكازينو وأن تستأجر سيارة وأعطاها ٢٠٠ فرنك لتدفعها لو طلب منها الكاراج تأميناً . وفعلت ريناتا ، ما طلب منها أن تفعله ، ثم أمرها الرجل ، وكان هو رولاند أبيات ، أو فرنسوا روسي كما كان يتسمى ، بالعودة إلى باريس . ذلك أن العصابة كانت قد قررت أن ريتا ربما كانت أقل خبرة من أن تشترك في العمل الجدي .

وأخذ روسي منها السيارة وقال لها أن تطمئن عليها . ولكن ما ان عادت ريناتا إلى باريس وقدمت نفسها إلى رولين حتى صدر إليها الأمر بالعودة إلى برن،

وكانت العصابة قد فقدت أثر السيدة ريس ورأت أن ريناتا قد تفيدهم في الاهتداء إليها إذ أنها رأت الأسرة وتعرفها .

وفي ٣ أيلول (سبتمبر) كانت ريناتا قد عادت إلى فندق « سيتي » في برن، وما لبثت أن قابلت امرأة متوسطة العمر اشتعل رأسها شيباً قدمت نفسها إليها بوصفها زميلة ألمانية . وكانت المرأة هي جرترود شيلدباخ ، وهي عميلة من عميلات التشيكا النادرات اللواتي بلغن مركزاً رفيعاً ، وكانت في وقت من الأوقات نائبة المدير المقيم في روما ، وقالت السيدة شيلدباخ لريناتا أنها ستصحبها إلى فينهو حيث شوهد « الرجل ذو النظارات » .

وسافرت السيدتان معاً حتى مدينة سالفان حيث أمرت السيـدة شيلدباخ ريناتا بأن تنزل وتذهب بالأوتوبيس إلى فينهو للبحث عن «الرجل ذي النظارات»، وتقف على ما إذا كانت زوجته وولده قد لحقا به . وفي اليوم التالي لوصولها إلى فينهو شاهدت ريس وزوجته في محطة السكة الحديدية ، يبتاعون التذاكر إلى تريتيت ، وسرعان ما حادثت روسي بالتليفون ، وكان في « أوتيل دي لابيه » بلوزان ينتظر تلك المكالمة ، وكانت مكالمة مقتضبة وفي الموضوع :

« لقد رحل عمي إلى تريتيت » ، وأصدر روسي تعليماته إلى الفتاة قائلاً : « استقلي القطار التالي إلى تريتيت وابحثي عن العم » . إلا أن ريتا طافت في تريتيت ثلاثـة أيام دون أن تقف لأسرة ريس على أثر ، فاتصلت بفندق « دي لابيه » بلوزان . ولكن روسي كان قد غادره ، وأخيراً نفد ما كانت تحمله من نقود فقررت أن تذهب إلى برن وتسأل الكاراج عما جرى للسيارة المستأجرة التي كانت قد تركت فيها السيدة شيلدباخ .

وأدخلها صاحب الكاراج مكتبه وقام بحراسة الباب عـاملان من عمال الكاراج ، ولم توجس ريناتا خيفة إلى أن قفز ستة من رجال البوليس السري من سيارتين للبوليس ، وكان صاحب الكاراج قد استدعاهم ، ولم تكن ريناتا خلال رحلاتها قد قرأت صحيفة فخفيت عليها جريمة القتل التي ارتكبت في شارع شامبلاند بلوزان .

لقد كان ميسوراً للعصـــابة الاستغناء عنها الآن بعد أن قامت بمهمتها واستنفدت الغرض الذي دعا إلى استخدامها . ان ابيات روسي و كونراديبف والسيدة شيلدباخ وغيرهم من الجلادين فرغوا من العمل الذي أنيط بهم وتفرقوا . وحوكمت ريناتا بوصفها شريكة للجناة ، ودافعت عن نفسها بأنها كانت آلة في يد بعض المتآمرين على القتل ، فقد قيل لها ان « الرجل ذا النظارات » إنما هو جاسوس من جواسيس فرانكو يتجسس على اللاجئين الاسبان الهـاربين من الحرب الأهلية ، فرضيت بأن تفوت عليــه أغراضه الشريرة ، وقبـل المحلفون السويسريون حجتها بأنها كانت ألعوبة في يد الجناة وصدر عليها حكم مخفف بالحبس ثمانية أشهر .

ولم يلق القبض على واحد من القتلة ، وان كانت التحقيقـــات قد أثبتت اشتراك بعض عملاء السوفيات المعروفين في باريس في الجريمة ، وكان جلهم قد غادر باريس في ذلك الوقت ، بل ان البعض مثل لارين وجروسوفسكي واثنين من موظفي البعثة التجارية السوفياتية ، وهم الذين رسموا خطة الاغتيال إن لم يكونوا قد قاموا به فعلاً ، لم يلق القبض عليهم ، ولقد استجوب بعض موظفي البعثة التجـارية السوفياتية إلا أن السفارة السوفياتية تذرعت بالحصـــانة الدبلوماسية فلم يقبض على أحد .

واكتشف البوليس الفرنسي اكتشافاً طريفاً لم تقدر أهميته في حينه ، فان رولاند أبيات كان قد طلب قبل الاغتيـــال تأشيرة لدخول المكسيك ، وقد استعمل جواز سفر صادراً من إمارة موناكو، ولعله كان مزوراً، باسم فرانسوا روسي . وكانت مصلحة المهمات الخـــاصة قد دبرت في صيف سنة ١٩٣٧ اغتيال تروتسكي ، وهو الذي استقر به المقام في المكسيك بعد أن طاف أوروبا، وكانت المحكمة العليا للاتحاد السوفياتي قد أضافت إلى حكمها الذي أصدرته في ٢٤ آب (أغسطس) سنة ١٩٣٧ وقضت فيــه بالإعدام على ١٦ عضواً من أعضاء المركز الذي أطلقوا عليه إسم المركز التروتسكي ، وقد شمل هذا الحكم زينوفيف وكامينيف وسميرنوف ، النص الآتي :

« بما أنه ثبت أن ليون دافيدوفتش تروتسكي وابنه ليولنوفتش سيدروف ، وهما الآن متغيبان في الخــارج ، قد أعدا وأدارا تنظيم الأعمال الارهـابية ضد الادارة السياسية (الغيبيو) ودولة السوفيات ، على مــا اعترف به المتهمون وتكشفت عنه هذه المحاكمة ، فانهما يصبحان في حالة وجودهما في أراضي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، عرضة للقبض عليهما فوراً ومحاكمتهما على يد المجلس الحربي التابع للمحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي » .

وكان من المستبعد جداً أن يتحقق وجود تروتسكي وابنه (وكانت فرنسا اعتبرت الابن لاجئاً) « في أراضي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية » طــالما أن حكم ستالين قائم ، ومن ثم كان ينبغي تنفيذ الحكم بواسطة الجلادين المتنقلين أينما ومتى وجد المحكوم عليهما .

ولقد أسهبت في وصف مصرع ريس بعض الاسهــاب ، ذلك أن تدبير اغتياله وتنفيذ الخطة وما تكشف عنه التحقيق الذي قام به البوليس الفرنسي والبوليس السويسري قد أسفرت جميعاً عن أمور لها شأنها العظيم .

وقد مرّ بنا أنه لم يقع في قبضة العدالة أحد من القتلة ، ولم يكن السبب في ذلك كفاية الخطة التي وضعها عملاء السوفيات فحسب ، بل أنه كان من الواضح أن بوليس الأمن في باريس كانت لديه تعليمات سرية بألا يخوض كثيراً في حادثة ريس ، فقد كانت الحكومة الفرنسية تواقة ألا تعكر صفو علاقــات الود التي تربطها بموسكو وأساسها ميثاق الصداقة الفرنسية السوفياتية . وسقطت وزارة لافال في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٦ بسبب الأزمــة الحبشية وخلفتها وزارة ليون بلوم الاشتراكي ، التي كان يؤيدهــا الحزب الشيوعي الفرنسي ، وكان حزباً ستالينياً بطبيعة الحال . وبعد سقوط بــلوم في نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٧ لم يكتف خليفته دالادييه بتأييد الاشتراكيين بل اعتمد على تعاون الجبهة الشعبية مع الشيوعيين الفرنسيين ، ومن ثم غضت السلطات الفرنسيــة الطرف عن أعمال عملاء السوفيات ، وكان هذا هو الثمن الضروري للصداقة بموسكو ، وهي صداقة كان الساسة الفرنسيون في ذلك الوقت يقدرونها أعظم

تقدير ، ولذلك أفلتت من العقاب سلسلة طويلة من الاغتيـــالات ارتكبتها الطوائف المتنقلة في فرنسا بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، وبقيت في صفحة التاريخ ذكرى لنتيجة التدخل السياسي في أعمال البوليس .

وفي ٢١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٧ أغتيل ديمتري نافاشين ، وهو دبلوماسي سوفياتي سابق ، في غابة بولونيا بباريس ، وكان موته قبل محاكمة تطهير السبعة عشر ، ومنهم بيـــاتاكوف ورادك وسوكولينكوف ، بيومين ، ذلك أنه كان قد أعلن في باريس أنه على استعداد لأن يدلي بشهادته أمــــام محكمة مستقلة الرأي في أي مـــكان في الغرب عن الأسباب الحقيقية لمحاكمات موسكو .

ولن يعرف أحد قط ما إذا كان نافاشين استند في هذا إلى وثائق كانت في حيازته وما إذا كانت شهادته من شأنها لو أنه أداها أن تقلب رأساً على عقب تلك الحملة الواسعة التي كانت تقوم بها موسكو لإقناع الرأي العام في العالم الحر بأن المتهمين كانوا خونة وجواسيس نازيين فعلاً . وقد تبع رجلان نافاشين من منزله إلى الغابة ، حيث ألف أن يتنزه قليلاً كل صباح ، وأطلق عليه أحدهما ثلاث طلقات من مسدس كان يحمله ، تحت سمع بعض المارة وبصرهم . وتوفي نافاشين بعد ساعة وهو فـــاقد الوعي ، وأثبت البوليس الفرنسي أن الجريمة ارتكبت « بمسدس أجنـــبي الصنع قطره خمسة ملليمترات وهو غير مـــألوف في فرنسا » . وركض الرجلان بعد أن اقترفـــا جريمتهما إلى سيارة كانت في انتظارهما ، ولم تسفر جهود قاضي التحقيق عن شيء يؤدي إلى القبض عليهما ، وهي جهود لم تكن تتميز ، على ما يلوح ، بالغيرة والحماسة .

وأصدر ليون تروتسكي من منفاه ، بعد اغتيال نافاشين ، انذاراً يقول فيه ان التشيكا قد تلقت الأوامر « بأن تخرس ألسنة أولئك الذين يعرفون عن محاكمات موسكو أكثر مما يجب أن يعرفوا » . أما ان التشيكا كانت قد تلقت أوامر من هذا القبيل فقد كان ذلك واضحاً من نشاطهم في ميادين أخرى غير الاغتيال، فقد حدثت سرقة غامضة في معهد العلوم السياسية بباريس حيث كان تروتسكي

قد أودع عدة صناديق مليئة بالوثائق قبل أن يرحل إلى المكسيك . وظل الحادث سراً من الأسرار لم يتوصل التحقيق إلى أغواره بالرغم مما كان يبدو من أنه ليس من المعقول أن يسرق نصف طن من الورق ، وأن ينقل إلى عربات للنقل ، ثم تنطلق هذه العربات دون أن تلفت اليها نظر أحد . ولا شك أنه كان للتشيكا شركاء في المعهد .

وأعرب تروتسكي في إنذاره عما كان يساوره من خوف على سلامة ابنه ليو سيدوف ، ولقد كان يأمل أن يعوق التشيكا عن إنزال ضربتهم بتوجيه النظر إلى خطرهم ، إلا أن التعليمات التي صدرت إلى التشيكا لم يصدر ما ينقضها. ودخل ليو سيدوف مستشفى في باريس بعد أن شرعوا في القضاء عليه بالسم في شتاء سنة ١٩٣٧ ، ونصحه الأطباء بوجوب إجراء جراحة في المعدة، فأجراها، وظهر عليه من التحسن المستمر ما بشّر بقرب مغادرته المستشفى ، ولكن عملا بأوامر شخص لم يكشف التحقيق عنه قط ، انسحبت ممرضة الليل فجأة . وفي الليلة الأولى ذاتها التي ترك فيها سيدوف وحيداً أصيب « بنكسة غير منتظرة» ، فقد وجده أحد الحراس الليليين عارياً يهذي في الرابعة صباحاً وهو يسير على غير هدى في دهاليز المستشفى، نقول يهذي ، إذ هذا ما كان يلوح عليه وهو يهتف: « النجدة .. النجدة .. النجدة .. لقد سمموني ! » .

واشتبه المستشفى في الظروف التي أحاطت بموت سيدوف حتى انه استدعى البوليس ، وكانت النتيجة التي وصل إليها الطبيب الشرعي هي « انه يمكن أن تعزى وفاة سيدوف إلى أسباب طبيعية » إلا أنه أوصى بمتابعة التحقيق ، واستجوب حارس المستشفى ، وكان عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي ، إلا أن قاضي التحقيق حفظ الدعوة لعدم كفاية الأدلة .

وأصبح عملاء المهمات الخاصة في عجلة من أمرهم ، فانقضوا على رودلف كلينت ، سكرتير تروتسكي ، الذي بقي في باريس لأنه لم يستطع الحصول على تأشيرة يدخل بها المكسيك . وكان كليمنت ضابط الاتصال بين تروتسكي والطوائف الكثيرة من أنصاره في أوروبا ، وفي ١٦ تموز (يوليه) سنة ١٩٣٨

غادر كليمنت منزله ولكنه لم يعد إليه قط ، وبعد ثلاثة أسابيع انتشلت من نهر المارن جثة رجل بلا رأس تعرّف عليها عدة أشخاص بأنها جثة كليمنت .

ولم يكن هؤلاء الضحايا وغيرهم من ضحايا التشيكا في فرنسا في ذلك العهد إلا بعض الاغتيالات بالجملة التي كان هدفها أتباع تروتسكي والمعارضين لستالين والشيوعيين المشتبه في انحرافهم ، وهي جرائم اقترفها رجال التشيكا خلال الحرب الأهلية الاسبانية .

ولم يكن من قبيل المصادفة ان اتفقت مواعيد التطهيرات في روسيا مع موت المئات من أنصار تروتسكي والاشتراكيين « والشيوعيين المنشقين » في اسبانيا . وكان الجلادون من رجال التشيكا يعملون في الشرق والغرب وفقاً لخطة أحكم وضعها ، وقد هيأت اسبانيا فرصة رائعة للقضاء على معارضي سياسة ستالين التي تدور حول « التسلط السوفياتي » ، ذلك أن كثيراً من أعدائه المنفيين كانوا يجتمعون في دولة واحدة حيث الموت فجأة والاختفاء المباغت لا يلحظه أحد تقريباً في فوضى الحرب الأهلية . وكان الحزب الشيوعي « الرسمي » أو الستاليني في اسبانيا قد لعب في السياسة الاسبانية دوراً أقل أهمية بكثير مما لعبته الطوائف المناصرة لتروتسكي والأحزاب الاشتراكية والنقابية والفوضوية . وكان حزب العمال للوحدة الماركسية ، وهو المعروف باسم « بوم » يحجب الحزب الشيوعي « الرسمي » ، وكان زعيم ذلك الحزب أندرياس نين ، وكان نين قد هرب من اسبانيا سنة ١٩٢٠ حيث كان قد حكم عليه بالموت لنشاطه الشيوعي في عهد الملك ألفونس الثالث عشر . وأقام نين وقتئذ في الاتحاد السوفياتي إلا أنه اختلف مع موسكو سنة ١٩٢٨ فأصبح يدين بالولاء لتروتسكي ، وأسس حزب العمال للوحدة الماركسية « بوم » الذي كان عند نشوب الحرب الأهلية الاسبانية الحزب الحقيقي للطبقة العاملة الاسبانية .

وتدفق من أنحاء العالم أجمع آلاف من أنصار تروتسكي ومن الاشتراكيين واليساريين في اسبانيا ليجتمعوا خلف « المخلصين » وخاصة خلف نين ، وقد كان الزعيم الملهم ، وقد اشتركت شتى الأحزاب في الائتلاف الجمهوري أول

الأمر يحدوها هدف واحد هو هزيمة فرانكو ، إلا أنه سرعان ما نشب شجار عنيف بين « البوم » والشيوعيين الرسميين وبين أولئك والفوضويين وبين المنظمات الشيوعية المختلفة والحكومة البرجوازية في الجمهورية . وانك لتجد تفصيل هذا كله في كتب التاريخ . على أن المعروف قليل عن الدور الذي قامت به « التشيكا » وعملاؤها المثيرون الذين تسللوا إلى كل قطاع وكل حزب وكل وحدة من وحدات الفرق الدولية والجيش الجمهوري بقصد إثارة هذه الخلافات وتوسيع شقتها ، وعندما كان الضغط يشتد على الجمهوريين في مدريد في أيار (مايو) ١٩٣٧ نشب القتال بين المدافعين ، وقد أثار هذا القتال زعيم من زعماء الحزب الشيوعي « الرسمي » يدعى سلاس وكان من عملاء التشيكا وقائد « الحرس الخاص » في مدريد . وسرعان ما ألقى اللوم في القتال على نين وحزبه « بوم »، وبينما كانت المدافع الألمانية والايطالية تدك العاصمة الجائعة دكاً أعلن حزب لريدا الشيوعي انه « يجب استئصال شأفة حزب بوم وزعيمه نين تحقيقاً لحرية اسبانيا » .

وفي حزيران (يونيه) سنة ١٩٣٧ « ألقي القبض » على نين واختفى دون أن يترك أثراً وكان هذا إيذاناً باغتيال كل المناهضين لستالين . ومن ضحايا « حرس الهجوم » – وهو الاسم الرسمي لطوائف التشيكا المتنقلة في أسبانيا – الاستاذ جوزيه روبلز من جامعة جونز هوبكنس بالولايات المتحدة وكان قد عاد لمعاونة الحكومة الموالية للملك ، ومارك رين ابن أبراموفتش ، وكيرت لاندو زعيم أنصار تروتسكي في ألمانيا ومحرر صحيفتهم الأوروبية المركزية «درفونكة» و « كاميللو برنيري » وهو زعيم شيوعي إيطالي مبعد ، وأروين وولف وهو تشيكي كان في وقت من الأوقات سكرتيراً لتروتسكي ، وهنري مولان وكان شيوعياً فرنسياً وغيرهم .

وقتل التشيكا أيضاً عدداً من الانكليز وكانوا متطوعين في الفرقة الدولية ، ومن أشهرهم بوب سمايلي من حزب العمال الدولي ، عذبه رجال التشيكا في سجن فالنسيا بوصفه جاسوساً لحزب بوم حتى لقي حتفه ، وهاملتون غولد من الفنيين

في الراديو بمحطة الاذاعة ببرشلونة وقد خطفه عملاء التشيكا ووضعوه على ظهر سفينة سوفيـــاتية مسافرة إلى أوديسا ، ولم تقع عين أحد عليه بعد ذلك . وبينما كان القضاء على التروتسكيين يجري في أسبـــانيا كان معارضو سياسة ستالين البارزون يلقون حتفهم في موسكو ، وقد شملت المحاكمات الكبيرة التي جرت في آب (أغسطس) سنة ١٩٣٦ وكانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٧ كامينيف وزينوفييف و ٢٧ غيرهما ، ولكن بالرغم مما بذله رجال التشيكا مع الشهود فإن هذه المحاكمات حطت من قدر نظام ستالين في عيون العالم ، وقبض في خلال بضعة أشهر على ثلاثة آلاف موظف من موظفي وزارة الداخلية وأمن الدولة قتل معظمهم رمياً بالرصاص . إلا أن ستالين نفسه ، على ما يلوح ، خشي آخر الأمر أن يكون التطهير الذي أمر به قد جاوز الحدود وأن يهبط بإدارته السرية إلى حد تصبح معه عديمة الجدوى ، فأرسل بيزوف رئيس التشيكا إلى مستشفى المجاذيب ليدفن فيه فلا يسمع عنه أحد بعد ذلك .

وكان السبب في المذابح الداخلية المتسعة النطاق التي اقترفها رجـــال التشيكا خوفهم من وجود كثيرين جداً يعرفون أكثر ممـا يجب أن يعرفوا. ولم يكن ستالين ينعم بنوم هادىء ، بالرغم من القضاء على معــــارضيه في الداخل والخارج ، ذلك أن كثيرين جداً كانوا يعرفون الحقيقة ، فقد كان الجلادون المتنقلون لا يزالون في الخارج ، وكان زعماء التشيكا الذين اصطنعوا الشهادات لمحاكمات التطهير ما زالوا على قيد الحياة ، فصدرت الأوامر لعملاء السوفيات في الخارج بالعودة إلى أرض الوطن ، فعاد من اسبانيا جينيس ، السفير السوفياتي ، وملهايل خلتروف الذي كان قد ذهب إلى اسبانيا كمراسل لصحيفـــة برافدا وأصبح مديراً مقيماً ، والجنرال كليبر قائد « المتطوعين » السوفيات والجنرال غوربيف . وكذلك عاد كثير من رجال التشيكا وضباط الجيش الأحمر ، وقد اختفوا جميعاً بعد عودتهم من برشلونة ببضعة أشهر .

وقد تعقدت الأمور في الادارة السرية لأن كثيراً من موظفي التشيكا الذين يعملون في الخارج كانت لهم يد في اغتيالات وقعت في الاتحاد السوفيـاتي في

تاريخ مبكر . ومن سياسة التشيكا تبادل الموظفين بين القسمين الخـــارجي والداخلي حتى أن الرجال الذين يشمل اختصاصهم الرقابة أو معسكرات العمل قد يجدون أنفسهم وقد عينوا للادارة الخارجية والعكس بالعكس . وكان من نتيجة ذلك أن بعضاً ممن اشتركوا في اغتيال كيروف في سنة ١٩٣٤ وفي غير ذلك من الاغتيالات الغـامضة كانوا في سنة ١٩٣٦ خارج البـلاد ، فاستدعوا جميعاً إلى موسكو وكانوا نحو ٤٠ عميلاً أجنبياً لهم شأنهم ومنهم بعض المديرين المقيمين ، وأعدموا رمياً بالرصاص دون محاكمة .

ورفض البعض إطاعة الأمر وظل في الخارج ، إلا أن التشيكا بفضل طول باعها توصلت اليهم آخر الأمر . وكان الجنرال ولتر كريفيتزكي ، من رجـــال وزاوة الشؤون الداخلية ، مديراً مقيماً في البلاد الواطئة ، وقد عاش حتى سنة ١٩٣٩ عندما اغتيل في فندق بوشنطن . أما الكسندر أورلوف الرئيس السابق للمخابرات الاقتصادية للتشيكا فكان قد أوفد إلى أسبانيا في سنة ١٩٣٦ لتقديم تقرير عن مكافحة التجسس ، وقد أفلت من الموت ونشر أخيراً كتاباً عنوانه : « جرائم ستالين السرية » .

ويتعذر علينا أن نسرد تاريخ كافة حوادث الاغتيالات التي قامت بهـــا التشيكا في الوطـــن ، إلا أن مصرع سلوتسكي رئيس القسم الأجنبي بالادارة السرية يستحق منا الذكر . كان سلوتسكي يعتبر من الأهميـــة بحيث لا يمكن التخلص منه كما حدث لغيره من الرؤساء ، ولو إلى أن يتم على الأقل إحـلال رجال جدد « يوثق بهم » محل العملاء الذين في الخارج . وفي ١٧ شباط(فبراير) سنة ١٩٣٨ استدعي مساعد سلوتسكي إلى غرفة حيث وجده على مقعده فاقد الوعي ، وكان أمـــامه على مائدة بعض أقداح امتلأت حتى النصف بالشاي وبعض الكعك ، وأرسل منشور إلى جميع المديرين المقيمين مفاده أن رئيسهم انتابته للأسف نوبة قلبية مفاجئة قضى على أثرها .

ويبدو ان استخدام السم كان قد بدأه ياغودا عندما أصبح نائب منزنسكي. ولقد كان ياغودا في شبابه صيدليـاً ، واستهوته السموم ، وكان قسم المهـمات

الخاصة يستخدم عدداً من العلماء في السموم ، وهيأ لهم معملاً في لوبيانكا ، وكان يطيب لياغودا نفسه أن يجري تجاربه فيه واعترف « ياغودا » وسكرتيره بولانوف خلال محاكمتهما بأنهما قتلا كويبشيف وغوركي وبيشكوف بتزويد الأطباء بالسم ، وقد أعطوه لهم بناء على أوامرهما .

وقد كتب تروتسكي في كتابه عن حياة ستالين يقول :

« كانت اعترافات التسميم تبدو لي كقصة خيالية أبعد ما تكون عن الحقيقة ، إلا أن المعلومات التي بلغتني فيما بعد حملتني على تغيير حكمي عليها . لم يكن كل ما في المحاكمات كاذباً ، بل كان ثمة من ماتوا بالسم وكان ثمة من ناولوهم السم ، ولم يكن المجرمون جميعاً يحتويهم قفص الاتهام ، بل كان منهم من هو مطلق السراح ، وكان أعظم هؤلاء شأناً هو الذي يدير المحاكمة بالتليفون ، وما كان ياغودا ليأخذ على مسؤوليته قتل غوركي بالسم ، بل ما كان يعهد بخطة كهذه إلى طبيب من أطباء الكرملين ، ومن ثم فان كل التفصيلات تشير إلى ستالين. ان الذي اختفى هو ياغودا أما صندوق سمومه فما زال باقياً .. » .

ويتضح من شهادة خوخلوف أن صندوق السموم الخاص بياغودا ما زال موجوداً وان كان ستالين قد قضى .

وما ان حلّت سنة ١٩٣٨ حتى كانت التشيكا قد قضت على كل معارضة جدية ، ولم يبق لها إلا أن تسوّي حسابها مع واحد فقط وهو ليون تروتسكي وكان يعيش منفياً قرب مدينة المكسيك . وقد عهد بهذه المهمة إلى بيريا ، واشترط في تنفيذها ألا تنطوي على أية إشارة تشير إلى موسكو . وأعدّت لاغتيال تروتسكي خطتان ، بل ثلاث خطط ، وكانت إحدى هذه الخطط هجوماً وهمياً قامت به في أيار (مايو) سنة ١٩٤٠ عصابة من الشيوعيين الاسبان والمكسيكيين يقودهم ثلاثة من عملاء التشيكا وقد تزيوا بالزي العسكري المكسيكي ، وقد أعدّ لهم هذا الزي مارتيو ماتينز زعيم الحزب الشيوعي المكسيكي ، وقد خطف في هذا الهجوم روبرت شيلدون سكرتير تروتسكي الأميركي ، وعثر على جثته بعد ذلك في أحد الأكواخ . وفي ليلة ٢٣ أيار (مايو)

هاجمت العصابة فيللا تروتسكي بالقنابل الحارقة والمدافع الرشاشة ، ونجا تروتسكي وزوجته من سيل الرصاص المنهمر على غرفتيهما ، بأن غاصا تحت الفراش ، إلا أن حفيدهما وكان في الحادية عشرة من عمره أصيب بجرح . ولكن حراس تروتسكي أكرهوا المهاجمين على الفرار وطاردهم البوليس ، ولم تعرف شخصياتهم قط . ثم حصّن تروتسكي منزله بحيث لا يمكن أن تقتحمه إلا الدبابات . وأمرت موسكو بتنفيذ الخطة الأخيرة وكانت قد أعدت منذ ١٨ شهراً . وشغل العالم بذلك الدمار الذي حلّ بأوروبا فلم تتسع أعمدة الصحف لوصف هجوم ٢٣ أيار (مايو) ولا للحادث الذي قتل فيه تروتسكي بعـــد ذلك بوسيلة أكثر مكراً ودهاء .. ففي ٢٠ آب (أغسطس) سنة ١٩٤٠ أدخل تروتسكي إلى غرفـة مكتبه رجلاً يسمى جاكسون ، قدمته إليـــه سيلفيا أجيلوف من أنصاره الغيورين ومن صديقات زوجته ، وقد وعدها تروتسكي أن يراجع مقالاً كتبه هذا الرجل ، وأخذ تروتسكي يتصفح المقال بينما وقف الرجل خلفه وما لبث الرجل أن أخرج من جيب معطفه مسواكاً غرسه في مؤخرة رأس تروتسكي ، ودخـــل طرف المسواك مخ تروتسكي ، فصرخ وجاءت زوجته وحرسه مسرعين ، وصاح تروتسكي : « يجب ألا تقتلوه ، بل يجب ان يتكلم فهو موفد من الادارة السياسية » ، ثم خرّ مغشياً عليه ، وقضى نحبـــه في صباح اليوم التالي . وعندما ألقى الحراس القبض على جاكسون صرّح تصريحاً غريباً إذ قال : لقد كنت مكرهاً على ارتكاب الجريمة ، فانهم يتمسكون علي بشيء ! ان أمي رهينة في السجن عندهم ! » .

وقال جاكسون للبوليس المكسيكي ان اسمه فان دن درشد وأنه بلجيكي ، وقد خيم الغموض على اسم الرجل فدعي مورنارد رسمياً ، وقد زعم أنه قتل تروتسكي لأنه هاله أن يجده في قرارة نفسه عدواً للطبقات العاملة وأنه حـاول فعلاً حثّه على السفر إلى موسكو لاغتيال ستالين ، وكانت روايته خياليـــة لا يقبلها العقل ، وبعد تحقيق مستفيض اتضح ان الاسمين جاكسون وفان دن درشد اسمان مستعاران . وحوكم القاتل وحكم عليه في نيسان (ابريل) سنة

١٩٤٣ بالسجن عشرين عاماً ويوماً . وكان العالم وقتئذ نهبـــاً للحروب ، ولم يتسنَ الكشف عن شخصية القاتل وتحركاته إلا فيا بعــد وبالاستعانة ببوليس ست دول ، وثبت أن الاسم مورنارد اسم مستعار كاسميه السابقين .

عندما كان بيريا يبحث في سنة ١٩٣٩ عن رجل كفء يستطيع أن يخترق الحجاب الواقي الذي أحاط به تروتسكي نفسه ، اقترح عليه أن يستعين بكارديداد مركادر ، وهي امرأة من قطالونيا كانت عميلة للتشيكا منذ سنة ١٩٣٠ تدربت على الجاسوسية في موسكو وكانت رئيسة خلية للتجسس في فرنسا ، ومن أهم عملاء التشيكا الذين يعملون تحت امرة شبغلغلاس في العملية الاسبانية . وكانت وقتئذ (سنة ١٩٣٩) تقيم في باريس ، وصدر إليها الأمر بأن تبحث عن رجل كفء يستطيع التودد إلى أحد أنصار تروتسكي في باريس ويكون حـائزاً لثقة الزعيم . واختارت كارديداد ، على ما تثير الفكرة في النفس من اشمئزاز ، ابنها الأكبر لهذه المهمة ، وهو رامون جاكوب دل ريو مركادر ، وكان يشتغل وقتئذ لحساب الكومنترن في باريس ، وأفلح في مصادقة سيلفيا أجيليوف في باريس باسم جاكسون . وذهبت سيلفيا إلى نيويورك في مستهل سنة ١٩٣٩ ، وتبعها جاكسون في أيلول (سبتمبر) مستخدماً في ذلك جواز سفر كندياً رقم ٣١٣٧٧ صادراً باسم أنطوني يانغ في سنـــة ١٩٣٧ . وكان يانغ يوغوسلافياً اكتسب الجنسية الكندية سنة ١٩٢٩ ثم انخرط في سلك الفرقة الدوليـــة في اسبانيا سنة ١٩٣٦ . وكان جواز السفر واحداً من مئات سرقها رجال التشيكا أثناء الحرب الأهلية .

ومع ان اسمه كان يانغ في مكتب الهجرة الأميركية وعنـــد سلطات البوليس ، إلا أنه أقام في نيويورك باسم جاكسون ، وأصدر إليه المدير المقيم التابع للتشيكا تعلياته ، وكان اسمه روبرتس . وقد قال لمس أجيلوف ان دواعي العمل تقتضيه أن يرحل إلى مدينة المكسيك .. ودلت أبحاث البوليس فيا بعد على أن العنوان الذي أعطاه لها كان عنوان رجل اشترك في الاعتـداء الأول على تروتسكي ، ودبر الأمر بحيث تقدمه سيلفيا إلى تروتسكي عنـد

قدومها إلى المكسيك ، متذرعاً بأنه يريد أخذ رأيه في أسلوبه . وكان تروتسكي شديد الحرص في مقابلة الأجانب ، إذ كان يعلم أنه رجل حكموا عليه بالموت ، إلا أن سيلفيا جاءت بجاكسون في زيارة تودع فيها آل تروتسكي ، وقدّمته إلى تروتسكي ، فوعده هذا بأن يعاونه ويمدّه بمشورته . وعادت سيلفيا إلى نيويورك وتبعها جاكسون وكتب إلى تروتسكي يشكره على حسن استقباله وقال انه يرجو أن يجد عنده المشورة عندما يعود لزيارة المكسيك . وكان القصد من هذا دفع أي اشتباه . وزار جاكسون تروتسكي عدة مرات كلما كان يذهب إلى المكسيك . على أن زيارته له كانت تحدث دائماً ومعه بعض الضيوف ، وكان ينفق عن سعة ، واشترى سيارة أميركية غالية الثمن وأعطى سيلفيا ٣٠٠٠ دولار وقال لها انه ربح من عملية تجارية ربحاً كبيراً لم يكن ينتظره .

ثم جاءت زيارة ٢٠ آب (أغسطس) المشؤومة ، واغتيال تروتسكي ، وقد تبين بعدئذ أن جاكسون كان خلال الأشهر القليلة السابقة للقتل شكساً ، ولعل ذلك مرده أنه كان يدرك ألا نجاة له ، وأن حرس تروتسكي لا بد أن يقتلوه هو أيضاً . وكانت هذه خطة موسكو – ألا يعيش جاكسون ليتحدث عمن أرسله . ولكي يطمئنوا على تنفيذ الخطة التي عهد بها إليه استدعوا في موسكو أمه وأخاه الأصغر المصاب بالسل ، وقيل لجاكسون انهما أودعا السجن ليكونا رهينتين ، وهذا يفسر صرخته الغريبة : « انهم يتمسكون علي بشيء ! ان أمي رهينة في السجن عندهم ! » وكان جاكسون وهو في السجن المكسيكي بعد إدانته يكاد يقتله الرعب من أن يلقى حتفه غيلة ، فرفض مقابلة أي إنسان – وكان يشتبه في وجود السم في طعامه ، ويعتبر جدران السجن وحراسه ضماناً لسلامته . ولعله كان واثقاً من أن الأوامر قد صدرت « بتصفيته » حتى لا يفشي شيئاً من الأسرار التي ائتمن عليها . وأفرجت موسكو سنة ١٩٤٥ عن كارديداد مركادر العجوز ، فذهبت لتعيش في المكسيك ، وأخذت تزور ابنها زيارات كثيرة ، ولعل وفاة ستالين شجعت جاكسون ، فقد طلب الافراج عنه

في تموز (يوليو) سنة ١٩٥٤ إلا أن طلبه رفض .

وهذه الحوادث التي ارتكبها عملاء التشيكا وطوائفها المتنقلة في الخارج ان هي إلا أمثلة اخترناها من قائمة طويلة جداً . واني لأشك في إمكان وضع قائمة كاملة بكل هذه الحوادث ، وربما وجدنا في سجلات التشيكا تعليل العشرات بل المئات من « حوادث القتل الغامضة » التي وقعت في كثير من البلاد .

الفصل الثاني عشر

جواسيس يطرقون الأبواب

ذكرنا في فصل سابق كيف ان الادارة السرية السوفياتية تلجأ إلى التهديدات الصريحة أو الماكرة لإكراه النــــاس الذين لهم أقارب في أقاليم يسيطر عليها السوفيات أو الشيوعيون على أن يقوموا بأعمال التجسس ، وهذا النشاط الذي تقوم به تلك الادارة يستحق شيئاً من التفصيل .

بدأت الاعلانات في سنة ١٩٤٥ تظهر في الصحف الكندية وخاصة تلك التي تنشر باللغات الأوكرانية والبولندية والليتوانية متضمنة أن الأشخاص القادمين من مناطق تدخل في جمهوريتي أوكرانيا وروسيا البيضـــــاء الاشتراكيتين السوفياتيتين كنتيجة للحرب ، عليهم أن يسجلوا أسماءهم في مكاتب أنشأتها الادارة القنصلية التابعة للسفارة السوفياتية ، والغريب في الأمر أن يسمح بنشر هذه الاعلانات إذ لم يكن في سلطة السفارة السوفياتية أن تأمر أحداً في كندا بعمل أي شيء ، ولكن بافلوف رئيس التشيكا في كندا ، الذي كان قائماً بهذه العملية ، اعتمد على حسن نية الحلفاء حيال الاتحاد السوفياتي فقام بهذه الخدعة . ولقد قال جوزنكو في شهادته : « ان الموظفين السوفيات يؤثرون على الكنديين الذين من أصل روسي أو أوكراني ، ويحاولون أن يجعلوا منهم قومــاً تتشبع

عقولهم بالشيوعيـــة ، وهم يضغطون عليهم بأن يوحوا إليهم بأن أقرباءهم سيضطهدون في الوطن ، وليس هذا هزلاً ، بل هو الجد كل الجد ، وقد يقولون للرجل : « إذا أنت لم تقبل العمل معنا فان أخاك أو أختك قد يلقى حتفه » .

وقد تعلمت الادارة السرية السوفياتية هذه الوسيلة من النازيين الذين تجشموا المشاق قبل الحرب للاتصال بمئات الألوف من الألمان والمنحدرين من أصل ألماني المنتشرين في مختلف ربوع العالم . وكان النازيون يقتفون أثر الأقارب في ألمانيـا ويهددون ذويهم في الخارج بإلحاق الأذى بهم إذا هم لم يقبلوا التعاون مع عملاء الغستابو وجواسيس النازي في الخارج، وان كان النازيون في الواقع لم يستخدموا الضغط إلا على نسبة ضئيلة منهم للعمل كجواسيس ، على ان الجميع كانوا يهيأون للعمل إذا دعت إليهم الحاجة .

وقد استمر استغلال الادارة السوفياتية للمنفيين والمهاجرين واللاجئين — بل استغلال الادارات السرية في الدول النائية ، وهي الادارات التي تشرف عليها التشيكا — وتطور هذا الاستغلال وأصبح منظماً كما أيّد ذلك التحقيق الذي جرى في استراليا في قضية بتروف . وكانت أهميـــة استراليا التي أخذت في الازدياد بوصفها دولة صناعية ومن الدول الكبرى التي لهـا شأن في الدفاع في الشرق الأقصى ، وباعتبارها مسرحاً لإجراء التجارب السرية الخاصة بالأسلحة الذرية والصواريخ الموجهة — من الأسباب التي دعت التشيكا إلى بذل مجهود خاص لاستخدام المهاجرين في أغراضها . وكان مئات من الألوف من الأوروبيين الشرقيين قد جاؤوا إلى استراليا منذ سنة ١٩٤٨ من معسكرات الترحيـل من ألمانيا ، وكان معظمهم ممن رحلهم النازيون من بولنـــدا وأوكرانيا وأقاليم البلطيق للعمل سخرة في ألمانيا . وقد كرهوا أن يعودوا إلى أوطانهم بعد أن شاهدوا الحياة في العالم الحر حتى وهم داخـل أسوار معسكراتهم . وقد أنشأ الكثير منهم النوادي والجمعيات في الدول التي تبنتهم ، وكان بعضها له ميول واضحة تناهض الشيوعية .

وعندما عيّن بتروف في سنة ١٩٥١ عهد إليه بمهمة رئيسية وهي البحث عن

محبذين جدد في المنظمات المناهضة للسوفيات في استراليا ، وقد عيّن في وظيفة السكرتير الثالث في كانبرا ، وأوكلت إليـــه أعمال القنصلية حتى يكتسب الحصانة الديبلوماسية الكافية بتحقيق الاتصالات المطلوبة ، فان المهاجر قد تدعوه الحال ان آجلاً أو عاجلاً إلى أن يستعلم استعلاماً بسيطاً من قنصليـــة موطنه ، وهذا الاستعلام يوجّه إليه في الحال أنظار الادارة السرية السوفياتية، وفي سنة ١٩٥١ أوفد الكولونيل جوديبف من موسكو إلى استراليا لغرض خاص وهو الاتصال بالمهاجرين القادمين من دول شرق أوروبا ، وفي سنة ١٩٥٣ وصل بافلوف ليعاون جوديبف ولم يتضح هل هو نفس بافلوف الذي كان السبب في النشاط الذي حدث في كندا سنة ١٩٤٥ . وطاف جوديبف وبافلوف بأنحاء البلاد ، وقال بتروف ان معاونة المهاجرين لم تكن إلا ستاراً يحجب التجسس .

وليس أدل على الأهمية التي كانت تعلقها موسكو على « ضباط الترحيل » من ان نفقاتهم كانت تدفع من اعتماد يشرف عليـــه مجلس الوزراء تحت رئاسة ستالين ثم تحت رئاسة مالينكوف فيما بعد ، وحلّت لجنة الترحيل سنة ١٩٥٣ ولكن هذا لم يوقف النشاط ، فقد وضع بلاتكاليس ــ الذي حل محل بافلوف ــ في قائمة التشيكا ، واستمر في الاتصال بالمهاجرين الذين كانت ترسل عناوينهم إليه من موسكو باعتبار أن من الجائز التأثير فيهم . وكانت التشيكا تحصل على العناوين بفض جميع الرسائل الواردة من استراليـا قبل تسليمها إلى أربابها ، وهكذا اكتشفت الادارة السرية السوفياتية أماكن آلاف الرجـال والنساء الذين هاجروا إلى استراليا ، أما إمكان التأثير فكان مرجعه أن لهم أقـارب خلف الستار الحديدي يمكن معاملتهم كرهائن ، وكان القليل من المهاجرين هم الذين لديهم المعلومات عن المواد السرية أو يمكنهم الوصول إليها ، ذلك أنه في معظم الدول الديمقراطية ، وبغض النظر عن المؤهلات الأخرى، يمنع المهاجرون من تولي الوظائف الرسمية أو الاشتغـــال بالأعمال السرية ، ولم تحصل الادارة السرية السوفياتية على معلومات من هذا القبيل بتلك الوسيلة إلا في النادر جداً. إلا أنه كان ثمة غرض آخر لهذا الجهد الذي يبذل ، فقد كان المهاجر يمنى بالثراء

ويشجع على أن تكون صلته بالاتحاد السوفياتي صلة ود"، أو على ما قال جوزنكو أن يصبح مشبعاً بالشيوعية ، والمهاجرون يصبحون ، على مرّ الزمن مواطنين كاملي الحقوق ، وناخبين في الدولة التي تبنتهم فيستطيعون بذلك التأثير في التيارات السياسية .

ثم انه ثمة هدف آخر إذا انقلب الموقف فأصبح ثورياً ، ذلك انه يمكن الضغط عليهم في هذه الحالة وتكليفهم بالمهام العسكرية المعروفة ، فكثيرون منهم يشتغلون في النقل والخدمات العامة حيث لا يقفون على شيء من الأسرار وإنما يتولون مناصب تكون لها أهميتها في حالة نشوب الثورة ، بل أسوأ ما في الأمر أن خلق شعور من القلق وعدم الاطمئنان في قلوب هذه الطوائف الفقيرة والخوف من أن ذراع الكرملين القوية تستطيع أن تصل إليهم عبر آلاف الأميال من المحيط ، إلى قلب الدولة الديمقراطية ، كفيل بأن يحقق الهدف العام وهو إضعاف الدول الرأسمالية .

وأول حادث من حوادث الضغط التي قام بها عملاء السوفيات مستغلين حالة الأقارب الذين كانوا لا يزالون في روسيا وقع في سنة ١٩٤٤ ، فمن الأشخاص الذين سألتهم اللجنة الملكية في كندا سنة١٩٤٦سيدة تسمى هرمينا رابينوفيتش من مواليد ليتوانيا ، وقد نالت قسطاً وافراً من التعليم وتتحدث بخمس لغات . وكانت غاية في الذكاء حقاً ، وقد وفقت إلى وظيفة في مكتب العمل الدولي بجنيف سنة ١٩٢٩ ، وذهبت إلى مونتريال سنة ١٩٤٠ لتعمل فيها وتقيم بها ، وقد ورد اسمها في وثائق السفارة الروسية بأوتاوا ، وكان بعض هذه الوثائق بخطها ، وقد أحجمت عن الشهادة مدعية أنها كانت آلة في يد العملاء عن سذاجة منها ، وقد دل التحقيق الذي قامت به اللجنة على أنه بناء على تعليمات عميل للسوفيات في جنيف يدعى « سيسي» متصل بمكتب العمل الدولي قصدت هرمينا إلى السلطات السوفياتية في كندا ثم اتصلت في نهاية الأمر بـ « جيزيل » وهو الاسم الرمزي لمنظمة المخابرات العسكرية في الجيش الأحمر ، وقد تلقت من هذه المنظمة ١٠٫٠٠٠ دولار أفلحت في تحويلها إلى هذا العميل في سويسرا

عن طريق نيويورك لتنتفع بها طائفة تعمل في أوروبا . وغني عن القول أن الادارة السرية السوفياتية سرعان ما قدرت قيمة حقيبة البريد الخاصة بمكتب العمل الدولي في زمن الحرب وهي الحقيبة التي لا تفرض عليها أية رقـابة ، ثم زودت مس رابينوفيتش فيا بعـد « ليون » (سرجي كودريا فتزيف ، وهو السكرتير الأول للسفارة الروسية) بمعلومات عن مكتب العمل الدولي ، وقد عللت ذلك للجنة بقولها : « ان من حق أي إنسان الحصول على هذه المعلومات، على أنها لم تستطع أن تعلل السبب الذي كان يدعوها إلى تزويده بهذه المعلومات في اجتماعات سرية في الشوارع يحدد موعدها في كل شهر ، بدلاً من أن تقوم بإرسالها بالبريد . وقد سلمت اللجنة بأن المعلومات الخاصة بتواريخ حيـاة الأشخاص المقيدين في مكتب العمل الدولي ، والتي تبدو في ظاهرها ولا ضرر منها ، قد تكون عظيمة القيمة عند الادارة السرية السوفياتية ، وخاصة وهي تبين ميولهم السياسية.

على ان أهم ما في الأمر هو الاعتراف الذي أدلت به إذ قالت : « لقد كنت سعيدة جداً بوجودي في كندا ، وما كان ليطرأ على ذهني أو يدور بخلدي أن أرتكب شيئاً يتعارض وكرم الضيافة الذي ألاقيه أو أن أقترف إثماً ضد هذه الدولة ، وأنا لم تكن لي صلة على الاطلاق بأي نشاط سياسي ، وعندما اتصلت ببعض الأشخاص فيالسفارة السوفياتية كان لذلك بواعث لا علاقة لها بالتجسس، لقد كنت شاهدت أسرتي في ذلك الوقت في روسيا ، وكنت قد حصلت لهم على تأشيرة في وقت من الأوقات لينزحوا إلى هذه البلاد ، إلا أنه لم يسمح لهم بالخروج من ليتوانيا ، وقضوا نحبهم فيا بعد . كنت أعتقد في ذلك الوقت أنهم ما زالوا فيها وانهم ما زالوا على قيد الحياة ، على أنني علمت بعد ذلك بمدة طويلة أنهم توفوا إلى رحمة الله في أعقاب الاحتلال الألماني مباشرة ، ولعل الحماقة بلغت بي حداً جعلني أعتقد أنني بأداء خدمة إلى ا ... وإلى راشيل قد تتهيأ ليالفرصة لمساعدة والدي وأقاربي الذين كانوا مهددين بخطر عظيم في ليتوانيا ، وكان أبي وأمي قد تقدما في السن كثيراً في ذلك الوقت،وكان كل تفكيري منصرفاً إليهما.

لقد استخدموني آلة في أيديهم ، وكنت حمقاء إذ تورطت في هذا العمل . انني لم أحصل منهم على مقابل ، إذ أن الخدمة التي طلبتها منهم لم يؤدوها لي ، وهي السماح لوالدي بالقدوم إلى هنا . لم أكن أشعر انني أرتكب إثماً باتصالي بهؤلاء القوم ، إلا انني كرهت كل هذا العمل كرهاً شديداً عندما تبينت السرية البالغة التي يحيطونه بها ... » .

وفي هذه الحالة بالذات لم يمكن المحافظة على الوعد الذي بذلوه لها بمساعدة أسرتها ، ذلك أن والديها كانا قد توفيا . على أن المألوف هو أنهم لا يبذلون الوعود بمعاونة الأقارب بل يهددون بإلحاق الأذى بهم . والمهاجر من روسيا يعلم أن هذا التهديد ليس تهديداً أجوف ، وقد زاد الضغط في السنوات الخمس الأخيرة على المهاجرين زيادة مطردة . ووسائل الضغط متفاوتة ، فقد تسلم اللاجئون في بعض الحالات خطابات مصحوبة ببعض النشرات ، وتبدو هذه الخطابات في أول الأمر ولا ضرر منها إلى أن يتبين أن من أرسلوا الخطابات لم يحصلوا عليها إلا بالتجسس ، وقد بدأ عمال النسيج الأوكرانيين في لانكستر يتلقون الخطابات موجهة توجيهاً صحيحاً على منازلهم بالرغم من انهم قد انتقلوا إليها منذ عهد قريب جداً ، ومهما غيّر الرجل من عنوانه ، فانه كان يتلقى الخطابات التي كانت تتبعه إلى أي مكان ، وفي حالة واحدة على الأقل كانت الخطابات توجه إلى قوم من ليتوانيا وهي تحمل أرقامهم في المصانع التي يعملون بها ، ولم يكن هذا دليلاً على كفاية إدارة التجسس التي في خدمة الروس فحسب ، بل كان القصد منها ولا شك أن ينطبع في ذهن المهاجر أن التشيكا لا تخفى عليها خافية ، وكانت الزيارات تتبع الخطابات .

ان طرق باب رجل عادي نشأ في دولة ديمقراطية معناه أن بالباب صديقاً أو بائعاً ، أما لمهاجر من دولة يزاول فيها البوليس السري نشاطه فقرع الباب له وقع كئيب وخاصة في بهيم الليل ، لأن الزائرين يكونون عادة من السفارة السوفياتية جاؤوا يستعلمون عن الجنسية وعن الأقارب وما إلى ذلك ، وهي زيارات قانونية لا غبار عليها ، فقد أخطرت السلطات المختصة بزيارات

ستحدث في مناطق خارج لندن ، وقالت وزارة الخارجية انها لا تستطيع منع زيارات لعمال النسيج ، الذين لم يكونوا يدركون ألا إكراه عليهم في الاجابة عما يوجه إليهم من أسئلة ، وان أي اعتداء عليهم يخوّل البوليس حق التدخل .

وساد جو من الخوف بين العمال الأجانب في بريطانيا ووجهت الأسئلة في مجلس العموم ، ولكن لم يكن ثمة قانون يحول دون الدعاية ، وان كان من الممكن اتخاذ الاجراءات إذا ما جاوز عملاء الادارة السرية الحدود . وهناك بعض الحالات المثالية التي تصور الوسيلة التي كانوا يلجأون إليها .

فقد استقر ستانسلاوس باجدر ، ضابط أركان الحرب في جيش الجنرال أندورز البولندي ، في بريطانيا بعد الحرب ، وأصبح عضواً في اتحاد مناهضي الشيوعية الذي كان يسهر على مصالح العمال البولنديين في بريطانيا ، إلا أن زوجته وولده بقيا في بولندا ، واتصل به العملاء وهدّدوه بالانتقام من أسرته بواسطة حكومة وارسو إذا هو لم ينشيء الملفات عن اخوانه اللاجئين ، وكان قد قضى ١٢ شهراً في سجن روسي في بداية الحرب وعرف ما يعنيه هذا التهديد ، وقد قبل أن يعاونهم فصدر إليه الأمر ، بواسطة رجال الاتصالات ، الذين كانوا يتسمون بأسماء رمزية ، بأن يتخذ مقراً له في مانشستر ، وهناك كشف ضباط القسم الخاص التابع لسكوتلاند يارد أمره ورحّلوه عن البلاد .

وتوقّف الطرق على الأبواب الذي كان يخشاه كثير من العمال المهاجرين في شمال انكلترا . على أن توقّفه لم يدم إلا بضعة أشهر ، ذلك أن التشيكا ما عتمت أن وجدت وسيلة تتزوّد بها من وارسو بالأسماء والعناوين والتفصيلات الشخصية ، فعادت الخطابات إلى سيرتها الأولى وعاد طرق الأبواب من جديد .

وقد كشف القسم الخاص لسكوتلاند يارد منذ سنة ١٩٥٠ عن ١٣ بولندياً كانوا يشتغلون بالتجسس ، وقد طردوا من البلاد ، وكانوا يقابلون موظفي السفارة البولندية سراً ، وأفضل ما كانوا يقابلونهم في تاكسي ، وكان اختيار

هؤلاء الجواسيس يتم في بعض الحالات بتهديدات صريحة أو ضمنية تتناول الأقارب في بولندا بالأذى ، وفي حالات أخرى كانت الادارة السرية السوفياتية تنتهز فرصة فتح الغرب أبواب بلاده للاجئين فتدس بينهم جواسيس مهرة بوصفهم هم أيضاً من اللاجئين ، وهذا الاجراء متبع في كافة الدول التي فيها عدد كبير من المهاجرين أو اللاجئين ، فإذا ما بلغت البوليس شكوى من نشاط أحد هؤلاء اللاجئين فان الأمر في غالب الأحيان لا يتجاوز حد الطرد من البلاد دون اتخاذ إجراءات جنائية مع كتمان الخبر على قدر الامكان ، وقد شكا المهاجرون من شرق أوروبا في كندا سنة ١٩٥٣ بأنه ثمة ضغط عليهم للافضاء بمعلومات سرية عن الصناعات التي تمت بصلة إلى الدفاع ، واتضح للبوليس أن عملاء السوفيات قد استطاعوا دخول البلاد كلاجئين حسني النية — واستقروا قرب هذه المصانع وحاولوا أن يكرهوا على التجسس مهاجرين أبرياء لهم أقارب خلف الستار الحديدي .

وازداد سلاح التهديد قوة ، ذلك أنه بمقتضى اتفاق يالطا كان الرعايا السوفيات يمكن ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، اكراههم على الرحيل إلى الوطن عندما يكتشف أمرهم ، فتلافياً لذلك عمد الآلاف من الروس والدول التابعة — وبعضهم كان قد عاون النازيين — إلى اتخاذ أسماء وشخصيات مستعارة حتى يظلوا في الخارج ، وعاونهم في ذلك « تعامي » موظفي الدول الحليفة الذين كانوا يعطفون عليهم ، وانقضت الأعوام وجرى البحث في « فهرس موسكو » فاتضحت حقيقة شخصية بعض هؤلاء المبعدين فأصبحوا مادة خصبة للتهديد ، ذلك أنهم كانوا — من الوجهة الفنية — يقيمون في البلاد التي هم فيها بادعاء كاذب — يتعرضون للطرد من تلك البلاد ، ولو ان السلطات البريطانية أو الأميركية أو غيرها من السلطات المختصة عرفت بالأمر لأمكن ، على أغلب الظن ، تصحيح وضع هؤلاء اللاجئين ، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يخشون التقدم وقول الحق حتى يتخلصوا من شر التهديد ، ونحن لا ندرك سبباً لذلك .

وليس من المحتمل أن تخفف الادارة السرية السوفياتية وهيئاتها في الدول

التابعة لها ضغطها على الملايين من اللاجئين والمهاجرين ، على أن العملاء السريين لا يجدون عند أولئك الذين فقدوا كل شيء حتى الأقارب ، أو الذين نجحوا في استقدام أقاربهم ، إلا استقبالاً بارداً معادياً ، ويكون حظهم من النجاح معهم ضئيلاً ، ويقل النجاح على مرّ السنين . ذلك أن المهاجرين لا يلبثون أن يعرفوا حقوقهم بوصفهم مواطنين في دولة حرة ، ويقل خوفهم شيئاً فشيئاً من طرق الباب. أما أولئك الذين خلّفوا أقارب وراءهم فان الضغط عليهم يكون قوياً وهم يخشون الالتجاء إلى البوليس لئلا ينفذ العملاء ما يهددونهم به من الانتقام من ذويهم . وثمة دلائل على أن الادارة السرية السوفياتية تواجه الآن مشكلة ، هي أن إدارات البوليس والهيئات التي تكافح التجسس في الدول الانكلوساكسونية قد قررت ألا تكتفي بانتظار ما يقدم إليها من شكاوى بل وجدت من واجبها، ومثل هذا العدد الضخم من العمال الأجانب يعمل في الصناعات الجوهرية ، أن تحميهم من المحاولات التي تبذل لإلقاء الرعب في قلوبهم .

وقد وجدت الادارة السرية السوفياتية في سنة ١٩٥٤ أنه من الصعب عليها أن تقوم بالعمل الذي كانت تعتبره عادياً — وهو أولاً النشرات والصحف من مسقط رأس المهاجر ، ثم طرق الباب لسؤاله عما إذا كان يجب أن يرحل إلى بلده بتذكرة سفر مجانية وضمان وظيفة لائقة له ، وأخيراً يتم العميل حديثه مع المهاجر بقوله : « لا شك أنك تفضل البقاء هنا لأنك وطني تدرك أنك تستطيع خدمة وطنك خدمة أفضل بتزويدنا بالمعلومات.. »، ولدى البوليس الانكليزي صور فوتوغرافية لبعض عملاء السوفيات أو الدول التابعة وهم يسألون المهاجرين ما إذا كانوا يتعرفون على وجه من الوجوه التي يضمها « معرض صور الأوغاد » ، ومعرفة هذا وحده يفت في عضد العملاء الذين يتولون هذا النوع من التجسس، ولكن لا يعلم إلا الروس أنفسهم مدى تعلق المنفي بروابط الأسرة ، ولذلك يطمئن العملاء إلى إنكار اللاجئين معرفتهم بهم خوفاً من القصاص الذي ينزلونه بأسرهم .

الفصل الثالث عشر

الشبكة التي تشمل العالم بأسره

ان المخابرات اللازمة لقيام ثورة عالمية تستوجب جاسوسية عالمية ، ويوجد حوالي ٢٠٠ دولة تنعم بدرجات متفاوتة من السيادة ، من الولايات المتحدة الأميركية إلى امارة موناكو ، وسواء أكانت الدولة تشغل نصف قارة أم كانت مجرد نقطة على الخريطة فانك تجد عملاء السوفيات فيها يقومون بنشاطهم ، ويؤازرهم على وجه عام طابور خامس شيوعي أحسن تنظيمه . ومهما يكن المكان بعيداً أو يسده السلام ، فقد تكون له أهمية في موسكو لأحد الأسباب، فالمناطق التي تلي القطب الشمالي ، وان لم يكن فيها من السكان إلا القليل ، قد أصبحت مجالاً لمواصلات جوية طويلة المدى . والأقاليم الاستوائية قد تكون فيها مصادر لليورانيوم . وجمهورية صغيرة في وسط أميركا قد يصبح لها شأن لمتاخمتها لقناة بناما . وينشط عملاء السوفيات في هذه الأماكن نشاطهم في عواصم الدول الكبرى . وتحمل الغواصات وسفن صيد السمك والحوت السوفياتية ، التي تجول في البحار ، العملاء ليقوموا بالمهام التي تعين لهم .

وأهداف الادارة السرية السوفياتية لا حد لها . ولا يمكننا في فصل قصير كهذا إلا أن نسرد بعض الأمثلة التي تصدق على العالم بأسره ، ففي أقصى الشمال

حوكم ستة من الفنلنديين في تموز (يوليو) سنة ١٩٥٤ ، وهي المحاكمة الثانيـة الكبرى التي حوكم فيها جواسيس في فنلندا في ستة أشهر ، وفي كلتا الحالتين كان المتهمون صيادين ورعاة الغزال الأحمر من لابلاند باعوا إلى التشيكا معلومات عن وسائل الدفاع المقامة في الحدود . وقد شجعهم العملاء بالفودكا والطعـام الشهي اللذيذ على اجتياز الحـدود إلى كاريليا السوفياتية ، وهذان حادثان من حوادث التجسس الكثيرة التي وقعت في البلاد التالية للقطب الشمالي .

وحكم على أسبجورن سوند بالسجن ثمـاني سنوات ، وهو زعيم معروف للحركة التي تناوىء مقاومة الألمان خلال الحرب . وحكم على ايرلنغ نوردي وهو ضابط في الجيش بالسجن ثلاث سنوات ، وكان سوند يعمل لحساب شبكة التجسس السوفياتية منذ الحرب، وقد حدث ذات مرة ، قبل إلقاء القبض عليه في كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٥٣ ، ان تمكن من الهرب من البوليس في سيارة للسفارة السوفياتية وقد بذلت جهود جبارة للمجيء بشهود زور لتبرئته. وقد اكتشفت شبكة للتجسس سوفياتية تعمل خلف جبهة لجنة رعاية قبور الحرب ، فقد كان ٢٠٠ من المواطنين السوفيات قد لقوا حتفهم في معسكرات الاعتقال النازية في النرويج خلال الحرب ، وقتل بعض رجال الجيش الأحمر في تحرير أقصى الولايات شمالاً ، وأذَن النرويجيون ، كدليل على صداقتهم ، للجنة سوفياتية بأن تعنى بالقبور الروسية داخل النرويج،وقد استخدمت هذه اللجنة لتكون ستاراً للتجسس .

وقد حالت اعتبارات تتعلق بالأمن دون نشركل ما هو معروف منمغامرات عمال السوفيات في النرويج ، إلا أن المعلومات أدق وأوفى عن نجاحهم في السويد ، وقد كشفت عنها المحاكمات التي جرت في تلك البـلاد فيما بين سنتي ١٩٥١ ، ١٩٥٣ . وقد قال الأميرال هلف سترومباك قائد عام البحريـة السويدية : ان التلف الذي كانوا السبب فيه يستعصي على العلاج ، فقد انتقلت كافة أسرار الدفاع إلى عملاء السوفيات خلال العشر سنوات السابقة ، وقد تبين أن خمس شبكات على الأقل تعمل بالبلاد في وقت واحد منذ سنة ١٩٤١ . ومن

قبيل ذلك أن أرنست أندرسون ، الضابط في البحرية السويدية ، حصل في ١٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٥١ على خمسة أيام اجازة من عمله الذي كان يؤديه في ستوكهولم لقضاء مهمة عائلية هامة ، إلا أنه بدلاً من أن يقصد إلى « ناسجو » مسقط رأسه سافر إلى كارلسكرونا ، قاعدة السويد البحرية الرئيسية ، وعاد إلى العاصمة في ٢٠ أيلول (سبتمبر) ، وذهب إلى محل لبيع المثلجات حيث استقل دراجة تركها له نيكولاي أورلوف وهو موظف في السفارة السوفياتية ، وقصد إلى « المستشفى الجنوبي » حيث ترك الدراجة في بهوه بعد أن وضع بعض الأوراق في حقيبة الآلة وفي ماسورة المنفاخ . وكان ضباط مكافحة التجسس يتتبعون أندرسون ، ففحصوا الدراجة ووجدوا أن الأوراق هي صورة طبق الأصل من وثائق سرية كتبت بحبر خفي وتتعلق بتجهيز السفن الحربية السويدية التي كانت راسية في قاعدة كارلسكرونا وقد اتضح في محاكمة أندرسون أنه كان يشتغل لحساب شبكة تجسس تحت إشراف المدير المقيم فيكتور أبنسيموف كبير مراسلي وكالة تاس ، وكان أندرسون قد التحق بالشبكة في سنة ١٩٤٦ ، وقد اختاره لها شيوعي سويدي قدمه إلى فينوغرادوف ، وكان وقتئذ السكرتير الثاني للسفارة السوفياتية . ومن المعلومات التي حصل عليها عملاء السوفيات من أندرسون صور وثائق سرية عن تسليح البحرية السويدية وحالتها ومدى استعدادها وعن وسائل الدفاع في القواعد البحرية ، وتفصيلات عن نقط النزول المحتملة وعن وسائل الدفاع في الساحل الشرقي والغربي ، وتفصيلات عن قلعة بودن وهي حصن السويد ضد الغزو ، وقد أمدّ المدير المقيم أندرسون بالنقود فاشترى آلة تصوير غالية الثمن وصوّر المطارات وخاصة قواعد السويد الجوية الرئيسية في لوليا .

وقد قامت شبكة مماثلة بعمل أعظم في الميادين السياسية والصناعية والعسكرية فقد حوكم في تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢ تسعة من عملاء السوفيات في ستوكهولم ، وكانو أعضاء في حلقة التجسس التي يديرها كارلسون الذي كان يشغل بالاسم وظيفة متواضعة هي وظيفة بواب في الجريدة الشيوعية « ناي داغ » .

وكان العميل الأكبر في هذه الشبكة هو فريتجوف أنبوم وهو صحفي بلـغ الثالثة والثلاثين من العمر وكان ضابطاً سابقاً في الجيش السويدي ، وظل عشر سنوات ، أي منذ سنة ١٩٤١ ، ينظم شبكة تجسس تشمل البلاد كلها، واختار لها عدداً كبيراً ممن يزودونه بالمعلومات ، وكانت الأهـــداف التي رسمتها له موسكو هي :

أ – تكوين قوة من ٢٠٠ من المخبرين لتستطيع في حالة الحرب أن تنسف الترسانة المركزية ومحطة القوة الكهربائية في حصن بودن ، وأن تخرب خطوط المواصلات الحديدية ، وتنشر الاضطراب والفوضى في صفوف الجيش السويدي وبين المدنيين بإذاعة أوامر مضللة من محطة سرية للاذاعة .

ب – تنظيم طـــائفة من الأكفاء ذوي النشاط من بين الشيوعيين والذين يعطفون على الشيوعيين في شمال السويد ليعدوا لغزو الجيش الأحمر للبلاد .

جـ – تهيئة معلومات مفصلة عن مناجم الحديد والمصانع .

وقد عهد أنبوم بمهمة اختيار وتدريب المخربين إلى هوجو جرسفولد ، وكان من قبل جاويشاً في الجيش . وكانت الخطة الموضوعة لرجال الطابور الخامس ، وقد زودوا بأسلحة أرسلت إليهم من روسيا ، أن يستولوا على بعض تحصينات الحدود على طول طريق الغزو ، وأن يختبئوا في الأشجار وينقلوا الأخبار عن تحركات الجيش السويدي المدافع . وعندما قبض البوليس على العملاء وجد جهاز إرسال لاسلكي كانت السفارة السوفياتية قد زوّدت به أنبوم ، كما وجـدت بعض الخرائط الخاصة بأركان الحرب والرسوم والصور الفوتوغرافية والرسوم المفصلة لوسائل الدفاع المتخذة في الحدود ، ومواد أخرى كثيرة ، إلى جـانب ترسانة صغيرة من الأسلحة . وكانت في حيازة فنجال لارسن ، وهو رجل من رجال السكك الحديدية ، خطة كاملة لتخريب السكك الحـديدية في شمال السويد ، وكان بعض العملاء الآخرين قد جمعوا معلومات على غاية من السرية عن المدافع الثقيلة والمتوسطة التي دفنت في مصاطب من الغرانيت ، وهي فخر وسائل الدفاع السويدية التي على الحدود وفي المناطق الساحلية وهي تعبأ آلياً

ويضبط الرادار حركتها . وقد حكم على أنبوم وجرسفولد بالأشغال الشاقة المؤبدة . أما غيرهما من العملاء فقد كان نصيبهم السجن من سنتين إلى ثماني سنوات ، إلا أن الدمار كان قد وقع وانتهى ، وكانت السويد تصر دائماً على سياستها ، في أن أي صراع عالمي مقبل ، ستكون الحياد المسلح . أما بعد المحاكمة فلنا أن نتساءل ما إذا كانت المعلومات الوافية التي حصلت عليها موسكو عن وسائل دفاع السويد لم تقض على القاعدة العسكرية لهذا الحياد .

وبينما كانت المحاكمة تجري أقلع أربعة أشخاص من السفارة السوفياتية و ٢٢ شخصاً من موظفي القنصلية والبعثة التجارية ومعهم عائلاتهم على ظهر الباخرة السوفياتية بيلوستروف من ستوكهولم إلى لينينغراد . وكان الاتهام قد وجّه إلى بعضهم أثنـاء المحاكمة إلا أن الحكومة السويدية لم تستطع محاكمتهم نظراً لحصانتهم الديبلوماسية . وأقلع مع الموظفين السوفيات سيث برسن ، زعيم من زعماء الحزب الشيوعي السويدي ، وغوستاف جوهانسن ، رئيس تحرير سابق لصحيفة « ناي داغ » ، وموظف سويدي في وكالة تاس .

وإذا نحن حوّلنا أنظارنا صوب الناحية الأخرى من العالم ، وجدنا أن عملاء السوفيات ينشطون في مناطق القطب الشمالي والمناطق التي تلي القطب الشمالي من سيبيريا والاسكا ، وقد أصبحت لها أهمية قصوى ، ويعتبر الستراتيجيون أن القطب الشمالي هو الطريق الرئيسي لقاذفات القنابل الذرية في الحروب العالمية القادمة . وقد أخذت الولايات المتحـدة تنفق مبالغ ضخمة على الدفاع عن الاسكا ، وهي قريبة قرباً لا يبعث على الرضاء من شبه جزيرة شوشوتزكي السوفياتية ، حيث قامت الحكومة السويدية بدورها ببناء قواعد جوية سرية . ولا تفصل أميركا عن سيبيريا إلا ٣٨ ميلاً من الماء . وفي وسط مضيق بيرنغ جزيرتان ، ديوميد الصغرى الأميركية وديوميد الكبرى السوفياتية وبينهما ميلان فقط . فالقواعد السوفياتية لا توجد اليوم في سيبيريا الشمالية وحدها ، بل توجد أيضاً في جزر كوريل وجزيرة كوماندريسكاي شمالي اليابان . ولقد ظل عملاء السوفيات يحاولون اختراق الاسكا وجزر ألوشيان. أما أن السوفيات

ينتهزون أي فرصة ولو خيالية فدليله أن الجنرال ولتر بيدل سميث ، وكان وقتئذ رئيس المخابرات المركزية الأميركية ، تلقى تقريراً غريباً من أحد عملائه. فقد عبر فريق من اسكيمو الاسكا سيبيريا لمباراة في كرة القدم ، وكان بين اللاعبين السيبيريين عدد من الروس—وكان تنكرهم في شكل الاسكيمو واضحاً، وقد حملوا معهم آلات تصوير دقيقة .

وإذا عدنا إلى أوروبا لا نجد دولة واحدة لم يحظ فيها عملاء السوفيات بالنجاح في السنوات الأخيرة .

وقد كان السبب في اكتشاف شبكة كبيرة في هولندا حماقة ارتكبها أحد ناقلي المعلومات بتركه علبة سجائر تحتوي على رسائل سرية في محطة للأوتوبيس في لاهاي . وكان عملاء السوفيات يستعملون هذه المحطة كصندوق للبريد . وقد روقب الرسل الذين يسلمون الرسالات ويتسلمونها ، وكشف القناع عن أولد ريتش نيومان الذي كان يعمل – بالاسم فقط – محاسباً في السفارة التشيكية في لاهاي ، وعرف أنه من زعماء العملاء . وكانوا في بروكسل وانتورب يلصقون الرسائل تحت المناضد بواسطة لبان المضغ . وكانت المعلومات التي يزود بها عملاء السوفيات في بلجيكا تتضمن أوصاف المطارات التي تستخدمها الطائرات البريطانية والأميركية ، وانتشار الجيوش ، وتفصيلات عن السدود ووسائل الدفاع الساحلية والمهات التي يتلقاها الجيشان الهولندي والبلجيكي من الولايات المتحدة .

ولقد كانت الجاسوسية في ألمانيا الغربية من الاستمرار والتوسع بحيث أنه يتعذر علينا في هذا المقام ان نسرد كل ما كشف من أمرها ، فانه منذ ان اكتشفت في سنة ١٩٤٦ الشبكة الأولى الكبيرة للتشيكا التي كان يديرها العميلان السريان سيدوف وشولكين لم يخل شهر من حادث تجسس في المناطق الثلاث المتحالفة . ومن الحوادث البارزة حادثة ميكاييل روثكروج ، وهو عامل مخابرات أميركي سابق يبلغ من العمر ٥٢ سنة ، وقد حوكم أمام القاضي دويت هوايت من لجنة الرقابة الأميركية في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٣ متهماً

بسرقة وثائق على جانب عظيم من الأهمية . وكان لروثكروج ، وهو من أهالي وستبورت بكونكتيكت ، تاريخ حافل في خدمة المخابرات الأميركية خلال الحرب . وبعد ان استقال في سنة ١٩٥٢ أنشأ عملاً تجارياً بالاشتراك مع ألماني ، إلا أن هذا العمل كان مجرد ذريعة لنشاطه كعميل للسوفيات . واستحال إثبات التهمة عليه في المحاكمة إلا بافراد جلسات سرية . وقد احتلت الصحف الأولى من الجرائد أنباء عميل استطاع فيما يظهر تصوير المفكرة الخاصة بالماجور جنرال روبرت جرو ، الملحق العسكري الأميركي في موسكو ، عندما زار مقر القيادة الأميركية في فرانكفورت. ولم يكن ثمة اشتباه في أن يداً امتدت إليها إلا بعد ستة أشهر عندما ظهرت اقتباسات وصور في كتاب نشر في برلين الشرقية باسم « في طريق الحرب » ، ونسبت إلى الماجور ريتشارد سكوايرز ، وهو ضابط بريطاني اختفى في ألمانيا سنة ١٩٤٧ .

ويلوح ان الادارة السرية السوفياتية في فرانكفورت قد استعانت بخدعة « الجاسوسة الحسناء » ووفقت في ذلك توفيقاً كبيراً ، فلقد كانت ماريا كنوث ، وهي ممثلة ألمانية فاتنة ، تستقبل الضباط البريطانيين والأميركيين في مسكنها الأنيق في ضاحية من ضواحي كولونيا ، وقد ألقى القبض عليها عملاء المخابرات البريطانية ومعها وثائق قيل انها أذهلت قوات الدول المتحالفة ، وقد ظلت تمد عمــــلاء السوفيات بضع سنوات بالاستعدادات العسكرية ومنشآت المطارات وتطور بوليس ألمانيا الغربية وقوات الحدود والخطط الموضوعة للجيش الألماني الجديد . واعترف المفتش هرمان وستبولد من قوة بوليس فرانكفورت ، وكان موضع ثقة كبيرة من الحلفاء ، بأنه كان عميلاً للسوفيات عدة سنوات ، وكان أجره الشهري ٤٥ جنيهاً انكليزياً . وقبض أيضاً على أربعة أعضاء من الشبكة ، إلا أن رئيس الشبكة لم يقبض عليه قط ، وكان الجواسيس يستخدمون جهاز إرسال لاسلكي يحمل باليد ..

ومهما كان الرأي في اجتياز الدكتور أوتوجون ، رئيس الادارة السرية في ألمانيا الغربية ، الحدود إلى المنطقة السوفياتية في تموز (يوليو) سنة ١٩٥٤ ،

فلا شك أنه كان نصراً ظفرت به الادارة السرية السوفياتية عوضها عن هرب خوخلوف وغيره من عملاء السوفيات إلى صفوف الحلفاء في ألمانيا في وقت مبكر من العام نفسه .

وما هذه إلا أمثلة من عشرات . ووجود نحو خمسة ملايين من الشيوعيين في ألمانيا الغربية معناه أن الادارة السرية السوفياتية لا تجد من الصعوبات إلا القليل في الحصول على المعلومات أو إدخال العملاء أو المهربات خلسة .

وهذه هي نفس الحال في النمسا حيث للتشيكا مكتب فرعي لقسمها الخاص بالإرهاب ، مقره بيت امبراطوري سابق في بادن ، على بعد نحو ١٥ ميلاً جنوبي فيينا . ومن قضايا الجاسوسية الكبرى الحديثة في النمسا ، قضية شبكة كان يديرها ضابطان سابقان في الجيش الأميركي ، هما أوتو فربر و كيرت بونجر ، التحقا بالادارة السرية السوفياتية بعد ان اختارهما لها يوري نوفيكوف ، السكرتير الثاني في السفارة السوفياتية بواشنطن سنة ١٩٤٧ ، وكان كلاهما قد التجأ إلى الولايات المتحدة . وبعد ان اكتسبا الجنسية التحقا بالجيش في سنة ١٩٤٣ ، في سلاح المخابرات الأميركي . وقد عملا كمحققين في جرائم الحرب التي ارتكبها غورنغ وهيس وغيرهما من النازيين وحوكموا عليها في نورمبرغ ، ثم عادا إلى نيويورك وطلبا منحتين من المنح الدراسية المخصصة لقدامى المحاربين ليتابعا دراستهما في جامعة فيينا ، وبذلك أصبحا عميلين للسوفيات على حساب دافع الضرائب الأميركي ، الذي دفع أيضاً نفقة سفر عائلتيهما لتلحقا بهما . وقد سهل عليهما عملهما في سلاح المخابرات الأميركي خلال الحرب الاختلاط بضباط الحلفاء . وقد حوكما أمام هيئة من المحلفين العظام في واشنطن سنة ١٩٥٣ ووجهت إليهما ١٤ تهمة كبرى كل منها معاقب عليها بالموت ، وقدمت أسباب تتصل بالأمن دون نشر التفاصيل الكاملة لنشاطهما . وكان ثمة عضو ثالث في الشبكة هو ولتر لوبر من بلدة البازو بكولوراد ، وقد هرب إلى المنطقة السوفياتية من النمسا بينما كان مفرجاً عنه بكفالة .

وكانت سويسرا القريبة ، المحايدة حياداً مطلقاً ، مجالاً للصيد ومكاناً لالتقاء

الجواسيس من كل الأمم في حربين عالميتين . وكانت سويسرا بالرغم من أنها لم تنضم إلى حلف ما ، قد عقدت العزم على الدفاع عن نفسها إذا هي هوجمت ، ومن ثم كان لها شأن عند الادارة السرية السوفياتية. وقد اكتشفت إحدى حلقات التجسس في دار للنشر تسمى توفافيتا في لوسرن صاحبها الدكتور كزافييه شميسر . وقد تخصصت هذه الدار في نشر المؤلفات المسيحية ، وكان ذلك ستاراً رائعاً للجاسوسية ، إلا ان شميسر وعميلاً آخر يدعى رودلف روسلر أثارا الشبهة ، بعد أن قاما سنوات طويلة بنشر المؤلفات الدينية ، وهاجم البوليس دارهما فعثر على ١٢٠ تقريراً من تقارير الجاسوسية صوّرت بأفلام دقيقة . وقد دلّت الأبحاث على أن حلقة التجسس التي نحن بصددها نشأت في مركز الجاسوسية السوفياتي في الدار رقم ١٩٢ « روت دي فلوريسان » بجنيف ، حيث كانت تعمل محطتان لاسلكيتان خلال الحرب بنجاح عظيم ، وظلتا تزودان موسكو بالمعلومات المستقاة من مصدر في القيادة الألمانية العليا . وأنفق المدير المقيم ألكسندر رادو وهو مجري الأصل ٣٠٠٠٠٠ر٣٠٠ فرنك سويسري سنة ١٩٤٦ لإنشاء شبكة جديدة . وقد اتهم رئيس الاتحاد السويسري الشيوعيين السويسريين علناً بأنهم مأجورون لموسكو وكان أحد زعمائهم ليون نيكول مراسل برافدا وممثل وكالة تاس .

وللشيوعيين الفرنسيين والايطاليين ممثلون كثيرون في البرلمان ، أما الادارة السرية السوفياتية فانها ممثلة خير تمثيل بما لها من عملاء في كل مكتب حكومي أو وحدة عسكرية أو نقابة أو مصنع . أما أن التشيكا لا تفوتها فرصة فدليل ذلك ما حدث في أيار (مايو) سنة ١٩٥٢ عندما أعلن الفاتيكان أن الأب اليفييري توندي ، الأستاذ بالجامعة الغريغورية بالفاتيكان ، قد اتضح انه من عملاء السوفيات وانه « قد دس عن قصد في الطائفة اليسوعية » .

وقد أسفرت الهجمات التي أمرت بها الحكومة الفرنسية سنة ١٩٥٢ عن اكتشاف عدد كبير من الوثائق السرية الخاصة بحلف شمال الاطلنطي ووسائل دفاع فرنسا نفسها . ويجد عملاء السوفيات التجسس في فرنسا سهلاً نسبياً

لوجود ٨٠٠,٠٠٠ شخص ينتمون للحزب الشيوعي في البلاد فعـلاً ، ومن المحتمل أن يكون هذا العدد خمسة ملايين عضو . وتمخض كشف القناع سنة ١٩٥٢ عن شبكتين سوفياتيتين للتجسس في باريس وليون عن العثور على وثائق قدر ما تمخض عنه اكتشاف حلقـة التجسس الكندية . وقد واجهت هيئة مكافحة الجاسوسية الفرنسية ، كما واجهت قيادة حلف شمال الأطلنطي ، الحقيقة من أن كافة أسرار الدفاع الفرنسية تقريباً قد أذيعت . ومن الخرائط التي عثرت عليها السلطات الفرنسية في حيازة عملاء السوفيات خريطة تبين جميع منشآت حلف شمال الأطلنطي في فرنسا تقريباً، وفيها مواقع معسكرات سبعة جيوش و ١٣ مستودعاً كبيراً للوقود و ١٥ مخزناً للمؤن والذخيرة و١٢ قاعدة جوية و ١٧ مخزناً للعتاد الحربي . وقد ضبطت وثائق أخرى تبين مواقع ١٨ قاعدة جوية للحلفاء ، و ٧ مواقع لإجراء التجارب ، وموقعين للصواريخ ، وأربع مناطق للألغام ، ومصنعين للذخيرة في مناطق ألمانيا الغربية المتـاخمة لفرنسا ، ووجدت أيضاً قائمة تشمل أسماء ومناصب ٢٤٤ موظفاً أميركياً في باريس . ويلوح أن القصد من إعداد هـذه القائمة هو أن يستخدمها « فهرس موسكو » في بعض المناسبات المقبلة .

وقد اتضح في طولون أن عملاء التشيكا قد ألفوا شبكة داخـل صفوف البوليس وقوات الأمن البحرية . وقد ظلت هذه الخلية تتلقى المعلومات المفصلة عن القوافل العسكرية المارة بالميناء في طريقها إلى الهند الصينية،وقد اكتشفت فروع للشبكات في ليـون وكليرمونت فراند ، وهما مركزان صناعيان لهما أهميتها . وقد تبين في ليون أن عدداً كبيراً من الأختام الرسميـة الصحيحة ، التي اختفت من الدوائر الحكومية والمكاتب العسكرية ، كان يستخدمها العملاء لتزوير أوراق تحقيق الشخصية والشهادات ليتمكنوا بواسطتها من دخول مصانع التسليح السرية ، والمستودعات العسكرية . وقد صرح ضباط فرع الأمن الخاص بقولهم : ان الشبكات التي كشف الستار عنهـا ما هي إلا بعض « أسنان » في عجلة تجسس لها فروع أكثر من ذلك بكثير ، وانهم لم يستطيعوا أن يضعوا

أيديهم إلا على عميل سوفياتي « حقيقي » واحد عرف باسمه الرمزي « ماين » ، أما من عداه فاما احتموا بحصانتهم الديبلوماسية أو اختفوا دون أن يتركوا أثراً تخلفين الأغرار من الشيوعيين الذين استخدموهم في قضاء مآربهم ليلقوا مصيرهم .

وكانت الوزارات الفرنسيـــة المتعاقبة تتكتم نشر محاكمات الجواسيس والتحقيقات التي تجريها المنظمات المكافحـة للجاسوسية ، ولم يكن هذا سببه الحرص على تجنب أي شقاق مع موسكو فحسب ، بل كان سببه الشعور العام بأن سهولة تسرب الجواسيس إلى فرنسا يحمل بريطانيا والولايات المتحـدة على التردد في اطلاع فرنسا على الأسرار والأسلحة ، وقد قدر سياسي فرنسي، في معرض حديثه عن انتشار الجاسوسية في فرنسا،عدد الشبكات السوفياتية بمائتي شبكة تستخدم أكثر من ٢٠٫٠٠٠ عميل متفرغ لعمله . ولا أعلم الأساس الذي بنى عليه تقديره هذا،إلا أنني واثق من أن عملاء التشيكا في فرنسا اليوم يؤلفون مع الطابور الخامس الشيوعي إدارة حكومية أخرى ، بل وجيشاً آخر فيما لو اشتعلت نار الفتنة في البلاد في حرب قادمة .

وإذا كنت في حاجة إلى دليل يؤيدني فان الحوادث التي جرت في باريس وأنا أكتب هذه السطور لخير شاهد على ما أقول ، فقد وجه الاتهام في تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٥٤ إلى المسيو جان مونس السكرتير العام للجنة الدفاع القومي للحكومة الفرنسية بأنه « ألحق الضرر بأمن الدولة » ، وذلك بعد أن ألقي القبض على اثنين من كبار موظفيه هما المسيو رينيه توربان والمسيو روجيه لابروس واتهما بالخيانة العظمى وقد أسندت إليهما تهمة تزويد عميل سوفياتي ، وهو أندريه بارانس،بوثائق على جانب عظيم من السرية تتعلق بخطط دفاعيـــة عسكرية فرنسية تمت بصلة بحلف شمال الاطلنطي ، ولم يكن يسمح بحضور الاجتماعات السرية للجنة الدفاع القومي وأخذ المذكرات إلا لموظفين كبيرين . وكان أحد هذين الموظفين المسيو مونس، الذي استطاع معاوناه الرئيسيان توربان ولابروس أن يشاهدا محاضر الاجتماعات والمذكرات وأن ينقلاها إلى الرسول

الشيوعي ، وقد تبين في الأدوار الأولى من التحقيق أن هذا « التسرب » كان يجري منذ خمسة عشر شهراً على الأقــل أي منذ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٣ . ولا شك ان في حيازة الادارة السرية السوفياتية الآن ، كما في حيـازة الحزب الشيوعي الفرنسي بعض الأسرار التي كان يحرص المسؤولون على المحافظة عليها ، سواء أكانت سياسية أو عسكرية أو استراتيجية . ولا تختص هــذه الأسرار بالجمهورية الفرنسية وحدها بل تختص أيضاً بحلف شمال الاطلنطي ، والقول هنا ينطبق على الأسرار التي كانت معروضة على لجنة الدفاع القومي .

وبالرغم من قمع الحركة الشيوعية في اسبانيا ، وما يقضي به نظام فرانكو الجماعي فان الادارة السرية السوفياتية لم تكف أبداً عن نشاطها فيها . وقــد ازداد هذا النشاط حالما أسرعت الولايات المتحـــدة في إعادة تسليح اسبانيا وإنشاء القواعد . وقد كشف أمر عملاء ثلاثة في بلباو سنة ١٩٥٣ ، وكانوا قد أوفدوا إلى اسبانيا بطريق ملفوف من مركز التشيكا في برلين – كالشورست ، ويلوح ان مهمتهم كانت أعمال التخريب في مصنع جديد كانت تصنع فيه نماذج مقاتلات نفاثة جديدة يقوم بصنعها اخوان شميت مصممو طائرات هتلر المشهورة وقيل أن فرناندو موندالا أحد كبار موظفي حكومة فرانكو كان عميلاً للسوفيات ، وهذا يدل على أن التشيكا مستطيعة لا أن تتسرب إلى حكومات الدول الديمقراطية فحسب بل إلى الحكومات الاشتراكية كذلك .

أما في دول البلقان فان الادارة السرية السوفياتية قد باءت بفشل عظيم بعد الحرب بسبب قمع ثورة حزب «أيام» الشيوعي في اليونان وانشقاق الماريشال تيتو . وقامت التشيكا بسلسلة هجمات عنيفة على يوغوسلافيا لا يتسع المقـــام لوصفها هنا ، ويمكن لمن يهمه الوقوف على أمرها أن يرجع في ذلك إلى الكتاب الأبيض الذي نشرته وزارة الخارجية اليوغوسلافية ، وهو يقع في ٤٨٠ صفحة بالحرف الصغير . أما أن هذه الهجمات مستمرة فدليله إلقــاء القبض على بعض الناس بين الحين والآخر ، وتقديم العملاء للمحاكمة . وقد ركز عملاء السوفيات اهتمامهم بعد فشل الثورة في بلاد اليونان على اكتشاف تفــاصيل منشآت حلف

شمال الاطلنطي والقواعد الأميركية . وقد أسفرت محاكمة نيكولاس بيلويانس و ٢٨ شخصاً آخرين من أهل أثينا سنة ١٩٥٦ عن الكفاية المذهلة للعقل التي تتسم بها الشبكات ، وكانت تعمل في ظروف غاية في الصعوبة والمشقة . وقد أقيم جهازا إرسال قويان في فيللا أفرا على مسيرة ثمانية أميال من أثينا وفي بناء في حي كاليثيا من أحياء العاصمة . وكانت الرسائل المكتوبة بالشيفرة ترسل بانتظام إلى بلغاريا ومنها إلى موسكو. ومن الرسائل المثالية التي تليت في المحاكمة الرسالتان التاليتان :

١ — في جزيرة .. بين رودس والساحل التركي منشئات عظيمة للقلاع الضخمة والغواصات الأميركية ، وثمة نفق ومستودعات تحت الأرض على عمق بعيد ، ولا يعمل في هذه المنشئات إلا عمال أتراك موثوق بهم تحت إشراف الأميركيين الدقيق » .

٢ — في جودي مخازن أميركية للذخيرة تحت الأرض على عمق أربعة أمتار ، وثمة مستودعات منفصلة للمتفجرات على بعد خمسة كيلومترات جنوب شرق ميجارا أمام جزيرة باجيا ، وبين ميجارا والتل مطار سري تهبط فيه طائرات التدريب » .

وقد ركب أحد جهازي الارسال من مهمات جديدة من مصدر أميركي لا بد أن العملاء ومن عاونهم من الشيوعيين قد حصلوا عليها من المخازن الأميركية . وكان جهاز الارسال الثاني روسيا . أما كيف هرب إلى اليونان فسر لم يكشف الستار عنه . وتعتقد السلطات اليونانية بالرغم من اكتشاف ثلاث شبكات للجاسوسية بين سنتي ١٩٥١ و ١٩٥٣ أن شبكات أخرى مماثلة لا زالت موجودة بالبلاد .

ولعل عدد العملاء التشيكا في الشرق الأقصى الذين يعملون كمدربين ومنظمين للجاسوسية صغير نسبياً ، إلا أنهم لعبوا دوراً هاماً قبل نشوب الفتن. وليس ثمة موضوع اليوم له أهمية خارج « ستار البوص » حيث لا يوجد للادارة السرية السوفياتية حلقات تجسس ، وتسمح لهم الظروف بالعمل دون أن يعوقهم عائق.

وكان العملاء الصينيون والسوفيات يعملون في توافق أتم مما يظن الكثيرون.
ويبدو أن بيكين ، وهي تدرك أن عملاءها لم ينالوا من التدريب والخبرة ما يجب أن ينالوه ، كانت تقبل إرشاد مبعوثي التشيكا . وكثيراً ما يكون العملاء الصينيون تحت إمرة مدير سوفياتي مقيم ،ويلوح أن هذه هي الحال في أندونيسيا على وجه خاص حيث وجدت هيئة مكافحة الجاسوسية التابعة للغرب بعض حلقات التجسس المنظمة أحسن تنظيم والمشهود لها بالكفاية التامة في الشرق الأوسط ، وأهم أصحاب الشأن فيها وانج جنشو الذي قاد العصابات الشيوعية في ثورة ١٩٤٨ ضد السلطات الهولندية والأندونيسية ، وقد ذهب بعدئذ إلى موسكو وعاد منها في خريف سنة ١٩٥١ ، وهو بالاسم الممثل الدبلوماسي للجمهورية الصينية الشعبية ، وبالفعل الممثل الرئيسي لقسم الشرق الأقصى في الادارة السرية السوفياتية .

ولقد قضى الرئيس ماجيايسي في سنة ١٩٥٤ على عصابات «هوك» الشيوعية في الفيليبين فأصيبت موسكو بضربة قاصمة ، إلا أن ثمة دلائل تدل على أن إجراء قد اتخذ في الحال لتعويض الخسائر بعملاء جدد من السوفيات والصينيين من جاكرتا في أندونيسيا . ولم يكن العميل الشيوعي الأكبر في الفيليبين من أهل البلاد ولا من الشرق ، وإنما كان أميركياً اسمه وليم جوزيف بومروي ، وقد ولد بروشستر في نيويورك ، وتلقى قسطاً وافراً من العلم ثم التحق بالجمعية الأميركية للشبان الشيوعيين سنة ١٩٣٨ وكان عمره ١٨ سنة ، وعمل في الحرب في القيادة الخامسة الأميركية لقاذفات القنابل ، واشترك في تحرير الفيليبين وتزوج إحدى الوطنيات. ولا يعلم أحد على وجه التحقيق متى انضم إلى الادارة السرية السوفياتية ، إلا أن نشاطه فيما بعد حمل المسؤولين على تخصيص مكافأة قدرها ٣٠٫٠٠٠ دولار للقبض عليه ، وذلك عندما ولى الأدبار إلى سيبرا مادر ، وقد اتهم عند القبض عليه لا بالتجسس للشيوعيين فحسب بل بأنه اقترف بعض جرائم القتل والحرق العمد والخطف . وقد أشارت الوثائق والمذكرات التي ضبطت معه إلى بدرو دلابينا وهو موظف كبير من موظفي وزارة الدفاع في

الجمهورية ورئيس إدارة مخابراتها وكان مناهضاً غيوراً للشيوعية يكتب كتابة مرة ضد روسيا والصين في صحيفة « آسيا الحرة » وصاحبها صديقه المليونير أنطونيو شواكروز . وقد تبين من التحقيق أن دلابينا وشواكروز كان كلاهما مشتركين في شبكات التجسس السوفياتية والصينية ، وأن المال الذي كانوا ينفقونه عن سعة كان مصدره التهديد والابتزاز ، وقد فرضت على الصينيين في مانيلا عشرة ملايين بيزو ، وهددوا بأنهم ان لم يدفعوها لحق الأذى بذوي قرباهم في الصين . ويدل كشف القناع عن هذه الشبكات كيف ان الادارات السرية السوفياتية تجمع بين أعمال المخابرات المشروعة وابتزاز المال بالتهديد . وقد استخدمت وسائل مماثلة مع الصينيين الذين في الولايات المتحدة وخاصة منهم الذين في سان فرانسيسكو .

وفي اليابان طابور خامس شيوعي قوي ، وهو بالرغم من تأكيد الجنرال ماك أرثر من أنه مني « بهزيمة نكراء » ، ما يزال يتحكم فعلاً في بعض النقابات المهمة . ولا شك أن تسرب العملاء السوفيات إلى المكاتب الحكومية ودوائر البوليس قد نشأ عنه تكوين منظمة للتجسس ذات كفاية وقدرة .

ونحن إذا تحولنا جنوباً وجدنا أن التجاء بتروف إلى الغرب وما أسفرت عنه تحقيقات اللجنة الملكية عن التجسس في استراليا ، قد بيّنا أن تلك القارة كانت هدفاً مركزاً من أهداف عملاء السوفيات . ومن الواضح أن بتروف لم يكن يعلم إلا جزءاً من القصة الاسترالية ، وان ثمة شبكات مماثلة لم يكن يعلم عنها شيئاً . فمثلاً كانت هناك شبكة أخرى حاولت الحصول على معلومات عن رواسب اليورانيوم في نهر اديث وقرب تل راديوم . ولم يكن هرب بتروف ضربة قاضية على السوفيات إلا فيما انطوى عليه من تحذير الاستراليين من الخطر الماثل أمامهم .

ولعل نيوزيلندا ، دون سائر دول العالم ، هي التي ثبت أن عملاء السوفيات يجدون صعوبة في التسرب إليها ، وقد فشلت محاولة تجنيد ماورس في إثارة

ثائرة الشيوعيين ، ولعل فشل الحركة الشيوعية في نيوزيلندا مرجعه أنها بلد ينعم بالرخاء وأن أهله متجانسون .

وتعتبر موسكو أن نصف الكرة الغربي « مركز التطويق الرأسمالي للاتحاد السوفياتي» ، ويمثل كل من شمال أميركا وجنوبها « قوة الرأسمالية الفتية النشيطة» التي لم يصبها بعد الانحلال الذي أصاب الجهاز الاقتصادي في القارة الأوروبية . وكان موقف السوفيات من جنوب أميركا ووسطها ، حتى الحرب العالمية الأخيرة ، أساسه المذاهب الثورية العالمية الخاصة بالشيوعية ، إلا أن موسكو أخذت تبذل قصارى جهدها في السنوات الأخيرة لتكفل «لطلائعها» الشيوعيين في أميركا اللاتينية الاشتراك في الحكم ، أكثر مما تهدف إلى ثورة شيوعية مباشرة ، وهذا التغيير في السياسة يعلله النشاط الذي يتسم بدهاء أكثر ويقوم به الزعماء الشيوعيون ومبعوثو موسكو وعملاء الادارة السرية السوفياتية في جنوب الولايات المتحدة .

ولا نجد مثلاً أصلح من مثل غواتيمالا نستشهد بـه على ما نقول ، ففي سنة ١٩٥٢ كان الحزب الشيوعي وزعيمه جوزيه مانويل فورتوني حزباً صغيراً جل أعضائه من المتعلمين والطلاب . وكان هناك أيضاً حزب العمال الكبير وزعيمه فيكتور مانويل جوتييريز عضو كونغرس غواتيمالا ورئيس اتحاد النقابات الذي يضم ٥٠٠٠٠ عامل ، وقد دعي جوتييريز لزيارة موسكو واستقبله ستالين وعامله على اعتبار أنه ضيف ممتاز ، وأصدر عملاء السوفيات الأوامر إلى حفنة الشيوعيين الرسميين في غواتيمالا بأن يعاملوا حزب العمال وجوتييريز بوصفهم من حلفائهم . واندمج الحزبان في حزب واحد عندما عاد جوتييريز إلى أرض الوطن ، وأصبحت لغواتيمالا حركة شيوعية متحدة قوية سرعان ما أضحت أقوى قوة سياسية في البلاد تؤثر بل وتملي على حكومة الرئيس جاكوبو أربنيز سياستها ، وقد استطاعت الادارة السرية السوفياتية أن تدير شبكات تجسسها ذات الأهمية لقربها من قناة بناما ، وظل هذا شأنها حتى سقط أربنيز وحكومته في صيف سنة ١٩٥٤ .

وقد جرّبت وسائل مماثلة في الدول الأميركية اللاتينية الأخرى ، وان كان لم يحالفها النجاح كما حالفها في غواتيمالا . وتستغل الدعاية الشيوعية ، كما يستغل عملاء السوفيات، المقاومة الوطنية للعاصمة الأميركية و«لسيطرة أهل الشمال من الأميركيين » . ويجري البحث عن المحبذين في دوائـــر الوطنيين والأحرار ودوائر المتعلمين أكثر مما يجري بين المحرومين من الحقوق المدنية .

ولن يتسع المقام لوصف الفروع التي تملأ أرجاء العـــالم من الادارة السرية السوفياتية ، إلا أن هذه النظرة العابرة على الشبكة التي تشمل العالم كله لكافية أن تطلع القارىء على مدى ضخامتها واتساعها ، ولم يبق لنا إلا أن نلقي نظرة على النشاط السوفياتي في الولايات المتحدة ، وقد كشف القناع عن « جواسيس الأسرار الذريـــة » ، واعترافات هويتاكر شامبرز ، وتحقيقات الكونغرس الحديثة التي ملأت عدة مجلدات ضخمة ، قد حملت أهــل أوروبا على الاعتقاد بأن التجسس السوفياتي في الولايات المتحدة لم تصبح له أهميته هذه إلا في العشر سنوات الأخيرة . ولكن الواقع أن شبكات التجسس السوفياتية نشأت في سنة ١٩١٩ عندما اكتسح « الفزع الأحمر » الولايات المتحـدة كنتيجة للاضرابات الصناعية التي كادت أن تكون ثورة علنية مما كان من شأنه أن حلت المنظمات الشيوعية ، وبذلك اتخذت صبغة السرية ، وانتهز الكومنترن فرصة هذا الجو التآمري فأنشأ شبكاته التي يدير رجال التشيكا دفتها . واتحد الحزبان الشيوعيان الأميركيان سنة ١٩٢٢ وسيطر مبعوثو موسكو على ١٦ اتحاداً وطائفة يتحدث رجالها اللغات الأجنبية في التنظيم الحزبي الجديد .

وكان أول عميلين للسوفيات لهما شأنهما لدويغ كارلوفيتش مارتنز،وهو روسي من أصل ألماني ، وجوزيف بوجاني ، المشهور باسمه المستعار جون بيبر ، وكان قوميسيراً لوزارة الحربية في نظام بيلاكون السوفياتي « نظام المـائة يوم » في المجر . وقد طرد مارتنز من البلاد سنة ١٩٢١ ومعـه معاونه « آدمز » ، وهو شاب ظلت سوابقه وشخصيته من الأسرار المستغلقة، إلا أنه عاد في سنة ١٩٤٢، وهو من عملاء التشيكا المحنكين ليعاون في التجسس الذري . وكان الاتصال منذ

البداية وثيقاً بين الحزب الشيوعي والادارة السرية السوفياتية ، بل وأشد توثقاً منه في أي دولة أخرى ، ولعل هذا مرجعه إلى أن موسكو لم تكن، على الأقل حتى الحرب الأخيرة ، تهتم بأسرار أميركا العسكرية اهتمامها بإضعاف جهازها الرأسمالي . وكان هدف موسكو التسرب إلى الاتحادات والمنظمات الصناعية بل والمصانع الحكومية للتأثير في السياسة العامة لا التجسس . وجدير بنا في هذا المقـــام أن نستعيد أقوال ستالين للمندوبين الأميركيين الذين حضروا المؤتمر الشيوعي الدولي الذي عقد سنة ١٩٢٩ فقد قال لهم :

« انني أعتبر الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة أحد الأحزاب الشيوعية الذي ألقى عليه التاريخ واجبات محددة فيما يتصل بالحركة الثورية العالمية . ان ذروة الثورة لم تبلغ بعد الولايات المتحدة ، ولكن الحقائق العديدة التي تجمعت لدينا توحي بأنها في سبيلها إليهـــا ، ومن الواجب أن يكون الحزب الشيوعي قادراً على مواجهة اللحظة التي تبلغ فيها البلاد الذروة وهو كامل العدة ليتولى قيادة الحرب الطبقية في الولايات المتحدة ، ويجب أن تكونوا مستعدين لذلك أيها الرفاق ، بكل ما فيكم من قوة ، وماتملكون من وسائل ، ويجب أن تهيئوا الظروف والزعماء الذين يستطيعون أن يقودوا مـلايين العمال الأميركيين إلى الحرب الثورية ... » .

ولم يكن ثمة غموض في عبارة « الواجبات المحددة » ، فما لبث الكومنترن وعملاء التشيكا في الولايات المتحدة أن اتخذوا خطة الهجوم متكاتفين مع زعماء الشيوعيين الأميركيين . ويمكن أن نستدل على الأهمية التي كانت تعلقها موسكو على أميركا في ذلك الوقت من طراز كبار العلماء الذين كانت توفدهم ، فقد عهد بالناحية السياسية إلى سيرجي جوسيف ، وكان هو وألفريد تلتون يشتركان في رتبة المدير المقيم ، وقد استغل جوزيف غرين ودروبكن وغيرهما من أصحاب الأسماء المستعارة ، وكان ماجور جنرال ومن أكبر موظفي التشيكا . وأوفدت التشيكا سيرولا ، وهو رئيس سابق للحزب الشيوعي الفنلندي ، واتخذ الاسم الرمزي « ميللر » ، وكان جل العمل يعتمد على البعثات التجـارية السوفياتية

« والشركات التجارية » مثل شركة برودكسكو ، وشركة أمتورج التجارية اللتين تشبهان شركة أركوس في لندن . وكان بعض المال الذي تزود به هاتان الشركتان من حصيلة بيع الجواهر القيصرية التي كان يهربها ملاحو اتحاد ولوبر الدولي للبحارة .

وقد استدعى تلتون إلى أميركا في وقت من الأوقات « البارونة » وهي ليدي ستال ، من أقدر عميلات التشيكا وأوسعهن خبرة في غرب أوروبا ، وكان لها شأن في حلقة تجسس سويتز ، وقد عهد إليها الاتصال بموظفي الحكومة والضباط العاملين وكان لمن اتصلت بهم قيمة عظيمة في السنوات التالية ، والاعتقاد السائد أنهم كانوا أساس جماعة وير ، وهي أول خلية للتجسس ، كان من أعضائها ألجر هيس وهاري دكستر — على ما زعم هويتاكر شامبرز — وناثانييل وايل. وكانت الضائقة المالية والاقتصادية التي سادت البلاد سنة ١٩٢٩ من الفرص العظيمة التي عاونت على نشر الشبكة . وقد وصل في تلك السنة بافيل ميخائيلوف ، الذي ورد اسمه فيما يختص بالتجسس الذري بعد هذا التاريخ بكثير ، وكان منصبه نائب رئيس القسم الخارجي للتشيكا . وتشير تحقيقات الكونغرس إلى أنه أنشأ ، بمعاونة جرهارد ايسلر ، الخلايا الأولى في وزارة المالية الأميركية وفي وزارة الزراعة بل وفي وزارة الخارجية نفسها . وقد تردد اسم ايسلر كثيراً إلا أنني أجد لزاماً عليّ أن أقول هنا ان ايسلر كان معروفاً للسلطات الأميركية منذ سنوات طويلة بأنه عميل للتشيكا ، ومع ذلك فقد سمح له بدخول الولايات المتحدة مرة أخرى سنة ١٩٤١ بوصفه لاجئاً ، وظل يعمل دون أن يعيقه عائق حتى سنة ١٩٤٧ عندما صدر ضده حكم لازدرائه الكونغرس وأفرج عنه بكفالة ، ثم غض المسؤولون الطرف عنه حتى هرب ، وهذا مثال ناطق بتسامح السلطات الأميركية في معاملتها لعملاء السوفيات ، وهو تسامح لا نجد له تعليلاً . ولا شك ، مهما كان من أمر النشاط الذي كان يقوم به ألجر هيس ، ان مذكرات أدولف برك مساعد وزير الخارجية عن محادثاته مع هويتاكر تشامبرز ظلت في خزائن وزارة الخارجية سنوات حتى

تسلمها رجال المباحث سنة ١٩٤٣ .

وقد ترتب على هجوم اليابانيين على ميناء بيرل هاربر ، ودخول الولايات المتحدة الحرب أن انفسح المجال أمام عملاء السوفيات السريين ، فقد أصبحت روسيا وأميركا حليفتين ، وأصبح من السهل دس العملاء الجدد حتى يتسنى لهم القيام بمهامهم ، ومن ذلك ما اعترفت بـــه اليزابيت بنتلي عندما اختلفت مع الشيوعيين سنة ١٩٤٥ من أنها تمكنت بمفردها من الاتصال بثمانين شخصاً كان سبعة وثلاثون منهم في خدمة الحكومة ، واستطاعت الادارة السوفياتية أن تلحق عملاءها بكثير من مصالح الحكومة ومصانع التسليح وغيرها من الأماكن المهمة . وقد استطاع رجال المباحث في حملة واحدة حملوها على مكتب المجلة الشيوعية « أميراسيا » في نيويورك ، ان يضبطوا ١٧٠٠ وثيقة غاية في السرية أو سرية فحسب ، جاءت من كل مصلحة من مصالح الحكومة ومن «البنتاغون». وألقي القبض على ستة أشخاص لم يقدم للمحاكمة إلا اثنان منهم بتهمة « سرقـة أموال الحكومة » ، وحكم عليهما بغرامة ٣٠٠٠ دولار ثم أطلق سراحهما . أما الحادثان المذهـلان اللذان يتلخصان في السماح لآدمز بالهرب والاكتفاء بتغريم جوليوس مع أنه كان معروفاً عنهما أنهما من كبار الجواسيس ، فقد سبق لي أن أتيت على تفصيلهما .

وظلت الولايات المتحدة ٣٠ سنة هدفاً لهجوم مركّز من الادارة السريـة السوفياتية ، وقد حالف النجاح هذا الهجوم كما حالف هجومهم في كل بقعة من بقاع الأرض . ومن الواضح أنه كان ثمة قصور وعجز بل وغباء صارخ أحياناً حتى لو سلمنا بأن قادة الأمة كانوا على عـــلم بالأمر . ولو اننا قارنا « هرب » بيرجس وماكلين — وهما اللذان لم يثبت أبداً أنهما نقـلا أسراراً إلى روسيا — بكثير من الحوادث الجسام التي كان مسرحها الولايات المتحدة الأميركية لبدا لنا أن الحادثين من التوافه . حتى الأخطاء التي نجم عنها تسرّب فوخس ونون ماي من شبكة الأمن البريطانية لا تبدو أكثر جسامة من الأخطاء المماثلة التي وقعت على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي .

وكان فشل الهيئة البريطانية لمكافحة التجسس موضوع نقد مرّ في الولايات المتحدة ، وقيل انه أحد الأسباب التي قررت أميركا على هديها عدم مشاركة بريطانيا الأسرار الذرية ، وهو قرار كان له أثر كبير في تصدّع العلاقات البريطانية الأميركية . إلا أن البحث الجدي الذي قامت به أميركا في السنوات القليلة الماضية يدل على أن الأذى الذي ألحقه عملاء السوفيات ببريطانيا لا يقاس بما ألحقوه بالولايات المتحدة . زد على ذلك أن الأذى مستمر ، ولقد قال النائب كلارنس كانون في مجلس النواب : « انه يوجد ما لا يقل عن ٤٥٠٠ عميل للسوفيات يعملون في الولايات المتحدة ومعروفون لرجال المباحث ، أما من لا يعرفهم رجال المباحث ، ومن ثمة يكونون أخطر فعلمهم عند ربي ! » .

ولم تلق الولايات المتحدة من النجاح في صد حملة الادارة السرية السوفياتية أكثر مما لقيته بريطانيا . بل الواقع أنها لم تدرك مدى نشاط هذه الادارة إلا منذ بضع سنوات ، ثم استيقظت السلطات المسؤولة فجأة ، وكان رد الفعل شديداً بحيث أنه قد يؤدي إلى نصر آخر يحرزه الشيوعيون ، إذ كان من نتيجة ذلك أن ساد عدم الثقة بين الأميركيين كما ساد بين أميركا وحلفائها الطبيعيين .

الفصل الرابع عشر

الإدارة السرية السوفياتية والدول الشايعة

سار عملاء السوفيات السريون وموظفو التشيكا في أعقاب الجيش الأحمر سنة ١٩٤٤ وهو يتقدم في بولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر وبلغاريا ، وقد نظموا ، بمعاونة طوائف المقاومة الشيوعية التي كانت تحارب النازيين ، البوليس السياسي والادارات السرية في الدول المحررة بينما كانت الحرب مستعرة الأوار، حتى في الوقت الذي تظاهروا فيه بإقامة حكومة ديمقراطية في براغ ووارسو كانت أقدام التشيكا « سيف الثورة » قد رسخت وأصبحت حكومة داخل الحكومة ، لا تعمل على إعطاء أصوات الناخبين إلا لأولئك الذين يتطلعون إلى موسكو ويأتمرون بأوامرها ، وقد زادت التشيكا رقابتها وسيطرتها على أثر الفوضى التي نشبت بعد ذلك وانشقاق تيتو حتى لا يقلده أحد في الدول التابعة في شرق أوروبا .

ونجد اليوم البوليس السري ومصالح التجسس في الدول الخمس التابعة لروسيا في أوروبا اما يشرف عليها موظفو التشيكا السوفيات أو يديرها موظفون تعينهم التشيكا كما هي الحال في ألمانيا الشرقية وفي ألبانيا . وتنظم وزارتا أمن الدولة والشؤون الداخلية في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا

وبلغاريا على غرار وزارة الداخلية الروسية ، ونجد أن الوزراء هم عملاء قدماء للتشيكا اشتغلوا في خدمة الاتحاد السوفياتي سنوات طويلة ، لا في خدمة بلادهم هم ، وقد عينت موسكو رجالاً من أمثال بييروت ورادكيويكز في وارسو ، ونوسك في براغ ، وشرفنكوف في صوفيا ، ودارغيلتشي في بوخارست ، منذ ثماني سنوات ، ومما يجدر بنا ذكره أن الانشقاقات والتطهيرات التي مزّقت أوصال الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية منذ سنة ١٩٤٥ لم تمسسهم بضرر. وكثير من قادة الشيوعيين « الوطنيين » الذين تولوا مراكز لها شأنها خلال مدة التحرير قد سقطوا بل وأعدموا ، أما رجال التشيكا فقد بقوا ، وقد كان هذا ممكناً ، إذ أن إخلاصهم الأول — وشأنهم في هـــذا شأن عملاء التشيكا — هو للهيئة ، أما إخلاصهم لبلدهم بل ولحزبهم فتلا ذلك في الترتيب بكثير .

وقد تمكنت الادارة السرية السوفياتية بفضل مهارة موسكو في اختيـار وتدريب هؤلاء الرجال من أن تضيف إلى شبكاتها في الخارج عدداً عظيماً من العملاء ، ومع أن الروس الذين يتمتعون بالمزايا الديبلوماسية في الخـارج كانوا يزيدون دائماً عن العدد المقابل لهم من الديبلوماسيين الأجانب والمبعوثين التجاريين الذين في موسكو ، فانه كان ثمة حد لعدد الديبلوماسيين السوفيات الذين تقبلهم أي دولة من الدول . واستطاعت موسكو بفضل الرقابة التي تفرضها الادارات السرية في الدول التابعة من زيادة عدد عملائها الذين يشتغلون في الخارج متنكرين، وذلك بدسهم في كثير من السفارات والقنصليات والوفود التجارية الأخرى ، فعلاوة على السفارات السوفياتية في كثير من البـلاد نجد اليوم مفوضيات أو بعثات ديبلوماسية تشيكوسلوفاكية وبولندية ورومانية ومجرية وبلغارية بـل وألبانية ينعم أعضاؤها بمزايا خاصة ، أضف إلى هـــذا أن كل جبهة من تلك الجبهات يمكن أن يتسع مداها سبع مرات ، وإنشاء « جمعيات الصداقـة » و « المنظمات الثقافية » لا يقتصر على الاتحاد السوفياتي ، بـل يمكن مضاعفته بوجود الدول التابعة .

ويكفينا في معرض التدليل على هـذا أن نقول انه كان لبريطانيا في سنة

١٩٥٤ ثلاثة ملحقين عسكريين معينين في موسكو ، بينما كان لدول الستار الحديدي ٢٢ ملحقاً عسكرياً في لندن ، وكان العدد الاجمالي للديبلوماسيين الشيوعيين الذين يتمتعون بالمزايا الكاملة في لندن يزيد عشرين مثلاً تقريباً عن الديبلوماسيين البريطانيين في موسكو. صحيح أن لبريطانيا سفارات في وارسو وبراغ وغيرهما من البلاد المشايعة ، إلا أن المائتي موظف الشيوعيين مركزون في مدينة واحدة ، في حين أن الديبلوماسيين البريطانيين موزعون في دول شرق أوروبا ، وهذا هو حال الولايات المتحدة وغيرها من الدول الكثيرة .

وقد سبق لنا الاشارة في فصول سابقة إلى أمثلة تتعلق بالتجسس السوفياتي بواسطة عملاء الدول المشايعة ، وخاصة فيما يتصل بالجواسيس الذين يطرقون الأبواب ، وقد سجلت اللجنة الفرعية لمجلس الشيوخ الأميركي ، وهي تبحث أوجه النشاط المعادي أن « السفارة التشيكوسلوفاكية وقنصليتها في نيويورك وبتسبرج من معاقل شبكة التجسس التي تديرها موسكو » . وقد استندت اللجنة الفرعية في ذلك إلى شهادة ماك سفتيك ، وهو رجل من رجال المباحث، نجح في دخول الشبكة التي يديرها أرفن مونك القنصل التشيكوسلوفاكي ، واستطاع أن ينقل المعلومات إلى الهيئة الأميركية لمكافحة الجاسوسية ، وشهد بأن الادارة السرية السوفياتية في الولايات المتحدة تدير « لجنة الجنسية » التي تتألف من عملاء يشتغلون في إدارات الجاسوسية ببعض الدول التابعة ، ويتزعمهم عدد يتراوح بين ١٢ و ١٨ عميلاً . وقد ورد اسم زدنيك بالما،القنصل التشيكي في بتسبرج باعتباره عميلاً سرياً لعب دوراً هاماً في لجنة الجنسية .

وقد يقال ان التعاون بين الادارات السرية في الستار الحديدي أمر طبيعي تماماً ومألوف بين الحلفاء ، فان بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وغيرها من دول حلف شمال الأطلنطي تتبادل معلومات المخابرات ، إلا أن الدلائل تدل على أن هذا التعاون هو بالأحرى أوامر تصدرها الادارة السرية السوفياتية تخطر بها وارسو أو بودابست ، وكذلك فان المعلومات التي يجمعها العملاء البولنديون بناء على أوامر موسكو المباشرة لن تفيد منها أية دولة من الدول التابعة إلا عن

طريق موسكو ، وهذا من شأنه أن يجعل للادارة السرية في الستار الحديدي السبق على الادارات السرية في الدول الغربية ، ومهما يكن من توثق الصلة بين إدارات المخابرات في الكومونولث البريطاني وفي الولايات المتحـدة فانه ليس لهذه الصلة طريق واحد مرسوم .

وثمة أدلة على أن للادارة السرية السوفياتية سيطرة واسعة على كافة العملاء التابعين للدول التابعة في الخارج ، وهذا نتيجة رقـابة التشيكا على قياداتهم ، وهي رقابة من القوة بحيث أن حكومات الدول التابعة كانت تسلم مواطنيها إلى رجال التشيكا ، وهذه سمة من سمات الحياة فيما وراء الستار الحديدي قد يجدها الرجل العادي في بلاد الغرب من الأمور التي تبعث على الاشمئزاز الشديد . وبينما قد يكون كبار الموظفين الرسميين الذين يعملون في إدارات الأمن بالدول التابعة من الوطنيين ، فان للتشيكا مراكزها في كافة عواصم أوروبا الشرقية ، وتصدر أوامرها إلى وزراء الداخلية وإدارات البوليس ، ولها مفتشون وعملاء في كافة إدارات البوليس والأمن والمخابرات .

وبنفس الطريقة التي أجرى بها جدانوف التطهيرات السياسية في الأحزاب الشيوعيـة بالدول التابعة سنة ١٩٤٧ فان رؤساء التشيكا يعينون ويفصلون الموظفين في كافة الوزارات والمصالح التي تتصل أعمالهم بالأمن ، وذلك من وراء الكواليس . وتتلقى موسكو أدق المعلومـات عن القرارات والجهود المتصلة بالتجسس من عملاء تشيكيين وبولنديين ومجريين ورومانيين وبلغاريين أكثر مما تحصل عليه حكومات براغ ووارسو وبودابست وبوخارست وصوفيا ، وهي الحكومات التي تدفع لهؤلاء العمـلاء أجورهم . ويتجسس عملاء التشيكا على مواطني الدول التابعـة ويسرقون خطاباتهم ويسترقون السمع على مكالماتهم التليفونية ويدبرون إلقاء القبض عليهم وترحيلهم من البلاد دون تدخل من الحكومات الديمقراطية الشعبية ، بل كثيراً ما يكون ذلك دون علم هـذه الحكومات .

أما أن موسكو قد استطاعت فرض سلطانها بواسطة التشيكا في الـدول

التابعة ، فإنما مرد ذلك سياسة تقررت قبـل أن تضع الحرب أوزارها بزمن طويل . ويجب ألا يغرب عن بالنا تلك الأخطاء التي وقع فيها الغرب في يالطا وبوتسدام التي مكنت من وضع هذه السياسة موضع التنفيذ . وكل الدول التي أصبحت من الدول التابعة كان هتلر قد أخضعها من قبل .

وقد اتفق في مؤتمر بوتسدام على أن تجري انتخابات حرة خالية من كل قيد « في الدول المحـــررة » ، وقد تألفت حكومات لاحت من كل الوجوه كأنها حكومات عادلة ومنصفة . وكانت موسكو تعلم أن شكل الحكومة لا يهم إلا قليلاً، ذلك أن وزيري الداخلية والعدل اللذين يسيطران على البوليس والسجون، كانا في كل حالة من مرشحيها ، ولأن مبعوثي التشيكا أو العملاء الوطنيين الذين أرسلتهم موسكو قد تسربوا إلى صفوف البوليس والقوات المسلحة ، وسرعان ما ألقي بالسياسيين غير الشيوعيين في السجون وتولى رجـال التشيكا مقاليد الأمور .

وكانت أول دولة « حررت » وفقاً لهذا المبدأ بولندا ، حيث استولى على الحكم بييروت وأمستردام وراد كييويتش، وكان ثلاثتهم من كبار رجال التشيكا منذ سنوات طويلة . وكان اسم بييروت عند ولادته بولسلاو روتكوسكي ، ثم أصبح رئيس الجمهورية البولندية الشعبية ، وظل بييروت اسمه الرمزي سنوات كثيرة ، وقد التحق بالحزب الشيوعي البولندي سنة ١٩٢٠ ، ثم ذهب إلى تشيكا موسكو في الوقت الذي كان يسيطر على التشيكا البولنديون. وكان مديراً مقيماً في فيينا ثم في براغ، وعاد بين الحين والحين إلى بولندا في شتى أزياء التنكر مستعملاً أسماء مستعارة مختلفة في الأعمال السرية ، منها كراسنودمبسكي وبنكويسكي . وقد عيّن أثناء الحرب نائب رئيس القسم البولندي للفرع الخارجي تحت رئاسة ستانسلاو رادكييويكز . وعندما أصبح رئيس جمهورية بولندا عيّن رئيسه السابق وزيراً لأمن الدولة ، أما شارل أمستردام فقد خدم التشيكا سنوات طويلة باسم دونسكي وساندكي وهنريك ، وقد اختفى خـــلال تطهير سنة ١٩٣٧ في موسكو ، على انه لا بد أن يكون قد صدر العفو عنه ، لأنه عاد للظهور في

بولندا بعد التحرير بوصفه رئيساً من رؤساء التشيكا .

وبقيت الحكومة الائتلافية في رومانيا في الحكم خمسة أشهر ، ثم أصدرت موسكو أوامرها بتنصيب بيتر غروزا ، المعروف بميوله الشيوعيـــة ، رئيساً للوزراء ، بحجة منع قيام حرب أهلية مع الجيش الأحمر الذي يحتل البـلاد ، وقام نظام للحكم الديمقراطي الكاذب ظل سنتين حتى تولى الشيوعيون مقاليد الأمور سنة ١٩٤٧ واتخذت وسائل مماثلة في المجر ، وكانت الحجة التي تذرعوا بها مؤامرة لاغتيال متياس راكوزي زعيم الحزب الشيوعي . وقبضوا على الناس جماعات في سنة ١٩٤٦ ، واستتب الأمر للشيوعيين تماماً في سنة ١٩٤٧ . أما في بلغاريا فقد رفع جورجي ديمتروف ، وهو عميل الكومنترن و «بطل» محاكمة حريق الريشستاغ ، إلى الحكم وأنقذ سميه الدكتور ج. م. ديمتروف ، الذي أصبح رئيس الوزراء بوصفه زعيم حزب الفلاحين ، بنقله على متن قاذفة قنابل أميركية إلى خارج البلاد ، ولم يكن بتكوف نائبه حسن الحظ مثله ، إذ أعدم بعد بضعة أشهر باعتباره جاسوساً للغرب .

ولم تعصف الحرب بتشيكوسلوفاكيا ولا كانت من دول البلقان المتأخرة ، بل ان نظامها الديمقراطي في الأيام السابقـــة على الحرب كان أرقى النظم في أوروبا الوسطى ، ولذلك كان عمل التشيكا أشق وأصعب واستغرق مدة أطول. وقد صحب الرئيس بنيش في عودته من لنـــدن وزراء محنكون . وواجه الشيوعيون بعد الانتخابات العامة ، بالرغم من أنهم فازوا بمائة وأربعة عشر مقعداً ، تآلفاً من ١٨٦ عضواً غير شيوعي في برلمان براغ ، واستقر رأي موسكو على أن الموقف الثوري لم تحن ساعته بعد ، ويجب الوصول إليه على مراحل ، وقد قرر برلمان براغ بمعاونة الديمقراطيين الاشتراكيين تأميم المرافق العامة ، ثم تأميم الصناعات الكيماوية وصناعات الصلب والنسيج وغير ذلك من الصناعات الكبرى . ونجح الشيوعيون في السيطرة على كافة النقابات الكبيرة وأقاموا بفضل مساعدة حركة العمال الثورية طوائف عمال مسلحين في كل مصنع وفي كل منجم ،ومنح ممثلو حركة العمال الثورية نصيباً في إدارة جميع الصناعات،

وسرعان ما أصبحوا يسيطرون على ٧٥ بالمئة من مصانع تشيكوسلوفاكيا المؤممة.

وكانت المظاهرات والاستعراضات الجماعية لأعضاء حركة العمال الثورية في شوارع براغ وغيرها من المدن تجري للضغط على الحكومة الائتلافية التي كان يرأسها في ذلك الوقت كليمنت غوتوالد الزعيم الشيوعي.

وعندما أعلن جون مازاريك في تموز (يوليو) سنة ١٩٤٧ ان الحكومة ستفكر في إرسال مراقبين إلى باريس بقصد الاشتراك في مشروع مارشال، عارض غوتوالد ذلك بناء على أمر موسكو، وكانت هذه هي بداية النهاية، فاتهم الشيوعيون مازاريك علناً بأنه عميل للدول الغربيــة الرأسمالية، وعمل رجال التشيكا على اغتياله قبل أن تنضم تشيكوسلوفاكيا نهائياً إلى دول الستار الحديدي في ربيع سنة ١٩٤٩. ومصرع مازاريك يصوّر الطريقة التي يفرض بها رجال التشيكا سلطانهم في الدول التابعة، وهي طريقة جديرة بالتفصيل. ولما كنت قد توصلت إلى وثائق تكشف عن الدور الذي لعبــه عملاء موسكو في انتحار مازاريك الغريب فقد آثرت وصف الحادث بإسهاب.

بعد محاكمة التطهير الكبرى التي حوكم فيها الزعماء الشيوعيون التشيكيون في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٢ أعدم شنقاً أحد عشر من الأربعة عشر متهماً، منهم رودولف سلانسكي السكرتير العام للحزب الشيوعي، وفلاديمير كلمنتس وزير الخارجية السابق، والجنرال بدريتش ريُسين نائب وزير الدفاع القومي السابق.

وكانت المحاكمة على غرار محاكمات موسكو التي جرت في أواخر العقــد الرابع من هذا القرن، وكان سلانسكي زعيم المنظمات الحزبية صورة تشيكية مصغرة لستالين سنوات طويلة، وقد اعترف في المحاكمة فجأة بأنه « لم يتجسس لحساب البوليس فحسب منذ سنة ١٩٢٤، بل كان من أشياع تروتسكي منذ سنة ١٩٢٧، وعميلاً للبرجوازية منذ سنة ١٩٣٧، وجاسوساً للدول الغربية منذ سنة ١٩٤٤ »، وأنه إلى جانب هذا قتل جان شفرما البطل الشيوعي التشيكي لمقاومة النازيين، وتآمر على قتل الرئيس كليمنت غوتوالد. وكانت اعترافات

المتهمين الآخرين على النهج نفسه مع استثناء واحد ، فان المتهم «أندريه سيمون» الذي وصف في المحاكمة بأنه « صحفي » ، وكان من قبل في صحيفة «رود برافو» الشيوعية ، كان هو الوحيد الذي لم يتول منصباً حكومياً رفيعاً ، وأقر سيمون بأنه مذنب ولكنه لم يزد على ذلك إلا قليلاً ، وقبل النطق بالحكم توجه بالرجاء إلى المحكمة بأن « تضع خدماته السابقة موضع الاعتبار وتجعلها من الظروف المخففة » .

وعندما أعلنت الأحكام الصادرة بالموت فيما بعد ، كان اسم سيمون هو آخر اسم وكان يلي أسماء عشرة من الوزراء والجنرالات وكبار الموظفين ، وقالوا بالاضافة إلى هذا ان اسمه الحقيقي هو أوتو كاتز وهو «عميل للوطنيين البرجوازيين اليهود » . ولم يكن ثمة إشارة إلى أية ظروف مخففة ولو أن كاتز – سيمون قد أدى خدمات جليلة للشيوعيين والتشيكا ، وقد عرفته حق المعرفة بفضل عملي كمراسل للصحف البريطانية والأميركية في الحروب التي نشبت ، وكان رجلاً يخلب اللب وغاية في الذكاء ، وله هوايات كثيرة ومغرم بالدسائس والمغامرات ، وقد أصبح من أشد عملاء التشيكا خطراً . ولعل خطره لم يكن راجعاً إلى أسباب تتعلق بالمثل العليا بقدر ما كانت راجعة إلى رغبة ملحة في السلطان كادت تبلغ مبلغ الهوس .

والأرجح أن التهم التي وجهت إليه في محاكمة براغ سنة ١٩٥٢ قد اصطنعها له زملاؤه السابقون في التشيكا ، إلا أنه استحق الشنق فعلاً للدور الذي لعبه في اغتيال مازاريك ، ذلك الأوروبي العظيم ، وقد اتهمه بعض من توافروا على دراسة التاريخ السري للتشيكا ، ومنهم أرملة تروتسكي ، بأنه اشترك في قتل ليون تروتسكي والزعيم الشيوعي الألماني ويلي مونزنبرغ ، وقد كان رئيسه ، على أنه ليس عندي ما يؤيد هذا وان كنت لا أستبعده .

وقد كان أوتو كاتز في الثانية والخمسين من عمره عندما أعدم شنقاً ، وقد ظل عميلاً للتشيكا ٢٢ عاماً ، وهو ابن صاحب مصنع للنسيج من الموسرين في براغ ، وقد نشأ مترفاً وتلقى من العلم قسطاً وافراً ، وكانت السنوات التي صيغت فيها

مداركه هي السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى ، وهي فترة تميزت في أوروبا الوسطى على وجه خاص بالشهوات والسفسطة العقلية . وكان من أصدقاء كاتز في براغ فرانز كافكا مؤلف كتاب « المحاكمة » وهي قصة رفعت من شأنه وجعلته من كتاب أوروبا اللامعين .

وقرر كاتز أن يصبح هو أيضاً كاتباً مشهوراً ، إلا أن مواهبه كانت محدودة ، وأنشأ بأموال أبيه مجلة أدبية رفيعة ، ودفع تكاليف نشر مجلد من أشعاره السقيمة ، ونجح في النهاية في حمل زمرة كانت تمتدحه لتعيش عالة عليه على الاعتراف به زعيماً أدبياً . وفي أواخر العقد الثالث من هذا القرن ، صادق في برلين مليونيراً من أثرياء الحرب وهو لويس كاتز نلبوغن ، وزوجته هي تيلا دوريه الممثلة الألمانية المشهورة . وأقنع كاتز صديقه الموسر بأن يمول مسرحياته التي كانت تمنى بالفشل دائماً ، إلا أنه حقق ما كانت تصبو إليه نفسه من أن يصبح شخصية لامعة في دوائر برلين المسرحية ، ثم أنشأ بمال صديقه ، ومعاونة أروين بسكاتور ، المنتج الموهوب « مسرحاً يسارياً » جديداً يسمى فولكسبوهن ، وقد ذاع صيته فيما بعد ، ودعا فرقة من مسرح موسكو إلى برلين ، وهكذا اتصل للمرة الأولى بالدوائر الشيوعية ، وسرعان ما أصبح مسرح فولكسبوهن مسرحاً شيوعياً يعرض المسرحيات الشيوعية .

وخسر الهر كاتز نلبوغن مليونين من الماركات في هذه المشروعات وانسحب من الميدان . وما وافت سنة ١٩٢٨ حتى كان كاتز فقيراً معدماً لا يملك شروى نقير . وكان أبوه قد فقد ثروته فاضطر للمرة الأولى في حياته وهو في التاسعة والعشرين من عمره إلى البحث عن وظيفة ، فاتصل بأصدقائه الشيوعيين وتلقى بواسطتهم دعوة لزيارة موسكو ، وعاد إلى برلين وهو عميل للتشيكا بعد أن تلقى تدريباً وجيزاً في مدرسة من مدارسها الخاصة بتدريب الجواسيس .

وفي ذلك الوقت كان الزعيم الشيوعي الألماني ويللي موينزنبرغ ، وهو منظم بارع ، على رأس دار النشر الشيوعية في برلين يسيطر على جميع صحف الحزب ومجلاته في برلين ، وقد جمع ثروة شخصية طائلة من هذا العمل الحزبي . وكان

رجال التشيكا ينظرون إلى مويتزنبرغ نظرة الشك والريبة بسبب صفقاته المالية الغريبة ، وكذلك لأنه كان متهماً « بالانحراف » عن الخطوط التي اختطها الحزب رسمياً لنفسه ، فعهد إلى كاتز بمراقبته ، وأصبح كاتز مدير دار النشر التي يملكها مويتزنبرغ ، وكسب من هذا العمل كثيراً . ثم جاءت سنة ١٩٣٣، وجاء هتلر ، وقصد كاتز ومويتزنبرغ فرنسا ، وألحق كاتز بشبكة الادارة السرية السوفياتية التي تراقب المهاجرين الشيوعيين من ألمانيا . وفي سنة ١٩٣٦ ألحق للعمل بالتشيكا في اسبانيا ، وقيل انه اشترك في اسبانيا ، ثم في روسيا بعد ذلك ، في الاستعداد للتآمر على اغتيال تروتسكي . وقد نجحت التشيكا في دسه في خدمة الحكومة الاسبانية الجمهورية ، وأصبح يعرف باسم أندريه سيمون ، مدير الاستعلامات في السفارة الاسبانية الجمهورية في باريس ، وكان كاتز بحكم سفره بين باريس واسبانيا همزة الوصل الأولى للتشيكا بين مختلف الشبكات .

وكان كاتز أحد جلادي السوفيات الذين استخدموا في القضاء على زعماء حزب « بوم » في اسبانيا ، إذ كانوا يختارون الضحايا ويرسلونهم إلى غرف الاعدام في مدريد وبرشلونة . وعندما عاد إلى موسكو في سنة ١٩٣٧ خلال التطهيرات الكبرى للبلاشفة القدامى كوفىء برتبة كولونيل شرف ، ثم نجده في باريس مرة أخرى قبل نشوب الحرب لا باسم الكولونيل كاتز بل باسم مسيو أندريه سيمون ، وقد أخذ يوزع ملايين الفرنكات على أصحاب الصحف ليؤثر على سياسة هذه الصحف لتميل إلى الاتحاد السوفياتي . وعندما اكتسحت فرق النازي الألمانية فرنسا أصبح المسيو سيمون الكولونيل كاتز ثانية ، مواطناً سوفياتياً في أمان من اضطهاد الألمان ، ذلك أن الهر فون روبنتروب كان قد وقع ميثاق صداقة مع المستر مولوتوف يكفل الحماية لجميع المواطنين السوفيات الموجودين في الأقاليم التي يحكمها الألمان .

ولعل كاتز كان اليهودي الوحيد الذي كان يشعر بالأمن في فرنسا أثناء احتلال النازي لها ، وكان مويتزنبرغ قد تنكر للستالينية قبل الحرب وألقت به حكومة فيشي في معسكر للاعتقال ، إلا أنه هرب مع سجينين من زملائه

وحاول الوصول إلى سويسرا ، وقد عثر على جثته معلقة على شجرة في فرنسا ، وأدلت أرملته بعد الحرب بالبيان التالي :

« كان كل شيء معداً لإخراج ويللي من فرنسا ومنها إلى أميركا ، إلا انه لقي مصرعه بعد هربه من المعسكر بساعتين ، وكان معه مبلغ كبير من المال ، واستولى رفيقان على كل ما كان معه وقد قاد أوتو كاتز هذين الرجلين إلى شاطىء الأمان ... » .

وعندما تحرج الموقف في فرنسا نجح الكولونيل كاتز ، وقد عاد يتسمى باسم أندريه سيمون مرة أخرى، في السفر إلى نيويورك عن طريق اسبانيا والبرتغال. وكان من دلائل براعته استطاعته دخول اسبانيا وعلى رأسها فرانكو ، حيث كان معروفاً بأنه عميـــل للتشيكا ، وأبرز في نيويورك جواز سفر تشيكياً حتى تعامله سلطات الهجرة الأميركية على أنه لاجىء من الاضطهاد النازي ، ثم ذهب إلى هوليود ونظم خلايا شيوعية بين ممثلي السينما ومنتجي الأفلام، وعندما اشتبه فيه رجال المباحث آخر الأمر هرب إلى المكسيك ، ومن المكسيك سافر كاتز إلى موسكو ، ولعل ذلك كان في سنة ١٩٤٣ ، ولا بد أنه منح تسهيلات خاصة إذ كان يحمل جواز سفر سوفياتياً . وعندما دخل الجيش الأحمر بوهيميا سنة ١٩٤٥ كانت تصحبه بعثة كبيرة من موظفي التشيكا السوفياتيـة وعلى رأسهم أوتو كاتز . وكان كثيرون يعتبرونه القوة الفعالة خلف الهـدنة التي سادها الاضطراب والفوضى والتي كانت قائمة بين الشيوعيين وأحزاب البرجوازيين ، وفي أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٧ أرسلت قنابل زمنية إلى ثلاثة وزراء بارزين من الوزراء غير الشيوعيين ، ولم يكشف البوليس قط مرسليها ، وليس هـذا بالأمر المستغرب ، ذلك أن وزير الداخلية ورئيس بوليس براغ كان كلاهما من رجال التشيكا الذين يوثق بهم ،وقد ساد الاعتقاد بأن كاتز كان مسؤولاً عن ذلك.

وفي ٩ آذار (مارس) سنة ١٩٤٨ أعلن كاتز ، وكان قد أصبح رئيس إدارة الاستعلامات الحكومية ، البلاغ التالي :

« وجد وزير الداخلية جان مازاريك ميتاً هذا الصباح في فناء قصر تزرنين

مقره الرسمي ، وقد انتحر بإلقاء نفسه من نافذة مكتبه ، وكان يعـاني انهياراً عصبياً فترة من الوقت » .

وفي اليوم التالي عين الدكتور فلاديمير كلمنتش ، وهو عميل سابق للادارة السرية السوفياتية ، وزيراً للخارجية خلفاً لمازاريك ، إلا أنه لا كاتز ولا رجال التشيكا استطاعوا أن يكتموا تماماً حقيقة مصرع مازاريك ، وهذا ما حدث في براغ في فجر ذلك اليوم من أيام الربيع الذي شاع فيه الضباب :

دق جرس التليفون قبيل الساعة الخامسة صباحاً في منزل الدكتور فاكلاف تبلي طبيب البوليس في حي مالاستراناً من أحياء العاصمة ، وكان المتكلم موظفاً في وزارة الداخلية طلب من الطبيب أن يتوجه من فوره إلى قصر تزرنين حيث حدثت حادثة خطيرة ، وبعد ربع ساعة كان يقود الطبيب رجـال « البوليس القومي الخاص » — وهم رجال التشيكا في بوليس براغ — إلى ركن من أركان فناء القصر حيث كانت جثة تغطيها ملاءة .

وقال الدكتور تبلي في بيان له أملاه على صديق يثق فيه ووقعه أمام ثلاثة أشخاص آخرين :

« أزاح رجل من رجال الأمن الغطاء فعرفت والفزع يملأ قلبي أن الرجـل المسجى أمامي الذي يرتدي البيجاما ان هو إلا جان مازاريك ، وأمرت أحد رجال البوليس أن يفتح سترة البيجاما فلاحظت أن على الجسم كله آثار كدمات وخدوش ولاحت لي كأمارات على استخدام العنف ، ورأيت في مؤخر العنق جرحاً لرصاصة ولعلها مقذوف قطره ٧٫٦٥ ملليمتراً ، وهتفت لنفسي أقول ان هذا لاغتيال وحشي » .

وفحص الدكتور تبلي مازاريك فحصاً وجيزاً فعرف أنه مات . وطلب أن تنقل الجثة إلى فوق حتى يستطيع أن يفحص الجثة بدقة أكثر ، ونقلت الجثة إلى المبنى وتبعها الدكتور تبلي ، ولاحظ وهو يدخـل أن بين من اجتمع من الموظفين وضباط البوليس فاكلاف نرسيك وزير الداخلية ، وفلاديمير كلمنتس نائب وزير الخارجيـــة ، ومدنياً كان يلقي بالأوامر ، وكان هذا المدني هو

الكولونيل أوتو كاتز .

كانوا يقفون جماعة يتهامسون؛ ثم هرعوا إلى البناء ليستقلوا المصعد الذي ينقل جثمان مازاريك ، وقيل للدكتور تبلي أن ينتظر ، وانقضت بضع دقائق قبل أن يعود المصعد ، وطلب من الطبيب أن يذهب إلى شقة مازاريك في الدور الثالث ، ولاحظ الدكتور تبلي وهو يدخـــل الغرفة أن وزير الداخلية وكاتز وغيرهما من الموظفين كانوا يصلحون وضع الكراسي في عجلة ، والظاهر أنهـا كانت منقلبة ، ويلتقطون من الأرض شتى الأدوات ومنها ابريق ثقيل وزجاجة. وكانت جثة مازاريك مسجـــاة على السرير ، وعندما شرع الدكتور تبلي في فحصها في ضوء الكهرباء تقدم نوسيك منه قائلاً : « لا تتعب نفسك كثيراً فهي حادثة انتحار واضحة ، أكتب شهادة الوفاة ». وذهل الطبيب من لهجة الوزير المقتضبة وقال ان واجبه يقتضيه تسجيل الاصابات التي كانت السبب في الوفاة ، فأمره نوسيك بأن يسرع ، قائلاً له ان من الواضح أنها حادثة انتحار . وحاول الطبيب أن يراجعه فأمره نوسيك في غضب أن يذهب إلى الغرفـة المجاورة ، وكانت غرفة مكتب مازاريك ، وأن ينتظر هناك . وقبل أن يبرح الغرفـــة لاحظ أن المدني « كاتز » كان يحمل منشفة على ذراعه ،ويحادث نوسيك و كلمنتس بصوت منخفض ، وسمعه الدكتور تبلي يقول بالروسية : « لا تكونا أحمقين.. » ثم استدعى نوسيك الطبيب إلى الغرفة بعد ثلث ساعة حيث كان جثمان مازاريك، وقد اجتمع في الغرفة وقتئذ بعض الموظفين الآخرين، وكان ينذرهم بأن يتحدثوا عن شيء مما وقع نظرهم عليه ، وقال لهم : « انكم لم تروا شيئاً ولم تسمعوا شيئاً .. » .

وذكر الدكتور تبلي في بيانه أنه تأكد حتى من الفحص السطحي الذي سمح له بإجرائه أن الدكتور مازاريك إنما مات مقتولاً بالرصاص ، وكان ثمة حروق حول الجرح ولا بد أن تكون الطلقة قد أطلقت والسلاح قريب جداً من عنق القتيل . ولا تعليل للكدمات والخدوش إلا أن يكون المجنى عليه قد حـاول إبعاد القتلة عنه محاولة اليائس . أما كسر العقب والكدمات التي على الساقين

والقدمين فربما كان سببها السقوط عندما ألقي بمازاريك من النافذة بعد قتله ، ولم تكن المسافة من النافذة إلى الفناء كبيرة ، وبالرغم من أن أرض الفناء كانت مرصوفة فان السقوط ما كان ليؤدي إلى الموت ، ولم تكن ثمة علامات على كسر في الجمجمة ، وان كان الدكتور تبلي لم يستطع التحقق من هذا، إلا أنه لم يخامره الشك في أن الرجل مات مقتولاً ، ولكنه أطاع أمر وزير الداخلية ووقّع شهادة وفاة وقال عن سبب الموت انه انتحار ، أما البيان الذي أملاه بعد الحادث ، فقد قال عنه أنه كتبه ليريح ضميره . وفي ٦ حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٧ أي بعد ثلاثة أشهر ، ظهر خبر وجيز في إحدى الصحف ينعي الدكتور فاكلاف تبلي ، وقيل فيما بعد انه مات إثر حادث ، فقد أخذ حقنة ليشفي نفسه من نوبة شديدة من « اللمباجو » ، فأخطأ وحقن نفسه بمادة شديدة السم ، وصدق بيريا إذ قال مرة : « يستطيع أي أحمق أن يرتكب جريمة القتل ، أما الفنان فهو الذي يلبس القتل لبوس الانتحار أو حادث من الحوادث » .

وكان الدكتور تبلي قد ترك بيانه في عهدة ثلاثة أصدقاء ائتمنهم على سرّه ووثق فيهم ، وهرب البيان من براغ سنة ١٩٥١ ، ونشر في ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥١ بجريدة النيويورك تايمز ، وقال رئيس التحرير المستر سولز برجر انه لا يخامره شك في صحة بيان الدكتور تبلي ، ذلك أنه بحث بحثاً دقيقاً في براغ في الظروف التي كتب فيها هذا البيان .

وكان جان مازاريك واثقاً كل الوثوق من المصير الذي ينتظره، ففي ٧ آذار (مارس) طلب من مارشيا دافنبورت ، المؤلفة المشهورة وصديقة من أعز أصدقائه وكانت تزوره في براغ ، أن تسافر في الحال إلى لندن لمقابلة ونستون تشرشل ، وكان عليها أن تقول لمستر تشرشل ان مازاريك يعتبر حياته في خطر ، وأن تدعو تشرشل لمعاونته على الهرب إلى بريطانيا . وكذلك سأل مازاريك مس دافنبورت أن تتصل بسير روبرت بروس لوكهارت وسير أورم سارغنت بوزارة الخارجية ، وكان مازاريك يعرفهما حق المعرفة منذ كان يقيم في لندن خلال الحرب ، وأن تطلب منهما معاونته . وكان مازاريك يعلم ألا

نجاة له من براغ حياً إلا بمعاونة عملاء بريطانيا السريين إلا أنه قبل أن تدركه المعونة من لندن كان قد لقي حتفه بعد أن غادرت مس دافنبورت البلاد بثلاثة أيام ، وهذا يدل على أن رجال التشيكا في براغ قد اشتبهوا في أن مازاريك يدبر هروبه فدبّروا اغتياله على عجل .

واختفى كاتز من المسرح بعد موت مازاريك ، « وأعفي » من منصبه الحكومي ، وانقضى عام تقريباً لم يسمع فيه عنه شيء حتى عاد للظهور في وظيفة متواضعة هي كاتب الافتتاحية في صحيفة « رود برافو » وكان السبب في غيابه بسيطاً ، فان كليمنت غوتوالد أمر بإلقاء القبض عليه بعد مقتل مازاريك ، ولعلنا لن نعرف أبداً ما إذا كان الباعث له على هذا الأمر هو أنه خشي أن يكون هو التالي لمازاريك في قائمة كاتز ، أو أنه أراد أن يخرس الرجل الذي يعرف أكثر مما يجب أن يعرف . وقد ذكر خلال محاكمة سلانسكي وكلمنتس في سنة ١٩٥٢ أن كاتز « كان يتآمر على قتل غوتوالد »، ولكن رئيس الجلسة منع الاسترسال في ذكر الملاحظات الأخرى ، إلا أنه سرعان ما أطلق سراح كاتز بناء على أوامر موسكو ، فمن الجلي أن خدماته للتشيكا كانت موضع تقدير ، فقد كان هو الذي « كشف الستار » عن وليم واتيس مراسل « الاسوشيتدبريس » واتهمه بأنه « جاسوس أميركي » . وبعد أن أطلق سراحه رفض غوتوالد أن يعيده إلى منصبه، وهيأ رودلف سلانسكي لصديقه كاتز وظيفة في صحيفة الحزب الشيوعي . وبعد نشر قصة الدكتور تبلي في أميركا بقليل قبض على كاتز مرة أخرى ، وحوكم مع سلانسكي وكلمنتس « والخونة» الآخرين. ولم يبق على قيد الحياة بعد أن أعدم في سنة ١٩٥٢ إلا شاهد عيان واحد لحادث مازاريك هو فاكلاف نوسيك ، وهو ما زال في الوقت الذي نكتب فيه هذه السطور وزير الخارجية ورئيس التشيكا الأسمى في براغ .

ولم يبق معظم الزعماء الشيوعيين الذين ساعدوا على « تحرير» أوروبا الشرقية في سنة ١٩٤٤ قدر ما بقي الكولونيل كاتز ، فانه ما ان رسخت أقدام الكومنفورم في نهاية سنة١٩٤٧حتى طرد معظمهم أو قضي عليه،والكومنفورم

كما هو معلوم مكتب الاستعلامات الشيوعي ، وهو كومنترن مصغر يسيطر على الأحزاب الشيوعية في سبع دول تابعة وفي فرنسا وإيطاليا .

وبالتخلص من الزعماء الشيوعيين « الوطنيين » ، وبعضهم ما كانت التشيكا لتستطيع استرقاقه على النحو الذي يرضي موسكو، أمن حكام السوفيات بأنه لن تقوم في إحدى الدول التابعة حركة كالتي قام بها تيتو ، وبذلك لن تتأصل الشيوعية القومية ، وتبقى التشيكا في الدول خلف الستار الحديدي لتكفل سيطرة موسكو التي لا تهن،وأداتها الشبكة الواسعة النطاق من عملاء السوفيات السريين الذين يبلغون موسكو بكافة الحوادث ويراقبون الانتاج الصناعي والتعليم السياسي وسلوك الزعماء العسكريين وكل مظهر من مظاهر الحيـاة الاجتماعية في الدول التابعة بالعناية التي يبذلونها في دول العـالم الحر . ويمارس عملاء السوفيات السريون ومعاونوهم نشاطهم في الدول التابعة بسرية لا تقل في كثير عن السرية التي يمارسون بها نشاطهم خارج الستار الحديدي ، مع فارق واحـد هو انه ليس ثمة ما يخشون منه إذا انكشف أمرهم . ويجري التجسس خفية ، ذلك أن الادارة السرية السوفياتية تعلم أن جزءاً كبيراً من السكان وخاصة في تشيكوسلوفاكيا وبولندا يعارضون النظام الشيوعي معارضة قوية ، وكذلك لأن موسكو لا تثق أبداً في أصدقائها، وتقلل موسكو خطر الانشقاق القومي بنقل السلطان المرة بعد المرة من جماعة من الزعماء الشيوعيين إلى جماعة أخرى .

وعملاء السوفيات السريون قريبون دائماً من مسرح الحوادث حتى يمكنهم إجراء التطهيرات الدورية ، وتقليد مقاليد الأمور لرجال جـدد يعتبرهم أولو الأمر أكثر تحقيقاً للثقة أو على الأقل أكثر استعداداً للخدمة .

وكانت الادارة السرية السوفياتية تشرف على عدد كبير من شبكات التجسس القوية في الصين الشيوعية وخاصة في منشوريا وتعمل الشبكات السوفياتية في الصين على تحقيق بعض الاتصالات الهامة في الشبكة الآسيوية الواسعة النطاق ، فان عملاء السوفيات ، بتعاونهم مع زملائهم الصينيين ، كانوا يستطيعون بسهولة الاتصال بعواصم

جنوب شرق آسيا من النقط الأمامية في كانتون ويونان ، كما انه يمكنهم معاونة الدولة الشيوعية الجديدة في فيتنام المنقسمة في الهند الصينية ، والتوغل في سيام ولاوس وكمبوديا ، ومساعدة الثوار الشيوعيين في بورما . ولقواعد التشيكا الصينية أهمية قصوى للمحافظة على الاتصالات مع « المراقبين» الذين يعملون في الملايو وتهيئة الأماكن المناسبة للانقضاض على أندونيسيا . وقد ساد الاعتقاد في وقت من الأوقات بأنها من أخصب المناطق الصالحة لقيام الثورة في جنوب شرق آسيا .

ولنقطة هاربين التابعة للادارة السرية السوفياتية تاريخ طويل فقد استخدمت ثلاثين عاماً كمقر لقيادة الجاسوسية السوفياتية في الشرق الأقصى ، وهو اليوم مركز من المراكز التي تستخدم للتجسس على الولايات المتحدة في الشرق الأقصى ، فالتقارير ترد من فوشو حيث يراقب عملاء السوفيات فورموزا وشنغهاي ونانكنغ وفلاديفوستك حاملة أنباء الشبكات والمعلومات التي يجمعها العملاء في طوكيو وكيوشو عن قواعد الولايات المتحدة البحرية والجوية في اليابان لنقلها إلى موسكو .

ومن ثمة فليس في العالم بقعة من بقاع الأرض تخلو من التجسس الذي يقوم به عملاء التشيكا .

الفصل الخامس عشر

النجاح والفشل

ان الحكم على نجاح أو فشل أي عمل بالذات تكون قد قامت به إحدى الادارات السرية ، لا بد أن يتوقف على النظرة التي تنظر بها إلى هذا العمل . فمثلاً نالت الادارة السرية البريطانية المديح لأنها كشفت القناع عن كلاوس فوخس وحصلت على اعتراف منه ووضعت حداً لنشاط رجل كانت له عند الادارة السرية السوفياتية قيمة عظيمة . ولكن من الناحية الأخرى قد تعتبر الادارة السرية السوفياتية ان فوخس كان من أعظم دواعي نجاحها ومن أكبر أسباب فشل البريطانيين ، ذلك أنهم تركوا عميلاً ينفذ إلى أهم الأسرار ويتصل بعملاء دولة أجنبية وينقل إليهم المعلومات سنوات طويلة دون أن يعيقه عائق . ولا يعد التجسس الذري السوفياتي فاشلاً بسبب القبض على كثير من المبلغين في نهاية الأمر وللحكم عليهم بالسجن أو الموت، ولا تذاع قط – على الأقل لسنوات كثيرة – الحالات التي ينجح فيها التجسس تماماً ، حيث يستطيع العميل الحصول على معلومات سرية ولا يكشف أمره أبداً والأسباب لذلك واضحة تغني عن الشرح .

أما بعد أن قدمت للموضوع هذه التقدمة فسأسرد في هذا الفصل بعض

الأمثلة على نجاح الادارة السرية السوفياتية وفشلها . ويتعذر علينا ، لو أننا توفرنا على دراسة تاريخ التجسس كله ، أن نجد نجاحاً أروع من النجاح الذي حظي به الدكتور ريتشارد سورج،ولأعماله أهمية خاصة،لا لأنها تنافس القصص الخيالية في غرابتها فحسب ، بل لأنها دليل على أن الادارة السرية السوفياتية بالرغم من نقط ضعفها الناشئة عن بيروقراطيتها ونظامها الجامد الصلب ، مستطيعة أن تخرج عميلاً له شخصية لامعة عظيمة وتطلق يده في الابتكار .

في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٤ أعدم شنقاً ريتشارد سورج ، الملحق الصحفي بالسفارة الألمانية بطوكيو، وأوزاكي هوزومي معاونه الأكبر ، بوصفه جاسوس موسكو الأول . وكان شنقهما بعد ثلاث سنوات من اكتشاف مؤامرتهما . ولكن بالرغم من أن حياة سورج كجاسوس كانت قد انتهت قبل الاعتداء على بيرل هاربر وقبل دخول روسيا الحرب ضد اليابان بأربع سنوات ، فان ستالين وصفه بأنه « الرجل الذي أنقذ حياتنا » . ومع أن سورج كان يبعد ٧٠٠٠ ميل عن الموقعة التي هزم فيها الجيش الألماني هزيمة منكرة في ستالينغراد ، وهي الهزيمة التي لم يصح منها أبداً ، إلا أنه كان صاحب الفضل في هذا النصر المظفر .

وقد سرد الجنرال ويلوبي،رئيس إدارة مخابرات الجنرال دوغلاس ماك أرثر، قصة تجسس سورج في اليابان بتفصيل كبير ، وقد ضمن كتابه أدلة كثيرة مدعمة بالوثائق. وثمة رواية مثيرة كتبتها في الموضوع هيد ماسنغ مطلقة غرهرد ايسلر، ولا يتسع المقام إلا لسرد ملخص القصة .

ولد ريتشارد سورج سنة ١٨٩٥ في باكو ، وكان أبوه مهندساً ألمانياً يتولى منصب مدير إحدى شركات الزيت وتزوج بفتاة روسية ، وعادت الأسرة إلى ألمانيا وسورج لا يزال طفلاً، وأقامت في هامبورغ.وتطوع في حرب سنة١٩١٤ وجرح ثلاث مرات ، ثم ترك جيش القيصر عند اشتعال نيران الثورة سنة ١٩١٨ ، وانخرط في سلك طلبة جامعة كيل حيث أصبح شيوعياً ، كما فعل كلاوس فوخس بعد ذلك بسنوات ، ثم حج إلى موسكو . وفي سنة ١٩٢٤،بعد

أن درّب في مدارس التجسس ، عهد إليـــه بياتنتزكي ، أستاذ الجاسوسية في الكومنترن ، بأولى مهماته . وكان لسورج دخل خـــاص ، إذ كان أبوه من الموسرين ، واقترح أن يذهب إلى لندن على حسابه الخاص . ولقد أجاد عمله كعميل في بريطانيا واسكندينافيا في منتصف العقد الثالث من هذا القرن حتى رقي إلى منصب رفيع في المكتب الرابع للمخابرات العسكرية ، وهي مصلحة من مصالح وزارة الحربية ، إلا أن اتصالاته الوثيقة بالتشيكا والكومنترن لم تنقطع أبداً ، وكان سورج أحد الجواسيس القلائل الذين عملوا سنوات طويلة لكل من التشيكا والمخابرات العسكرية ، ورقي في سنة ١٩٣٤ إلى رتبة ليفتنانت جنرال ، وكان أحد خبراء موسكو البارزين عن آسيا . وكانت له السيطرة على شبكة شنغهاي ، وكان يتكلم الصينية واليابانية بطلاقة . وقد زار اليابان عدة مرات وصادق الكثيرين من كبار الساسة الصينيين واليابانيين .

وعندما تولى هتلر مقاليد الحكم اقترح سورج أن يذهب إلى ألمانيا ويتصل بقادة النازيين ــ وكان سورج معروفاً في الادارة السرية السوفياتية باسم «ايكا» ، وكان قد غاب عن ألمانيا ثماني سنوات ، ومن ثم فقد كان الخوف من التعرف عليه ضئيلاً ، بل لعل الترحيب به كان مرجحاً بصفته ألمانياً كان يقيم في الخارج ، وكانت الخطة المرسومة له أن يحصل على وظيفة في الغستابو أو غيره من هيئات النازي حيث يستطيع الحصول على معلومات تكون لها قيمتها عند موسكو .

وقد قدم هذا الاقتراح الباعث على الذهول إلى ستالين فوافق عليه . وهو الذي كان يعلم ما يقوم به سورج من أعمال جليـــلة . واتصل سورج في ألمانيا بأجناس ريس مدير التشيكا المقيم ، وقدم بواسطة شخص ثالث إلى رئيس تحرير جريدة « فرانكفورتر زايتونغ » الدكتور جيسنبرغ ، وهو وطني ألمـاني من المدرسة القديمة كان له أصدقاء عديدون بين قادة النازي .

وقال سورج لغيسنبرغ انه غاب عن الوطن ثماني سنوات بسبب « نظام ويمر الديمقراطي الفاسد » ، وأنه الآن يريد أن يخدم الريخ الذي ولد من جديد، وتأثر الهر غيسنبرغ بهذا الرجل اللامع وعرض عليه وظيفة مراسل أجنبي «لفرنكفورتر

زايتونغ » . وقدّمه إلى غوبلز وغيره من قادة النازي ، ولقد كان من واجب الفستابو أن يكون لديه ملف عن ماضي سورج الشيوعي ، إلا أن الفستابو كان في شغل شاغل عنه باضطهاد اليهود ، وفاته أن يجد أي شائبة تشوب المستندات المزورة المقدمة منه، والتي كانت تشهد بأنه اشتغل في الصين في عدد من الشركات التجارية الألمانية . وسرعان ما نال موافقة الفستابو على أنه شخص يمكن الوثوق به، فالتحق على عجل بالحزب النازي ورحل بعد بضعة أشهر إلى اليابان كمراسل ألماني معتمد .

وعندما زار ألمانيا مرة أخرى ، اتصل به أحـد عملاء الأميرال كنارس ، واقترح عليه أن يجمع بين أعمال المخابرات للحكومة الألمانيـة وعمله كمراسل لصحيفة (فرانكفورتر زايتونغ) . وتظاهر سورج بالدهشة وأعرب عن خوفه من أن يكون عديم النفع، وهو الذي لا يعرف شيئاً في أعمال المخابرات، ووعده عميل الأميرال كنارس بأن يعلمه ويدرّبه على أعمال المخابرات ، ولا شك أن هذا الضابط في وزارة الداخلية قد وجد صعوبة في كبت ابتسامة على شفتيه !

وأصبح سورج عميلاً ألمانياً منذ سنة ١٩٣٤، يدخل السفارة الألمانية بطوكيو ويخرج منها بحرية تامة ، وهو يحمل أغـلى دلائل الثقة ، ثم صادق اللفتنانت كولونيل أوجين أوت ، وهو خبير ألماني في المدفعية ملحق بالجيش الياباني، وقد أصبح فيما بعد ملحقاً عسكرياً ، وتوطدت أواصر الصداقة بينهما حتى ان أوت كان يطلع سورج على أدق الأسرار التي كان يبعث بها إلى برلين ، وكان سورج ينقل كل هذه المعلومات إلى موسكو ، وافتتح مكتباً صغيراً واتخذ كمساعد له ، أوزاكي هوزومي ، الصحفي الذي يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره وابن عم الأمير كونوي ، رئيس وزراء اليابان ، وكانت لهوزومي « ميول تقدميـة » فاستطاع سورج ان يجعل منه شيوعياً خفياً مخلصاً بفضل ما بذل من عناية خلال شهور طويلة في صقله وتنشئته .

ورقي أوت في الوقت المناسب إلى درجة سفير ، وكانت أول خطوة رسمية اتخذها هي أن يجعل صديقه سورج الملحق الصحفي في السفارة الألمانية . وكان

لهذا التعيين مزاياه الظاهرة ، إلا أنه كان يقتضي أن يكفّ سورج عن اتصاله بموسكو بواسطة مكتبه . وأرسلت التشيكا ماكس كلاوزن ، عامل اللاسلكي المدرّب ، وبرانكو دي فوكيليتش ، مراسل مجلة فرنسية مصورة ، ليعملا كموصلين . وتمت حلقة التجسس بصحفي ياباني ، هو ميياجي بوتوكو ، أقام في الولايات المتحدة منذ سنة ١٩١٩ وكان عضواً سرياً في الحزب الشيوعي الأميركي.

وكان من الطبيعي للهر الدكتور سورج الملحق الصحفي أن يختلط بصحفيين من باريس ونيويورك . وما كان أحـــد يشتبه في أن اثنين منهم كانا يحملان معلومات سورج إلى كلاوزن الذي كان يرسلها باللاسلكي ، بمعاونة بعض عملاء السوفيات الآخرين ، إلى موسكو مستخدماً محطات إضافية في هاربين والصين. ومن سخرية القدر أن جريدة « نخرختند ينشت » النازية كانت تدفع معظم نفقات سورج في التجسس لحساب الادارة السريـــة السوفياتية ، وكانت بعض برقياته إلى برلين مثيرة ومليئة بالمعلومات الداخلية حتى هنأه الأميرال كناريس أكثر من مرة بل هنأه هملر وغورنغ .

وقد اكتشفت بعض جلائل الأعمال التي قام بها سورج بعد احتلال اليابان سنة ١٩٤٥ . ولا يتسع هذا المقام إلا لذكر عمل من هذه الأعمال ، فانه عندما احتلت جيوش هتلر أوكرانيا بأسرها ووصلت إلى القرم وبدأت حصار موسكو في أواخر صيف سنة ١٩٤١ ، كان الموقف يبدو ميئوساً منه . وخشي ستالين أن يقدم اليابانيون على غزو سيبيريا في أي لحظة، حتى يكرهوا روسيا على خوض غمار الحرب في جبهتين . وكان لستالين جيش عدته بين ٤٠٠٫٠٠٠ و ٥٠٠٫٠٠٠ جندي كاملي العدة يقومون على حراسة حدود سيبيريا . وكان مصير موسكو بل مصير الحرب كلها ، يتوقف على ما إذا كان يمكن لستالين نقل هذه الجيوش إلى الجبهة الغربية ، فأخذ ستالين يعمل على التحقق من نوايا اليابان ، وكان يدرك أن أية غلطة قد تودي بحياة روسيا وتعصف بكيانها. واستطاع سورج ، بمعاونة عملائه في الحكومة ، وخاصة بواسطة أوزاكي هوزمي ابن عم الأمير كونوي ، وسايونغي كتازو الضـــابط الشاب في رئاسة الوزراء ، وأوشيبا توماهيكو

وكيشي السكرتيرين الخاصين لرئيس الوزراء اليـــاباني ، الحصول على صور فوتوغرافية لمحاضر جلسات مجلس الوزراء وأكثر وثائق الحكومة سرية، وأمكنه بذلك أن يؤكد لموسكو أن اليابان ستحترم ، على الأقل في ذلك الوقت ، ميثاق الحياد الذي أبرمته مع الاتحاد السوفياتي في نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٠، وأن خطتهم موجهة ضد بريطانيا وأميركا لا ضد روسيا ، بل ان سورج أمكنه أن يزوّد موسكو بالخطة التي أعدها الجنرال توجو وزير الحربية وضمنها توصيات هيئة أركان الحرب اليابانية العامة عن الهجوم على بورما والفيليبين . ومن المحتمل أن سورج كان يعلم في ذلك الوقت بالخطة اليابانية للهجوم على بيرل هاربر .

وفي آب (أغسطس) سنة ١٩٤١ عندما كانت الجيوش الألمانية تقترب من كرش وروستوف وستالينغراد استطاع سورج مرة أخرى أن يخبر ستالين أنه تقرر في اجتماع سري لمجلس الحرب حضره الامبراطور «أن التوسع الياباني يجب أن يتجه جنوباً » . وفي أوائل أيلول (سبتمبر) أبلغ عن انسحاب ٣٠ فرقـة يابانية من منشوريا ، وذلك على مـــا هو واضح للهجوم على بورما وأندونيسيا والفيليبين ، وقال أنه ليس على حدود سيبيريا إلا فرق ثانويـة . وكانت آخر رسالة وجهها إلى موسكو بعد أن ألقي القبض على أعضاء شبكته الجاسوسية ، بما فيهم هوزومي . ولا شك أن سورج كان قد عرف وقتئذ بأن نهـــايته قد قربت وكانت هذه الرسالة تحمل التاريخ ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ، وقد اختتمها بقوله : « ستهاجم اليـــابان أميركا وبريطانيا ، ولم يعد الخطر محدقاً بالاتحاد السوفياتي » . وقد ألقي القبض على سورج بعد ذلك بثلاثة أيام، وانفرط عقد حلقة تجسسه الفريدة في نوعها بعد أن ظلت سنوات تستقي معلوماتها من المصادر الحكومية رأساً ، وقبض على ٣٤ من عملائه ومبلغيـــه ، منهم كثير من كبار موظفي الحكومة وكذلك ماكس كلاوزن ومعـــه جهاز الارسال البديع ، ولكن ستالين ، وهو الواثق بسورج كل الثقة ، كان قد نقل جيوشه من الشرق ، وبدأت نهاية هتلر في ستالينغراد .

وأعدم سورج وهوزومي شنقاً آخر الأمر ، ومـات خمسة من العملاء في

السجن ، وحكم على عملاء آخرين بالسجن مدداً تتراوح بين ثلاث وخمس عشرة سنة ، ولم يبق على قيد الحياة من العملاء الخمسة الذين أرسلتهم التشيكا لمعاونة سورج إلا كلاوزن عامل اللاسلكي . وقد أطلق الأمير كيون سراحه في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٥ .

وبعد ثمانية أسابيع من إلقاء القبض على سورج هاجم السلاح الجوي الياباني بيرل هاربر ، وأغرقت البارجتان « برنس أوف ويلز » و « ريبلس » أمام شاطىء سنغافورة . وقد صدق سورج في كل ما قاله ، ولم تشهر اليابان الحرب أبداً على الاتحاد السوفياتي ، بل ان موسكو هي التي أعلنت الحرب على اليابان في اليوم التالي من إلقاء الأمير كيين القنبلة الذرية على هيروشيما وقبل أن تستسلم اليابان بأحد عشر يوماً ، ولم تعترف موسكو علناً بأعمال سورج الجليلة — فان النصب لا تقام لعملاء التشيكا ، إلا أن ذكراه في الكرملين تلقى التكريم الذي تلقاه ذكرى البطل ، ومدحه ستالين أعظم مديح عندما قال : « انه سورج الذي فاز في معركة ستالينغراد وأنقذ حياتنا ! » .

وقد نجحت الادارة السرية السوفياتية ، في وقت من الأوقات على الأقل ، في إنشاء شبكات تجسس عظيمة في ألمانيا وبلاد أوروبا التي كان يحتلها النازيون ، وكان موظفو الحكومة الألمانية هم الذين يغذون هذه الشبكات بالمعلومات ، وكان ولوبر هو الذي يدير هذه الشبكات من سويسرا المحايدة . وقد كوفىء بعد الحرب على عمله البارع . وانك لتجد في بناء وزارة هتلر السابقة للطيران في برلين ، وهو البنـاء الذي جدّده الشيوعيون وجعلوه مقر حكومة ألمانيا الشرقية ، جناحاً أنيقاً على بابه الرئيسي لافتة من النحاس كتب عليها « أرنست فريدريخ ولوبر وزير النقل والشحن » . ويجلس اليوم خلف المكتب الكبير الذي كان يستعمله يوماً أحد معاوني غورنغ ، رجل قصير القامة له وجه رخو خلف الجدري فيه آثاره ، وله رأس تيوتوني أصلع تماماً . ويبدو الهر ولوبر وزير المواصلات في هيئة رسم كاريكاتوري لرجل ألماني قروي صخاب ، إلا أن مظهره خداع ، فقد ظل ثلاثين عـاماً من أبرع جواسيس الادارة السرية

السوفياتية ، وعرف كل أسرار هتلر فيما خلا سراً واحداً وهو غزو روسيا في حزيران (يونيه) سنة ١٩٤١ .

وقد وصف ولوبر بأنه « الكمان الأول في الأوركسترا الحمراء »، وكان الاسم « أوت كابيل » يشير إلى شبكات عملاء الادارة السرية السوفياتية الذين تركوا في أوروبا التي تحتلها الجيوش النازية ، ولعل هذه الشبكة كانت أكفأ شبكة للتجسس نظمت خـلال حرب من الحروب . وكان تحت تصرف الأوركسترا الحمراء ١٤ جهازاً قوياً للارسال في مدن أوروبا ، كانت الرسائل تنقل بواسطتها إلى موسكو كل ليلة . وبلغ عدد العملاء الذين ينتمون إلى الأوركسترا الحمراء نحو ٢٠٠ لم يكن يعرف منهم عن محطات الراديو ومواقعها إلا زمرة قليلة العدد.

وكان أحد المراكز يوجد في بروكسل ، وقد عرفت الشبكة باسم طائفـة بوردو ، وكان مديرها الكابتن قسطنطين بافلوفيتش يفرويموف الذي جاء إلى بلجيكا سنة ١٩٣٩ لدراسة الهندسة . وعندما اكتشف الغستابو هذه الشبكة آخر الأمر كان عدد العملاء المتفرغين الذين ينتمون إليها ١٩ ،وكان ثمة طائفة أخرى تدعى « طائفة كنت » تعمل في بلجيكا أيضاً ويرأسها عميلان من عملاء التشيكا هما ميهابيل ماخاروف وبافيل دانيلوف .

وكانت طائفة هيلدا هي الشبكة الثالثة ومقرها أمستردام، وكان يفرويموف يشرف عليها من بروكسل ، إلا أن مديرها كان موريس ونترنغ وهو شيوعي هولندي ، أما في باريس فقد كان مدير طائفة جلبرت عميلاً من أكبر العملاء التابعين للادارة السرية السوفياتية ، ولم يكشف القناع عن شخصيته قط،وكان « لجلبرت » عملاء في عدد كبير من المدن في فرنسا . وظلت هذه الشبكة ثلاث سنوات ترسل المعلومات عن تحركات الجيوش الألمانية من الغرب إلى الشرق ، وقد سبق لنا ذكر طائفة رادو في جنيف وطائفة روسلر لوسرن ، بل ان الشبكة امتدت إلى البرتغال حيث كان للادارة السرية السوفياتية جهاز إرسال يتصل بأجهزة إرسال أخرى لنقل المعلومات إلى موسكو .

وكان قائد الأوركسترا الحمراء يعزف الكمان الأول في استوكهلم، وهو يدير

شبكات التجسس باللاسلكي وبالرسل ، وكان عملاؤه الذين كانوا يكرهون النظام الهتلري على استعداد للمخاطرة بحياتهم . وكان منهم الدكتور أرفيد هارناك ، وهو موظف كبير من موظفي وزارة الشؤون الاقتصادية النازية تحت رئـــاسة الدكتور فونك ، وكذلك الكابتن هاروفون شولتز بويسن بوزارة الطيران ،والدكتور آدم كيوكهوف وزوجته مرغريت التي كانت تترجم خطب غوبلز إلى الانكليزية في وزارة الدعاية النازية ، ومن ثم فقد كانت المعلومات مستقاة من مصادر عالية لا يرقى إليهـــا الشك ، وقد ألقي القبض على معظم أعضاء الأوركسترا الحمراء داخل ألمانيا ونفذ فيهم الغستابو حكم الموت ، إلا أن أجهزة الارسال التابعة للادارة السرية السوفياتية ظلت تعمل سنتين في قلب أراضي العدو .

وكان العملاء البريطانيون والأميركيون يعملون بطبيعة الحال خلف خطوط العدو ، وقد تطوع كثير من الرجال والنساء ذوي الشجاعة للهبوط بالمظلات في أوروبا ، إلا أنه مما يلفت النظر في حالة الأوركسترا الحمراء أن خططها قد دبّرت قبل نشوب الحرب بزمن طويل ، وكانت على استعداد بأجهزة الارسال وعملها حتى في الوقت الذي كان مستر تشمبرلن يتحدث فيه عن السلام !

ولم يكتف ولوبر بالمعاونة في إدارة الأوركسترا الحمراء بل نظم وقاد حملة من التخريب لعلها كانت فريدة في نوعها أثناء قيام الحرب . وقد أضرت هــذه الحملة بجهود المحور الحربي أكثر مما كان يفعله أسطول من الغواصات ، وولوبر ابن أحد عمال المناجم في سيليزيا ، وقد التحق بالحزب الشيوعي الألماني عنــد تأليفه ، وكان ما يزال بعد يافعاً ، وتقدم في السن مع تقدم الحزب ، ولفت إليه أنظار موسكو في نهاية الحرب العالمية الأولى عندما دبر بعض الاضطرابات في هامبورغ . وقد وصل إلى موسكو ، عندما كانت الصلات مقطوعة بينها وبين ألمانيا ، بطريقة مبتكرة . ذلك أنه التحق بخدمة سفينة تعمل في بحر الشمال ، وهرّب أربعة من الرفاق على ظهرها وأخفاهم في خزان السمك الفارغ . وفي عرض البحر استولى الشيوعيون الخمسة بالمسدسات على السفينة وأكرهوا الربان

على تغيير وجهة السفينة إلى مورمانسك . وتدرّب ولوبر على يد التشيكا ثم أعيد لينشيء نظاماً يعم العالم كله ينتظم فيه رسل في خدمة الكومنترن،وذلك بوصفه سكرتير اتحاد البحارة الدولي ، وتلت ذلك سنوات في الخدمة في أجزاء مختلفة من العالم ، وأصبح خبيراً في التدمير البحري وقد نسب إليه تدمير أو إلحاق الضرر بواحد وعشرين سفينة ألمانية وإيطالية واسبانية تحمل الطعام والسلاح إلى جيوش فرانكو .

وقد اشتغل منذ سنة ١٩٣٣ في كوبنهاغن ، متخذاً في الظاهر صبغة محلات سلنو وشركاه المهندسين المعماريين ، ولها مكتب كبير في « فستربورت » ، وما هذا المكتب إلا واحد من تسعة مكاتب للادارة السرية السوفياتية فيالدانمرك، وكلها تعمل متخذة سمة الشركات الخاصة . وقد عهد إلى ولوبر في الحرب التي كان مقدراً وقوعها بمهمة تدمير مؤن ألمانيا التي تحملها السفن ، فعمد إلى إجراء بعض التجارب الكاملة بقصد تدريب رجاله وإلحاق الأذى بالنازيين . وما الحريق الذي شبّ في سفينة هاباج – ريلاينس سنة ١٩٣٨ التابعة لخط الملاحة هامبورغ – أميركا فدمرها تدميراً ، وأغرق السفينة كلاوس بوج في ميناء هامبورغ ، والانفجارات التي حدثت على ظهري السفينتين نوردثي وفيلاس،إلا من تدبير عملاء ولوبر . على أن هذا كله لم يكن إلا تجربة للحملة التي عني ولوبر بوضعها لتنفيذها خلال سنوات الحرب ، والتي كان المسؤولون عن التشيكا يفتحون لها الاعتمادات التي لا حصر لها لوضعها موضع التنفيذ . وقد قال لي أحد خبراء الشحن السويديين بعد الحرب أن السلطات السويدية قدّرت ما صرفه ولوبر وعملاؤه والمخربون الذين يعملون تحت إمرته خلال هذه الحملة بما لا يقل عن مليون ونصف مليون جنيه انكليزي . وقد صدرت الأوامر إلى ولوبر بأن يسمح لأي سفينة سويدية تحمل الحديد الخام من لوليا بالوصول إلى ألمانيا من استوكهلم أو مالمو أو غوتنبرغ . وكانت السويد على الحياد وتعتبر تزويدها ألمانيا بالحديد الخام أمراً مشروعاً تماماً ، ولو أن ذلك كان من غير شك معاونة جلية للمجهود الحربي الألماني . وعندما اشتعلت النيران في عدد من سفن الشحن أو

دمّرتها قنابل زمنية كان وجال ولوبر قد خبأوها في أجوافها قبل أن تقلع من الموانئ السويدية، انقضت السلطات السويدية على ولوبر وكانوا يشتبهون فيه منذ أمد بعيد ، وقدمت موسكو احتجاجاً قوياً في استوكهلم ، وما لبث أن أطلق سراحه وعاد يقود رجاله كما كان دأبه .

إلا أنه وهو في السجن كان رجاله يعملون نيابة عنه : فقد نسفت ثلاث مدمرات حديثة من قطع الأسطول السويدي في ميناء استوكهلم ، وكان من سفن الشحن التي دمّرها ولوبر السفن الكبيرة: فاسا وآداغورثون وليلغ وغوستافوس أدولفوس ومالمو وغاليون ولوليـــا ، وقد قضى ولوبر على جانب كبير من الأسطول التجاري السويدي ورفضت شركات التأمين السويدية أن تدفع القيمة المؤمن بها عليها . وقرر ولوبر أن يهاجم منبع الحديد الخام حتى يحول دون إرسال شحناته إلى ألمانيا ، فأوفد الناسفون الذين يأتمرون بأمره بالديناميت إلى وصلة السكة الحديدية في كريلبو الواقعة على بحيرة دالالي في فاستمانسلاند شمال غرب استوكهلم ، فنسفوا ساحات التموين وفيها عشرات من قطارات البضاعة المحملة بالدبابات والذخيرة الألمانية المرسلة من النرويج إلى الجبهة الشرقية ، والمواد الخام المرسلة من النرويج والدانمرك إلى ألمانيا . وكان التخريب شاملاً حتى كادت مدينة كريلبو أن تسوى والأرض بفعل التدمير .

ولكن المخربين التابعين لولوبر لم يقصروا جهودهم على أوروبا الشمالية ، فقد تدرّب وهيمن على أعمال التخريب الموجهة ضد الايطاليين في البحر الأدرياتيكي والبحر الأبيض المتوسط ، وحيرت الانفجارات الكثيرة الغامضة التي حدثت على ظهر السفن الايطالية واليوغسلافية واليونانية إدارة المخابرات البحريـــة البريطانية وهي التي لم تكن تعرف شيئاً عن الهر ولوبر .

وعمد ولوبر ، إلى جانب تنظيم أعمال التخريب التي وصفناها ، إلى تنظيم أعمال الأوركسترا الحمراء في ألمانيا بمعـــاونة الكابتن ولتر أولبرخت ، وكان لأولبرخت مكتب في العاصمة الهولندية يتضمنه مكتب لشركة من « المحامين » في ناحية فيملشكتت وكان معروفاً باسميه المستعارين سورنسن وأوريك ، وهو

اليوم رئيس الجمهورية الديمقراطية الألمانية. وولوبر هو أحدأعضاء الأوركسترا الحمراء القليلين الذين نجوا من الفستابو ومن تطهيرات موسكو ، وهو اليوم يحتفظ في ألمانيا بكل مهارته كعميل ، ويقوم بتدمير جهود الدفاع الغربية بنفس الكفاية التي كان يقوم بها في تدمير السفن الألمانية . وما منصبه كوزير للنقل والشحن إلا ستار يخفي وراءه عمله الحقيقي وهو أن تكون ألمانيا الغربية معقلاً من معاقل الشيوعية .

وكان سادة صناعات الرور الجدد على أتم الاستعداد للتعامل مع ولوبر ، وان كانوا يصطنعون شيئاً من الحرص بسبب « التدخل » البريطاني والأميركي ، وهم يحققون ربحاً جزيلاً من هذا التعامل ، فقد أرسل أرباب الصناعة في ألمانيا الغربية سنة ١٩٥٠ ما قيمته ٧٤ مليون دولار من المواد الجوهرية إلى المنطقة السوفياتية ، وقد زادت تجارة ألمانيا الغربية مع الصين الشيوعية وحدها في الشهور الستة الأولى من الحرب الكورية نحو ٢٧ في المائة ، وبلغت قيمة الصادرات من الحديد والصلب من الرور إلى الاتحاد السوفياتي خلال سنة ١٩٥١ ، بفضل وساطة الهر ولوبر ، نحو مليونين ونصف مليون من الدولارات ، وتضاعف هذا الرقم تقريباً في سنة ١٩٥٢ ، وبلغت قيمة التجارة غير المشروعة في سنة ١٩٥٣ — ١٩٥٤ في المواد الاستراتيجية بين ألمانيا الغربية والاتحاد السوفياتي والصين أقل بقليل من خمسمائة مليون من الدولارات بقليل.

وقد استطاع أرباب الصناعة في ألمانيا الغربية أن يشحنوا مصانع كاملة بل محطات للقوى الكهربائية وعشرات الآلاف من الأجهزة الدقيقة إلى الشرق حيث كانت تستعمل لتجهيز مصانع الأسلحة في بولندا وروسيا والصين ، وحققوا ذلك باستخدام الفواتير المزورة وتقديم إقرارات كاذبة إلى الجمارك ورشوة حراس الجمارك واستخدام طرق ملتوية وذلك بنقل السلع إلى بلجيكا ثم منها بالبحر إلى الموانىء البولندية . وقد حاول البريطانيون والأميركيون أن يوقفوا سيل هذه التجارة إلا أن الألمان استطاعوا دائماً أن يتحايلوا على الأوامر

والتعليمات ، ومن ثم فان موسكو محقة تماماً في رضائها التام عن أعمال ولوبر بعد الحرب .

ومن الأعمال الناجحة القليلة التي تنسبها الادارة السرية السوفياتية لنفسها علناً إنقاذ حياة الرئيس روزفلت ، فانه عندما وصل الرئيس روزفلت والمستر تشرشل في ٢ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٣ إلى طهران للاجتماع بستالين، تم الاتفاق على أن يقيم كل منهم في السفارة الخاصة ببلاده ، وكانت تحتل إيران في ذلك الوقت جيوش بريطانية وسوفياتية ، كما كان فيها أيضاً بعض وحدات الولايات المتحدة التي تحمي طرق التموين، وما ان بلغ روزفلت ومعاونوه مبنى السفارة الأميركية الشاهق الذي يفتقر إلى الحراسة الجدية والذي يبعد عن عاصمة إيران نحو ميل ونصف حتى هرع جنرال سوفياتي بادي الاضطراب وفي صحبته كولونيلان من جيش الأمن التابع لوزارة شؤون الداخلية السوفياتية ودخل السفارة طالباً مقابلة الرئيس ، وسلم الجنرال للمستر روزفلت رسالة بخط ستالين نصها كما يلي :

« عزيزي السيد الرئيس : توجد مؤامرة هتلرية للقضاء علينا نحن الثلاثة ، ان هذه المدينة تزخر بعملاء ألمانيا السريين ، فأرجوك أن تأتي وتقيم معي في السفارة السوفياتية — مع احترامي . المخلص : ستالين » .

وبعد أن استمع الرئيس روزفلت للقصة التي حدت بستالين إلى أن يبعث برسالته هذه إليه ، على ما رواها له الضباط السوفيات الذين كانوا يحملون الرسالة ، أمر بأن تعد حقائبه من جديد ، وانتقل هو وهيئة موظفيه الشخصيين في صباح اليوم التالي إلى السفارة السوفياتية . وقد تحولت هذه السفارة إلى قلعة تحيط بها الأسلاك الشائكة والألغام ، وتقوم على حراستها فرقة كاملة العدة والسلاح من جيش الأمن .

وقد وصفت الصحافة الأميركية انتقال الرئيس روزفلت المثير فيما كتبته عن الحادث فيما بعد بقولها انه « اختطاف التشيكا السوفياتية لرئيس الولايات

المتحدة » إلا أن القرار كان يبدو في ذلك الوقت قراراً حكيماً حتى يمكن تفادي الأخطار .

وكان مستر تشرشل قد تلقى رسالة مماثلة من ستالين إلا أنه ظل في السفارة البريطانية ، لأنه كان يعلم أن الادارة السرية البريطانية قد أحبطت المؤامرة النازية ، وان رجال التشيكا قد أدركهم الخجل من « الظل » الذي انتهت به المؤامرة . على أنه كان ثمة خطر من أن يكون بعض عمـلاء الألمان ما زالوا مطلقي السراح ، ومن ثم فان زعم الادارة السريـة السوفياتية بأنها « أنقذت حياة روزفلت » ، وهو زعم أعلنته موسكو فيما بعد ، كان يستند إلى شيء من الصحة .

فقد علمت شبكة التجسس الألمانية في تركيا بطريقة ما أن ساسة الحلفـاء سيتلاقون في الشرق الأوسط، فأمر هملر طائفة من «السفاحين» من فرق الصاعقة بالسفر إلى أنقرة وأن ينتظروا هناك الأوامر، وكان قائدا هذه الطائفة الماجور برتهلود شولتز من فرقة الصاعقة وويلي ميرز من رجال الغستابو ، وكان معهما ستة آخرون من رجال الغستابو . وبعـد أن أقاموا في تركيا فترة من الزمن صدرت إليهم الأوامر بالسفر إلى بلغاريا ، ثم استقلوا طائرة من قاذفات القنابل عبرت بهم البحر الأسود وهبطوا بالمظلات قرب تبريز في شمال إيران ، وكان قد أرسل عملاء آخرون من النازي إلى إيران من أفغانستان حيث كان الدكتور فريتز غروبا السفير الألماني في كابول يستضيف « فريقاً من علماء الآثار الألمان». وقد وصل هؤلاء القتلة إلى إيران عن طريق شيراز في شهر تموز (يوليو) وتنكروا في زي رجال القبائل الكردية ثم انتظروا ساسة الحلفاء .

ولكن ما ان حلّ شهر تشرين الأول (أكتوبر) حتى كان لدى الادارة السرية البريطانية قائمة كاملة تقريباً بأسماء السفاحين النازيين في إيران بما فيهم من وصل منهم إليها أخيراً ، فقد اتصل أحـد النازيين بالعملاء البريطانيين ، ويلوح أنه فزع من هزيمة رومل في تونس ومن هزائم الجيوش الألمانية في الشرق، وجاء يحمل ملفاً ضخماً يشتمل على مفكرة سرقها من الماجور شولتز ، وقبض

على معظم الجواسيس الألمان ورجال الغستابو بينما كان روزفلت وتشرشل في القاهرة يقابلان شيانغ كاي شيك .

على أن الادارة السرية السوفياتية لم تكن خامدة هي الأخرى فقد اتخذ عملاؤها الاجراءات لإحباط مؤامرة الاغتيال . ومما يجدر بنا ذكره أن رؤساء التشيكا لم يبلغوا العملاء البريطانيين السريين هذه الاجراءات ، والظاهر أنهم عملاً بأوامر ستالين قد انتظروا حتى وصل رئيس الولايات المتحدة ورئيس وزراء بريطانيا ليمثلوا دور « إنقاذ الحياة » ، ولا شك أن ستالين كان يتوقع أن يتأثر الرئيس روزفلت بهذه الامارة من أمارات الصداقة .

ولقد صدق حدسه إذا حكمنا بروح الود التي سادت الاجتماعات ، وهي التي عقدت في مبنى السفارة السوفياتية بناء على إلحاح رجال الادارة السرية السوفياتية . وقد حصل ستالين على جل الامتيازات السياسية والعسكرية التي كان يرجوها من الحكومة الأميركية ، ومن ثم فلنا أن نقول ان هذا كان نصراً أحرزته الادارة السرية السوفياتية ويدل على أن الشيوعية تنظر إلى كل شيء من ناحية المزايا السياسية .

ولنقارن هـــذه الأمثلة التي كتب فيها للشيوعين النصر بمثل فشلت فيه موسكو فشلاً ذريعاً إذ عجزت سنوات طويلة عن اكتشاف عميل دس عليها في التشيكا نفسها .

في شتاء سنة ١٩٣٢ كان عميل من عملاء التشيكا يقف أمام السفارة البولندية في موسكو ومهمته أن يقتفي أثر الديبلوماسيين وهو عمل مألوف لدى التشيكا ، وعندما بارح السكرتير الثاني دار السفارة تعقبه العميل دون حماسة كبيرة ، وأخذ البولندي يقطع عدة شوارع ويشتري بعض لوازمه من شتى المحلات ، ودخل أخيراً مقهى حيث تناول شيئاً من المرطبات ، ثم استمر في سيره . وقد لاح أنه يسير على غير هدى ، حتى وقف عند كشك لبيع الصحف ، وثار اهتمام عميل التشيكا فجأة عندما لاحظ أن الديبلوماسي ارتطم برجل آخر ، ورفع كل منهما قبعته للآخر وتبادلا كلمات الاعتذار ، إلا أن العميل ظن أن حديثهما

كان أكثر من مجرد تبادل الاعتـــذار ، فأعمل فكره وصح عزمه على تعقب الغريب لا الديبلوماسي البولندي ، وتصرف الغريب تصرفاً يدعو إلى الشبهة ، فقد قطع شوطاً من الطريق وهو يسير على قدميه ثم استقل سيارة عامة وترجل في محطة كازانكي الحديدية ودلف إلى غرفة الانتظار ثم أخذ يتمشى على أرصفة المحطة ، والظاهر أنه اطمأن إلى أن أحداً لا يتعقبه فترك المحطة وسار مسافة ، ثم استقل سيارة عامة اجتازت به وسط موسكو حتى بلغ شارع تورسكايا ، وأخيراً بعد أن سار متعرجاً بعض الوقت دخل فندق لوكس—وكان الكومنترن يستعمله وقتئذ دار ضيـــافة رسمية لكبار الضيوف من الشيوعيين والعملاء الأجانب .

وسأل العميل البواب ، وكان أيضاً من رجال التشيكا ، عن اسم الرجـــل الذي دخل لتوّه فأجاب البواب :

« واعجباً ! ألا تعرفه ؟ انه الرفيق سوشاتزكي—وهو من كبار رجال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولندي وصديق من أصدقاء منزينسكي وتريليسر » .

وتردد العميل فيما إذا كان يقوم بإبلاغ ملاحظته هذه لمن يعنيهم الأمر ، ذلك أنه كان من الخطورة بمكان أن يتدخل في شؤون الكبار — إلا أن رأيه استقر آخر الأمر على القيام بواجبه ، وقام رئيس قسم الرقابة الداخلية بإبلاغ تقرير هذا العميل إلى تريليسر ، أحد معاوني منزينسكي ، باعتباره « استعلاماً عادياً » .

وضحك تريليسر وهو يقول: ماذا ! صديقي سوشاتزكي يلاحظ أنه يتحدث حديثاً مشتبهاً فيه مع ديبلوماسي بولندي ؟ إذا كان سوشاتزكي جاسوساً فأنا أيضاً جاسوس ! » .

إلا أن الفكرة أخذت تعاوده ، لماذا تصرف سوشاتزكي ، وهو من عملاء التشيكا المدربين المحنكين الذين قضوا في خدمتها سنوات طويلة ، هذا التصرف المريب ، لماذا كان يذرع الشوارع ويلفّ ويدور ؟ لقد كانت هذه هي الوسيلة المعتادة لتضليل من عساه أن يكون مقتفياً أثره ، وقرر تريليسر أنه يتحتم عليه أن يخطر منزينسكي بالأمر — وأبلغه أيضاً إلى كل من كارل رادك وبياتنيتزكي ،

وكانا هما المنوط بهما الاشراف على أقسام الكومنترن التي تتعلق بالشيوعيين الأجانب ، وعهد إلى سوشاتزكي بمهمة خارج موسكو ثم فتشت غرفته بفندق لوكس تفتيشاً دقيقاً أثناء غيابه ، إلا أنهم لم يعثروا فيها على شيء يدينه .

ثم نصبوا له شركاً، ذلك أن منزينسكي استدعى البولندي إلى مكتبه وقال له وقد علا الاضطراب وجهه ان البوليس السري البولندي قد اكتشف شخصية أحد كبار عملاء التشيكا في وارسو وأن الرجل في خطر شديد.وقال لسوشاتزكي ان الاسم الرمزي لهذا العميل هو « وجتك » ، وطلب منه النصيحة ، وكانت القصة مختلقة من أولها إلى آخرها ، واسم العميل الذي لا وجود له من نسج الخيال كذلك . وما ان انقضت بضعة أيام حتى تلقى منزينسكي رسالة من شبكة التشيكا في وارسو بأن البوليس السري البولندي يبحث في كل مكان عن عميل سوفياتي اسمه « وجتك » ، ولم يكن ثمة إلا تعليل واحد ، فان منزينسكي وسوشاتزكي هما وحدهما اللذان كانا يعرفان هذا الاسم المختلق ، وبهذا اتضح أن سوشاتزكي جاسوس من جواسيس الحكومة البولندية ،وأنه أبلغ رواية منزينسكي إلى وارسو . إلا أن التشيكا لم تسرع بالانقضاض عليه بل راقبت الرجل أسابيع مراقبة دقيقة فاكتشف أنه كان يقابل رجالاً من السفارة البولندية مقابلات منتظمة ووضحت الحقيقة المرة شيئاً فشيئاً،لقد كان الشيوعي البولندي المشهور عميلاً للحكومة البولندية دسته في وسط التشيكا .

وأثار الاكتشاف ذعراً في مقر التشيكا ، وكان من الأسباب التي دعت إلى تنحية كبار رؤسائها البولنديين مثل منزينسكي وتريليسر وأونسليخت ، وإلى عزل كثير من كبار الموظفين ورؤساء الأقسام الذين من أصل بولندي . وقد حدا هذا الحادث أيضاً بستالين إلى أن يرسل ياغودا ليتولى مقاليد الأمور ، وقد حكم بالموت على معظم هؤلاء البولنديين في التطهيرات العظمى التي جرت في سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ إذ عجزوا عن تبرئة أنفسهم تماماً من حادثة سوشاتزكي .

وكان لهذا الحادث بعض نواحيه الغريبة غرابة الخيال،فقد التحق سوشاتزكي بالحزب الشيوعي البولندي سنة ١٩٢١ منتقلاً من الحزب الاشتراكي البولندي

الذي كان جوزيف بيلسودسكي أحد زعمائه . وبعد الحرب البولندية السوفياتية التي وقعت في سنة ١٩٢٠ ، ولقي فيها البولنديون إبان هزائمهم من صنوف الهوان ما لقوا ، أمر بيلسودسكي سوشاتزكي بأن يصبح شيوعياً ويحاول الانضمام إلى التشيكا . وأجاد سوشاتزكي تمثيل دور المتطرف حتى انه سرعان ما أصبح من أكثر من تثق فيهم موسكو . ومع أنه ظل طول الوقت جاسوساً لهيئة أركان الحرب البولندية العامة والبوليس السري، فانهم كانوا يتظاهرون بالقبض عليه وحبسه ، وتكرر ذلك عدة مرات ، بوصفه زعيماً من زعماء الحركة السرية للشيوعيين البولنديين بعد أن حل بيلسودسكي الحزب ، وكان يزود السلطات البولندية بكافة القرارات السرية ، وكان هو الذي يقترحها في غالب الأحيان، وسلم عشرات من زملائه إلى البوليس ، ثم استدعي أخيراً إلى موسكو لأن حياته بدت محفوفة بالخطر في وارسو وأصبح واحداً من أكبر عملاء التشيكا ، وظل عشر سنوات يطلع على أدق أسرار الادارة السرية السوفياتية حتى انكشف أمره في سنة ١٩٣٢ بفضل يقظة عامل صغير من عملاء التشيكا اقتفى أثره .

ومن أمثلة الفشل الأخرى الذي منيت به الادارة السرية السوفياتية ما لقيته على يد رئيس القسم البريطاني في الكومنترن في أواخر العقد الرابع من هذا القرن ، ونعني به عميل التشيكا بتروفسكي ، الذي كان يتسمى باسم بنيت عند زيارته لندن واكتسب ثقة ياغودا وغيره من زعماء التشيكا ، وقد جاء من أوكرانيا حيث يبدو أنه حارب في الحرب الأهلية ضد الجيش الأبيض ، الذي كان يقوده الزعيم القوزاقي بتليورا ، وقد استغرق زعماء التشيكا ١٥ سنة حتى يكتشفوا أن بتروفسكي لم يكن غريم بتليورا بل رئيس قسمه في كييف وهو القسم الذي كان يتولى أمر زعماء البلاشفة الذين كان يلقى القبض عليهم . وكان بتروفسكي هو المسؤول في سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩ عن شنق عشرات من الموظفين البلاشفة وقواد الجيش الأحمر المقبوض عليهم .

وعندما هزم بتليورا آخر الأمر وهرب أولاً إلى برلين ثم إلى باريس، اختفى

بتروفسكي فترة من الوقت ثم ظهر فيما بعــد في موسكو ، وكان يحمل أوراقاً مزورة تزويراً متقناً تدل على أنه كان مقاتلاً ثورياً في أوكرانيا. ولم يكلف نفسه حتى عناء تغيير اسمه ، وقد عين في الادارة السرية السوفياتية وارتقى سريعاً حتى عهد إليه بمراقبة شبكات التجسس البريطانية ، وعندما اكتشفت سوابقه لقي نفس المصير الذي لقيه سوشاتزكي وأعدم رمياً بالرصاص دون محاكمة في سجن لوبيانكا .

ومن الخطأ الجسيم أن نقلل من مهارة وكفاية الادارة السرية السوفياتيــة بسبب خلل يصيب الجهاز البيروقراطي للسوفيات أو غباء بعض العملاء . ومن أمثلة الغباء المستحكم ما أتاه حــديثاً الماجور ايفان بوبيشيف والماجور أندرو جودكوف الملحقان العسكريان المساعدان في السفــارة السوفياتية بلندن في مستهل سنة ١٩٥٤ . وقد استدعي السفير السوفياتي في أيار (مايو) إلى وزارة الخــارجية وقيل له ان الملحقين العسكريين قد أساءا استعمال امتيازاتهما الديبلوماسية بالاشتراك في أعمال التجسس في المملكة المتحدة ، وانهما لذلك لم يعودا من الأشخاص المرغوب في وجودهما بها .

والظاهر أن جودكوف كان قد طلب إليه الحصول على رسوم أربع طائرات عسكرية بريطانية من أحدث طراز ، ولم يكن أمامه للحصول على هــذه الرسوم ، فيما خــلا سرقتها من مصنع الطائرات نفسه ، إلا العثور على موظف بريطاني يمكنه الوصول إليها ويكون ممن يعطفون على قضية السوفيات . ويبدو أن الفهرس فشل في تزويده باسم واحد ، ولذلك فقد صح عزم الماجور جودكوف على حل المشكلة عن طريق رجــل شيوعي يعمل بالمصنع ولكنه في مركز لا يسمح له بالاطلاع على المعلومات السرية . وقيل لهذا الرجل أن يبحث عن موظف يعمل في مكتب الرسم ، وأن يقترح عليه الحضور لمقابلة يسمع فيهــا شيئاً في مصلحته . وقد جرت هذه المقابلة بالفعل في بار قريب ، ومن المستحيل علينا أن نعرف ما دار في هذه المقــابلة بالضبط ، ولكن يلوح أن الماجور جودكوف عرض مبلغاً كبيراً من المال ، يقال أنه ٦٠٠ جنيه انكليزي ، لقاء

الحصول على صور بعض التصاميم .. ويبدو أنه ضرب بالحرص عرض الحائط وخيل إليه أن الاتفاق على مقابلته مرة أخرى معناه أن العرض الذي تقدم به قد قبل ، ولو أنه كان عميلاً حصيفاً لأدرك أنه سيوضع تحت المراقبة . والواقع أن الموظف لجأ إلى البوليس ، وفي المقابلة الثانية كان رجال البوليس السري التابعون للفرع الخاص باسكوتلاند يارد يراقبون المجتمعين داخل البار ، وفي مقابلة ثالثة قدم أحد هؤلاء الرجال إلى الماجور جودكوف باعتباره موظفاً آخر في المصنع ، وتكررت هذه المقابلات قرابة الستة أشهر في البارات والمقاهي ، وكان رجال البوليس السري يراقبونه دائماً وهو غافل عن ذلك ، وأعطى جودكوف بعض رسوم لا معنى لها ، دفع ثمنها والبشر يعلو وجهه ، واستمرت المهزلة إلى أن ووجه الماجور بالاتهام وهو متلبس ، وقيل له انه ظل موضع السخرية شهوراً وانه لولا حصانته الديبلوماسية لألقي القبض عليه .

أما الماجور بوبيشيف ، وكان يشتغل مستقلاً في مهمة مماثلة ، فقد اتصل بضابط من ضباط سلاح الطيران وطلب منه أن يبيعه معلومات معينة خاصة بالطائرات النفاثة ، والظاهر أنه قابل الضابط عندما دعي لحضور استعراض للطائرات أقيم في فارنبرو ، وأبلغ الضابط رؤساءه في الحال وأخذ منذ ذلك الحين يعمل بتعليمات ضباط الأمن ويقابل بوبيشيف حتى شعر رجال مكافحة الجاسوسية بأنهم حصلوا على كافة المعلومات التي يمكنهم الحصول عليها من هذا العميل .

ومن المتعذر أن نصدق أن عملاء يرتكبون مثل هذه الأخطاء التي تتم عن غباء يمكن أن ينتسبوا إلى نفس الادارة التي تضم ريتشارد سورج . ومن السهل علينا أن نبالغ في أهمية مثل ما لقيه هذان العميلان من فشل ذريع ، إلا أن انكشاف أمرهما لم يكن له ، من وجهة الادارة السرية السوفياتية ،أهمية تذكر ، فانه لم تكتشف أية « شبكة » . وطرد اثنين من رجال السلك الديبلوماسي يمكن إحلال غيرهما محلهما لم يسبب شيئاً من الاضطراب في موسكو . وكان هذا الحادث موضع تندر وسخرية كبيرين في الصحافة الشعبية ، إلا أنه يجب علينا

ألا ننسى أن فشل هذه الوسيلة الفجة لم يكن بسبب الجهل والغباء بل لأنها استخدمت في دول أخرى ولا بد أن تكون قد نجحت . وكان الفشل مرده فرط الثقة ، وهو سبب من أسباب فشل آخر منيت به بريطانيا ، فقد حكم في تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢ على ويليم مارتن مارشال ، وهو كاتب في وزارة الخارجية البريطانية في الرابعة والعشرين من العمر ، بالسجن خمس سنوات لمخالفته قانون الأسرار الرسمية . وطرد بافيل كوزنتزوف ، السكرتير الثالث في السفارة السوفياتية بلندن ، من البلاد بوصفه من الأشخاص غير المرغوب فيهم واستدعي إلى موسكو . وكان مارشال قد أرسل في سنة ١٩٥٠ للعمل في قسم الشيفرة بالسفارة البريطانية في موسكو ، وفي روايته أنه كان يشعر بالوحدة ولم يستطع إنشاء علاقات ودية مع الروس بالرغم من أنهم كانوا يثيرون اهتمامه . وقد اقترح البعض – ومهما كان من براءة مارشال فاننا نرجح أن يكون هذا الاقتراح أوامر صادرة من التشيكا – نقول اقترح عليه البعض أن يتصل عند عودته إلى لندن بكوزنتزوف سكرتير ثالث السفارة الذي سيحادثه في شؤون الحياة في روسيا وفي الشؤون الثقافية .

وأعطوه خطاباً قدمه إلى كوزنتزوف في السفارة السوفياتية بلندن عند عودته من موسكو في مستهل سنة ١٩٥٢ ، وقد لقيه كوزنتزوف بالترحاب وجرت مناقشات ، أثناء تناول العشاء الفاخر في مايفير ، عن الحياة والثقافة في روسيا ، وكان الحديث يتطرق أحياناً إلى السياسة ، إلا أن الحديث في السياسة ، على ما قاله مارشال ، لم يتناول إلا ألمانيا والحرب الكورية . وربما اشتبه كوزنتزوف في أن تكون هيئة مكافحة الجاسوسية البريطانية قد دست عليه مارشال ، ولكن يلوح أنه اطمأن إليه بعد فترة من الزمن ، ورفعت الكلفة بينهما أكثر وأكثر وأصبحت الاجتماعات في أماكن تتوفر فيها سرية أكثر. فقد كان الرجلان يتقابلان في حديقة ريتشموند وحديقة الملك جورج واند زورت . وكان كوزنتزوف يدرك طبعاً أن موظفاً صغيراً في الحكومة يشتغل بأعمال اللاسلكي أو الشيفرة قد يتداول نفس المعلومات السرية التي يتداولها كبار

الموظفين . ولعل البساطة الظاهرة التي اتسم بها كل شيء قد جعلته يفرط في الثقة ، وقد أغفل الاحتمال بأن تكون هيئة مكافحة الجاسوسية في بريطانيا على علم بأنه عميل للادارة السرية أكثر منه ديبلوماسياً ، وأنها يهمها الوقوف على حركاته ومحادثاته التليفونية . وقد قبض عليه متلبساً في اجتماع من الاجتماعات التي كانت تجري في الحديقة وأبرز كوزنتزوف ما يدل على شخصيته فأطلق سراحه ، إلا أنه وجد مع الغر الذي وقع في حبائله ، على ما وصفه به المدعي العام أثناء محاكمته، صورة وثيقة من وثائق وزارة الخارجية تشتمل على معلومات غاية في السرية ويحتفظ بها في محفظته . ولعل الفشل في هذه الحالة مرده جهل كوزنتزوف بالمبادىء والوسائل العامة التي يلجأ إليها عملاء الادارة السرية السوفياتية عند معاملتهم للأبرياء أو الأغرار الذين يقعون في حبائلهم .

وأنا لا أسرد هذه الأمثلة التافهة على الفشل إلا لأؤكد خطورة اعتبارها حوادث ذات بال في النطاق العام للجاسوسية السوفياتية . والأساس الذي يقوم عليه عمل التشيكا هو أن كل شبكة كبيرة يجب أن تصيد شيئاً من السمك ، ومن الخطأ أن نفترض ان غباء وعدم كفاية بتروف في استراليا مثلاً هو القياس الذي يجب أن نقيس عليه ، ونحن في الواقع لا نسمع إلا حالات الفشل . أما النجاح ، ومن قبيل ذلك نجاح سورج ، فلا نسمع به إلا بعد سنوات طويلة ، ثم لعلنا نسمع به مصادفة واعتباطاً .

ونحن إذا راجعنا أعمال الادارة السرية السوفياتية في أربعين عاماً تقريباً لكان من الممكن أن نستنتج أن فشلها الذريع لم يكن في الحصول على معلومات بل في تفسيرها . وأرجو أن يكون هذا الكتاب قد أوضح بأجلى بيان نجاح الادارة السرية السوفياتية في الحصول على المعلومات نجاحاً يلازمه التوفيق على وجه عام . إلا أن الحقائق في حد ذاتها مهما كان من سريتها ليست هي كل شيء ، فان تفسيرها تفسيراً صحيحاً يعين على العمل وعلى رسم السياسة الواجب اتباعها وهو لا يقل أهمية عن جمع تلك الحقائق . ولقد كان الروس أقل نجاحاً في التفسير منهم في التجسس ، ومرجع ذلك جمود التعاليم الماركسية وعدم

إدراكهم لخلق الشعوب التي تعيش خارج الاتحاد السوفياتي ووسائل حياتهم . والمثل البارز على فشلهم في هذا هو اعتقادهم بأن الهجوم على فنلندا لن يكون إلا نزهة ، ورفضوا أن يؤمنوا بأن الألمان سيقومون بهجومهم سنة ١٩٤١ . وكانت الادارة السرية السوفياتية قد زوّدت أولي الأمر في الحالتين بالمعلومات المهمة . وكذلك قامت المخابرات البريطانية بتزويد المسؤولين بالبيانات المتعلقة بنية هتلر في الغزو ، إلا أن هذه الحقائق فسرت تفسيراً خاطئاً بسبب الهوى والتحامل، فقد أصر ستالين مثلاً على ان إنذار البريطانيين له بأنه في نية هتلر غزو موسكو في حزيران (يونيه) سنة ١٩٤١ كان القصد منه حمل روسيا على عمل يتسم بالاندفاع والتهور حتى تخف حدة موقف بريطانيا نفسها . وكان هذا الإنذار قد وجّهه أنطوني إيدن إلى روسيا في آذار (مارس) أو نيسان (أبريل) سنة ١٩٤١ ، وكانت النتيجة أن فاجأ الألمان الروس بالهجوم وهم على غير استعداد ، فضاعت ملايين الأرواح بسبب هذه الغلطة وحدها .

الفصل السادس عشر

الخاتمة

إنني لأرجو أن يكون البيان الذي أدليت به في هـذا الكتاب عن نظام الادارة السرية السوفياتية ووسائلها ونشاطها قد أقنع أشد المتشككين بأن هذه الادارة إنما هي قوة هائلة ، فريدة في تاريخ الحضارة ، سواء من جهة الوسائل التي تتبعها أو من جهة الضخامة التي بلغتها . وكثير من الحقائق عنها قد عرف منذ عشرين سنة أو أكثر . إلا أن أعظم نجاح للادارة السريـة السوفياتية في خلال الثلاثين سنة الماضية هو عزوف المواطنين العاديين في الدول الديمقراطية عن مواجهة الحقائق عنها . وقد كتب الرجال الذين خدموا التشيكا كتباً كثيرة عنها ، إلا أن رواياتهم كانت تبدو خيالية للقراء في البـــلاد التي يتكلم أهلها الانكليزية . ولعل « اعـترافات » هؤلاء المرتدين وقد أقروا بأنهم كانوا من رجال التشيكا أو على الأقـــل من الشيوعيين المناضلين ، كانت تقابل بالحرص والحذر وأحياناً بالشك بل بالازدراء . وكانت الادارة السرية السوفياتية تلقى في بعض الأحيان معاونة كبيرة من رغبة الحكومات وأصحاب النفوذ في تكتم الأخبار محافظة على حسن العلاقات أو تحقيقاً لمصلحة سياسيـة أو أخذاً بمبدأ التسامح . ووسائل التشيكا لا يمكن أن تعيش في ضوء النهار ، بل تتولد وتزدهر

خفية وفي الظلام . ولهذا السبب وحده فان كل حـادث ينكشف الستار عنه علناً يعيق الادارة السرية السوفياتية . ثم ان المحاكمات والتحقيقات ، كتلك التي تجري في كندا واستراليا ، تؤدي إلى أغراض أخرى غير تحقيق العدالة . أما الاتهامات المثيرة التي تبنى في عجلة على أدلة غير مؤكدة أو مشكوك فيها فإنما تساعد موسكو على الحط من قيمة هؤلاء الذين وجهوا الاتهام في اندفاع وتهور ، وعلى خلق حالة من الفوضى بين المواطنين في الدول الديمقراطية . وانني مقتنع في الواقع بأن صيادي الشيوعيين في الولايات المتحدة الذين يعلنون عن أنفسهم ، والذين لا يوحي سلوكهم بأي ثقة خاصة ، قد سببوا من الضرر لوسائل الدفاع الواقية من هجمات الادارة السرية السوفياتية أكثر مما يمكننا تقديره في الوقت الحالي . ولعلهم قد حملوا الآلاف من الناس على التزام الحيـاد ، أو جعلوا منهم قوماً يعطفون على الشيوعية ، لأن وسائلهم وسلوكهم كانت تبعث في النفس الاشمئزاز نفسه الذي تبعثه وسائل وسلوك خصومهم الذين وجهوا إليهم هـذه الحرب المقدسة . وان المرء لينتظر طبعاً من القائمين بتلك الحرب المقدسة سلوكاً منزهاً عن الغرض وصراحة لا زيف فيها ونزاهة لا تشوبها شائبة ضد « هؤلاء الشيوعيين الوحوش » إلا أن هذه الصفات كانت تنقصهم في كثير من الأحيان ، مما ترتب عليه انهيار هذه الحروب المقدسة .

والغرض من وضع هذا الكتاب سرد الحقـائق ، لا اقتراح السياسة أو الوسائل التي تتخذ لإحباط حملات الادارة السرية السوفياتية ، فالأمر من ناحية يتعلق بالسياسة العامة ويرتبط بالموضوع العام الخاص بكيفية التصرف في موضوع الشيوعية الدوليـة . ومن ناحيـة أخرى ينطوي الأمر على بحث وسائل الأمن بالتفصيل ، إلا أن كل بيان لنظام الادارة السرية السوفياتيـة وللوسائل التي تتبعها يكون ناقصاً إذا لم يقرن بالاقتراحات الكفيلة بإحباط نشاط هذه الادارة ، وذلك بمراعاة الواجبات المرهقة التي ينوء بها كاهل الدول الديمقراطية بالمقارنة بما تنطوي عليه الأنظمة الشيوعية . والديمقراطيات لا تدين بمبدأ « الغاية تبرر الواسطـة » ، ومن ثم فاستخدام وسائل التشيكا في شؤون

الدفاع ضدها هو بمثابة خسارة المعركة قبل خوض غمارها .

وتعتمد الادارة السرية السوفياتية على استغـــلال الأبرياء والأغرار الذين توقعهم في حبائلها استغلالاً منظماً يتسم في غالب الأحيان بالغلظة والشراسة . ولولا مئات الآلاف من الهواة الذين يخدمون تلكَ الادارة لأنها أغرتهم بوسيلة ما على أن يضعوا إخلاصهم للشيوعية فوق إخلاصهم لوطنهم ، بل فوق إخلاصهم لأقاربهم وأصدقائهم ، لشلت حركة المحترفين الذين في خـــدمة الادارة السرية السوفياتية . ان عدداً معيناً من الخونة هم الذين يدركون حقيقة ما يفعلون ويوافقون على الوسائل التي يأمرهم بها سادتهم . إلا أن الكثيرين منهم حتى بعد أن ينكشف أمرهم ، يظلون أبرياء نسبياً ، ويذهلون عندما يعلمون ما تورطوا فيه ، ولا يمكن الحكم على كل حجة من حجج الدفاع في محاكمات الجواسيس التي تتضمن هؤلاء الخونة بأنها مجرد حجج يقصد بها الفوز بتخفيف الأحكام عليهم .

ويجب أن يحتل نشر المعلومات عن وسائل وأعمال الادارة السرية السوفياتية المكان الأول في خطط دفاعها. وإذا لم تصبح اعترافات رجال من أمثال بتروف أو خوخلوف تثير دهشتنا ، واقتنعنا بأن غرض الادارة السرية السوفياتية هو بناء طابور خامس أو تهديد المواطنين لإكراههم على التجسس في بلادنا أو البلاد الأخرى ، بنفس الطريقة التي نقتنع بها أن الاتحاد السوفياتي يصنع الدبابات أو القنابل الذرية ، إذن فلنستبشر فقد بدأنا نشق طريقنا إلى النصر ، ومن شأن نشر الحقائق على نطاق واسع ، كما فعلت في هـــذا الكتاب ، أن تجعل مهمة عملاء السوفيات والشيوعيين من أهل البلاد ، في اختيار من يزودونهم بالمعلومات مهمة شاقة عسيرة ، بل تكفل كشف أمر الجواسيس والخونة في وقت مبكر عما كان يحدث قبلاً ، وهذا لا يمكن تحقيقه طبعاً إلا بعد أمد طويل . على أن الضرر الذي تحدثه الادارة السرية السوفياتية يمكن في الوقت نفسه الحد منه بيقظة السلطات وسهرها .

ولا بد أنه قد اتضح لقراء هذا الكتاب أن هيئات مكافحة الجاسوسيـــة في الدول الديمقراطية كانت عاجزة عجزاً يرثى له، ويلوح أنه لم يكن إلا ثمة تقدير

قليل – على الأقل حتى انكشف أمر جواسيس الأسرار الذرية – للمبادىء والأهداف والوسائل التي تتبعها الجاسوسية السوفياتية . وكان ثمة فشل ذريع في ملاءمة وسائل الأمن ومكافحة الجاسوسية للمشاكل الجديدة التي تنطوي عليها إعادة تنظيم الادارة السرية السوفياتية وتوسيع نطاقها ، وكانت السياسة ، سواء منها السياسة الحزبية أو السياسة الدولية ، تكشف هيئات مكافحة التجسس حتى أن عملاء السوفيات المشهورين ، مثل ايسلر ، كانوا يتفوقون على هذه الهيئات المرة بعد المرة ، ومهما كان من مهارة وكفاية هيئات مكافحة التجسس الغربية فان انعدام الفرص وفتور الهمة من جانب المهيمنين على العمل فيها الذين لهم الاشراف عليها كانا من الأسباب التي فتت في عضد القائمين بالعمل في هذه الهيئات فعلاً .

ومما يجدر بنا ذكره أن سلسلة الصدمات التي جاءت كنتيجة لمحاكات جواسيس الأسرار الذرية ، والاكتشافات المذهلة التي كان مسرحها الولايات المتحدة ، واختفاء الأستاذ بونتكورفو ، وحادث « الديبلوماسيين البريطانيين المفقودين » لم يكن لها التأثير الفوري المباشر المطلوب. ولو أن جزءاً من المزاعم التي أدلي بها في الاجتماعات العديدة التي عقدتها لجان مجلس الشيوخ الأميركي كانت صحيحة ، وعلى وجه خاص لو كان صحيحاً أن بعض كبار موظفي الادارة الأميركية كانوا عملاء السوفيات ، إذن فان أولئك المسؤولين عن مكافحة الجاسوسية في أميركا قد أخلوا إخلالاً مشيناً بواجبهم . لقد جنحت بعض السلطات إلى تبرئة منظمات الأمن ، في حين اهتمت الصحافة واهتم الجمهور معها بسيكولوجية الخيانة أكثر من اهتمامها بوسائل الخيانة نفسها ، وقد كتبت ملايين الكلمات لشرح وتحليل البواعث التي دفعت فوخس إلى أن يفعل ما فعل . انه لموضوع يخلب اللب إلا أن ثمة خطراً من تركيز الاهتمام في عقلية وأخلاق الخونة إلى أن يصبح اكتشاف أعمالهم أمراً ثانوياً . فمثلاً كان مئات الآلاف من الأشخاص العاديين المحترمين ، الذين كانوا براء من الشيوعية من غير شك ، على استعداد لأن يوقعوا الالتماسات بالإبقاء على حياة روزنبرغ وزوجته

لأن مصيرهما المحتوم كان يبدو لهم محزناً وقد أثار في قلوبهم العطف عليهما ، ولكن كم من هؤلاء الأشخاص فكروا فيما اقترفه آل روزنبرغ وكيف نجحا في العمل خلسة طوال هذه السنين ؟

ان الموقف الرسمي يتغير الآن ، فقد أنشىء في بريطانيا قسم جديد في الفرع الخاص التابع لسكوتلاند يارد مهمته إعداد ملفات عن الرجال والنساء المعروفين باشتغالهم بالجاسوسية أو المشتبه في أمرهم . ولعل هذا العمل قد بدأ متأخراً قليلاً ، في أواخر سنة ١٩٥١ ، عندما عهد الفرع الخاص به إلى عشرة من ضباط البوليس برئاسة المفتش الأول ويد . وقد أثمر هذا العمل ثمرته في الحال تقريباً . ولست أذيع سراً إذا قلت ان حكام موسكو لن يسرهم أن يعلموا أن السلطات البريطانية تعرف بأمر شبكاتهم التي في بريطانيا . ففي سنة ١٩٥٢ بعد بدء العمل ببضعة شهور ، طرد من بريطانيا عشرة من الأجانب ، وارتفع هذا العدد كثيراً في سنتي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ، وكذلك منعت سلطات الهجرة عدداً عظيماً من المشتبه في أمرهم من دخول بريطانيا . ومع أن سياسة بريطانيا تقوم على عدم اضطهاد كل من يشتبه في اشتغاله بالجاسوسية فانه يمكن عند الاقتضاء القبض عليهم جميعاً في خلال ساعات .

أما في الولايات المتحدة فان سياسة الأمن الجديدة اتخذت شكلاً أقوى ، وأدت إلى القبض على الكثيرين من كبار الشيوعيين اتهموا بالتآمر على قلب نظام الحكم ، وكان كل من يشتبه ، ولو من بعيد ، في أنه يعطف على الاتحاد السوفياتي ، في خطر من أن يشمله هذا الاجراء العنيف . وقد لاح أن بعض الاجراءات بولغ فيها فأثارت نقداً شديداً وخلقت جواً من الخوف لا نهاية له خشية المطاردة واللحاق بكل من تحوم حوله أي شبهة . ومثل هذه الملاحقات أبعد من أن تعتبر علاجاً ، بل هي في الواقع تعد نصراً آخر للادارة السرية السوفياتية بما تسببه من خلافات داخل الدولة ، وما تحدثه من انعدام الثقة بين الحلفاء والأصدقاء . وعندما يحين الحين لكتابة التاريخ فان الشعور بالقلق والشك ، اللذين نشئا في الولايات المتحدة من جراء الملاحقات التي تجري كنتيجة لما تتكشف

عنه حوادث الجاسوسية السوفياتية والاجراءات العنيفة التي تتخذ عقب ذلك ، قد يعد أكثر ضرراً من المعلومات التي حصل عليها عملاء السوفيات عن القنبلة الذرية .

وحل الحزب الشيوعي الأميركي اجراء لم تثبت فائدته قط . ومهما كان من أمر فان التجسس عمل يجري سراً ، والجبهات تتعاون على استمرار اختيار المبلغين والعملاء . ولقد قاومت ألمانيا النازية الشيوعية بكفاية تفوق كفاية أي دولة أخرى ، وبالاستعانة بوسائل لا يمكن أن تسمح بها أي دولة ديمقراطية . إلا أن الغستابو بالرغم من معسكرات الاعتقال والاعدام بالجملة لم يستطع أن يمنع الادارة السرية السوفياتية من أن تعين عملاءها في المراكز الرئيسية عندما نشبت الحرب كما سبق لي الوصف .

ومن الواضح في الوقت نفسه أن أسرار الدولة يجب ألا تكون في متناول أولئك الذين قد يفشونها ، و « الفرز » هو العملية التي يمنع بها الخونة أو من في حكمهم من الوصول إلى الأماكن والمعلومات التي تعد من الأهداف التي يضعها العملاء الأجانب نصب أعينهم . إلا أن زيادة المعلومات الفنية والعسكرية والسياسية الحساسة يوماً بعد يوم معناها أن تطبق اجراءات « الفرز » على عدد من الأشخاص يزداد على مر الأيام ، وكل اكتشاف بأن بعض الخونة أو العملاء قد تسربوا من عملية الفرز هذه لا بد أن يستتبع حتماً تضييق الشبكة شيئاً فشيئاً ، ومن ثم فقد أصبح الفحص عملية غاية في التفصيل حتى ليخشى أن يفوت الغرض منها ، فمثلاً صدرت التعليمات بفحص الرجال المشتغلين بالانتاج الذري فحصاً دقيقاً ، فلم يفحص منهم بعد سنتين إلا ٢٠٠٠ رجل . وظل عدد كبير من الموظفين دون فحص ، في حين أن أولئك الذين قدموا للفحص بعد سنتين كان الوقت قد انفسح أمامهم لارتكاب أية جريمة كان يشتبه ارتكابهم لها في الجملة . وأعلنت الحكومة البريطانية في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٥٤ أن ٧٠٠٠ موظف آخر من موظفي الحكومة « سيفحصون بمقتضى إجراء خاص من إجراءات الأمن للتثبت من صلاحيتهم للعمل في وظائف على جانب عظيم

من السرية » . وأضاف البلاغ إلى ذلك قوله : « لقد ثبت أن تقدير الوظائف الخارجة عن ميدان الطاقة الذرية بثلاثة آلاف لا أساس له من الصحة ، إذ وضح منذ ذلك الحين أن هذا التقدير يجب أن يشمل وظائف أخرى ».والتقدير الرسمي الجديد يتضمن نحو عشرة آلاف وظيفة يجب أن يخضع شاغلوها لاجراءات الفحص .

ولنا أن نتساءل : أليس الفحص قد أصبح إجراء روتينياً شديد التقيد بالمعلومات العادية من طلب التواريخ والأماكن وتفاصيل تاريخ حياة الشخص ، وما إذا لم يكن من الواجب في هذا العصر الذي احتدم فيه الخلاف بين الآراء أن يكون الفحص مبتكراً القصد منه اكتشاف اتزان عقل الشخص إلى جانب التقصي عن ماضيه ؟ فإذا ما اكتشف بعض الخونة الحقيقيين أو الذين يحتمل أن يكونوا كذلك ، ممن يدينون بأفكار معينة ، وجب أن يعاملوا معاملة تنطوي على دهاء أكثر من الروتين العادي ، فقد أثبت فحص الأستاذ بونتكورفو أنه «مريض على وجه خاص».ولكن هذا الفحص لم يكشف عن معارفه الشيوعيين. وقد أوصت هيئات مكافحة التجسس التابعة للحلفاء على الدكتور أوتوغون باعتبار أنه الرجل المثالي الذي يجب أن يرأس مكتب المخابرات في جمهورية ألمانيا الغربية ، ولم يوصف بأنه « غير متزن العقل مدمن على الخمر » إلا بعد أن وقع الضرر .

لقد ظلت مكافحة التجسس في الغرب على وجه عام في أيدي ضباط البوليس أو ضباط الجيش السابقين ، وكان لهذا بعض مزاياه ، إلا أن اكتشاف التدمير ومنعه ربما أصبحا من الأمور التي تفوق دهاءهم بكثير . لقد انقضت الأيام التي كانوا يستطيعون فيها « رؤية رجل أحمر على بعد ميل » . ولعله مما يجدر برجال مكافحة الجاسوسية أن يستعينوا برجال في مناحي الحياة الأخرى ، وخاصة علماء النفس المجربين ، على تقدير الاتزان العقلي . وقد اتخذت بعض الخطوات الابتدائية في هذا السبيل ، وعلى الأخص في الولايات المتحدة ، وقد تسفر عن نتائج طيبة .

أما السبب في بعض ما منيت به الهيئتان البريطانية والأميركية لمكافحة الجاسوسية من فشل فيما يتصل بالادارة السرية السوفياتية ، فيمكن أن نعزوه إلى فقد التناسق بين شتى وكالات المخابرات داخل كل من الدولتين ، وبين كل دولة منهما والأخرى . ويبدو أن الموقف قد تحسن الآن فيما يتعلق بالداخل : في الولايات المتحدة بإنشاء وكالة المخابرات المركزية ، وفي بريطانيا بتعاون أوثق بين منظمات الأمن المختلفة . إلا ان استمرار المهاترة بين الدولتين عن فشلهما يوحي بأن ثمة مجالاً لتحسين علاقاتهما المتبادلة في ميدان المخابرات السياسية والعسكرية . وليس لدى أي من هيئتي المخابرات سجل فيما قبل الخمسة عشر عاماً الأخيرة يمكنها من أن تزهو على صاحبتها وتقيم من نفسها لذلك مرشدة لها وواعظة .

أما الجواب الصحيح عن الادارة السرية السوفياتية فهو ليس كشف الستار عن الجواسيس — وهو عمل لا يزال من أعمال البوليس — بقدر ما هو منع من يحتمل أن يكونوا من الجواسيس من التسرّب إلى الأماكن التي تعد من مصادر المعلومات المهمة . وقد يقع الظلم أحياناً على بعض الرجال والنساء عند القيام بهذا الواجب ، ذلك أنهم يحرمون من بعض المراكز ذات الحساسية مع أنه لا يكون ثمة مطعن في نزاهتهم ، إلا أننا يجب أن نكون على استعداد لدفع هذا الثمن . فنحن لا نتردد مثلاً في رفض إعطاء رخصة قيادة سيارة لشخص يحتمل أن يرتكب حادثاً بسبب عجز جثماني أو عقلي ، مع أنه في الواقع قد يكون قادراً على التغلب على عاهته هذه . ان الوسائل التي تستعين بها الادارة السرية السوفياتية على الاختيار تجعل من الضروري منع الأبرياء منعاً باتاً من تولي الوظائف التي تنطوي أعمالها على أخطار تلحق بالأمن عندما يكون ثمة أسباب قوية تحمل على الاعتقاد بأنهم سيكونون أهدافاً واضحة للادارة السرية السوفياتية ، ومن ثم فانه ، في حين أن اعتناق الشيوعية ليس جريمة ، إلا أنه قد يكون من الضروري منع زوجة الشيوعي من تولي وظيفة من هذه الوظائف . ذلك أن التجارب قد دلت على أنها ستكون هدفاً سهلاً للضغط أو التهديد . بينما

نرى الأحرار الحقيقيين يهتمون بالمحافظة على الحرية وتفادي المطاردة اهتماماً نجدهم على حق فيـــه ، إلا أننا يجب ألا نلهو ونحن في يد غريمنا . والتذرع بالاضطهاد يمكن أن يكون الملجأ الأخير الذي قد يلجأ إليه الوغد ، وشأنه في ذلك شأن التذرع بالوطنية الحارة .

وستظل المشاكل التي تثيرها وسائل الفحص والملاحقة (المطاردة والتطهير وما إليها) مصدر خلاف في الرأي ، وستدعو الحال إلى علاجها علاجاً دقيقاً أساسه الروية والتدبير ، إلا انه لن يكون ثمة خلاف في الرأي تقريباً على القول بأنه إذا شاءت الديمقراطيات أن تصد حملات الادارة السرية السوفياتية بكفاية فانه يجب عليها أن تكون مستعدة لأن تنفق على المخابرات المال والجهد أكثر مما تنفق بكثير . ونحن لو قارنا قوات الغرب المكافحة للجاسوسية حتى بعد أن وسع نطاقها حديثاً بقوات التشيكا الضخمة ، لبدت لنا قوات الغرب قاصرة قصوراً يبعث على الضحك . وليست الكمية هي كل شيء طبعاً ، ولكن لها مع ذلك أهميتها . والمطلوب من الرجال عدد معين يكون هو الحد الأدنى ، وهذا الحد الأدنى هو أعلى بكثير من أي عدد من الرجال استخدمته بريطانيا مثلاً . والرقابة التي لا تلين هي إحدى دعائم مناهضة الجاسوسية وتحتاج إلى عدد كبير من الرجال . ولنذكر العلماء الذين لم يستطع ياكوفليف أن يقابلهم قط لأنه لم يستطع أن يضلل مراقبيه ، أو العميل البولندي الذي قبض عليه آخر الأمر في موسكو لأنهم كانوا يتعقبونه تأدية لواجب عادي . ولم يفلت من المراقبة أحد ممن قدموا من الغرب واجتازوا الستار الحديدي ، وذلك من السفير إلى رجل الأعمال أو الصحفي ، وأنا لا أقول ان المراقبة على هـذه الصورة ضرورية أو مرغوب فيها في البلاد الغربية ، ولكن يجب ألا تحول مصادر هيئات مكافحة التجسس ، مهما كان من نقص رجالها أو الاعتمادات الموضوعة تحت تصرفها ، دون ترك الأشخاص الذين تهتم بأمرهم بغير رقابة تفرض عليهم . وما زلنا ننظر إلى إدارتنا السرية بوصفها هيئات مساعدة للقوات المقاتلة ، لا سلاحاً رابعاً مستقلاً بذاته ، ومثل هذا الموقف قد يكلفنا عشرة ملايين من الجنيهات تنفق

على حاملة طائرات ثم تغرق في أول معركة لها ، لأن نصف هذا المبلغ قد ضننا به على هيئات مكافحة الجاسوسية لعام كامل ، ان المخابرات التي تبلغ المرتبة الأولى لهي ، في كل ميدان ، من دواعي الاقتصاد . والعزوف عن الانفاق قد كبّد الدول من الخسارة قدر ما اقتصدته من المال آلاف المرات . ولا يقتصر الأمر على الانفاق على الرجال ، فان الادارة السرية السوفياتية تنفق الملايين سنوياً في دفع ثمن المعلومات أو توزيع الرشاوى . ويجب أن يستعد الغرب لمقابلة الأمر المثل ، ومهما بدا ذلك كريهاً ، كما تقابل كل فرقة عسكرية بفرقة عسكرية ، وثمة أدلة على أن فرصاً عظيمة ضاعت خلال الحرب بسبب السياسة الرسمية التي كانت تقضي بأن إنفاق خمسمائة جنيه على شراء المعلومات مبلغ كبير لا يجوز إنفاقه في هذا الوجه .

ولعلنا نسلم بأن إساءة استعمال المزايا الديبلوماسية بطريقة منتظمة ، واستخدام المنظمات « الثقافية » والبعثات التجارية في التجسس والتدمير بمعرفة الاتحاد السوفياتي ، من الوسائل التي ستظل وتستمر . ومنذ بدأت روسيا البلشفية في استقبال البعثات الديبلوماسية كان كل عضو من أعضاء هذه البعثات، من السفير حتى أصغر كاتب، يعامل في موسكو كأن هدفه الحقيقي هو التجسس. وكان الميل في الغرب منصرفاً إلى اعتبار هذا التصرف من قبيل « التجسس » أو أنه أمر يدعو إلى الضحك والسخرية ولو كان أولو الأمر قد استنتجوا من هذا أن الديبلوماسيين الأجانب يعاملون في موسكو معاملة الجواسيس ، لأن الديبلوماسيين السوفيات في الخارج ، كانوا يقومون بأعمال الجاسوسية فعلاً ، لتجنبوا كثيراً من الضرر الذي وقع .

ولقد كان على الغرب أن يوفق بين الديبلوماسية والتجسس مجتمعين ، لا بإضعاف العلاقات الدبلوماسية، بل بالاطمئنان إلى اقتصارها على الدبلوماسية. وقد اتخذ رجال الدفاع عن الغرب خطوة في هذا السبيل عندما ألحوا في وجوب خضوع الديبلوماسيين القادمين من بلاد الستار الحديدي إلى نفس القيود على حركاتهم التي يخضع لها ديبلوماسيوهم في موسكو . وقد يكون من الضروري

فرض نفس الرقابة ، لا على الديبلوماسيين وحدهم بل على كل الموظفين الذين دلّت التجربة على أنهم يستخدمون للتجسس . ولا يمكن للمراقبة أن تمنع التجسس منعاً باتاً،بل هي تجعله أمراً شاقاً، وخاصة الاتصال بالمبلغين الوطنيين. ولكن المراقبة باهظة التكاليف فيما يتصل بالرجال اللازمين لها . ففي لندن نحو ٤١٠٠ ديبلوماسي موفدين من ٢٦ دولة . ومن الواضح أن من المستحيل مراقبة حركاتهم وسكناتهم جميعاً ، ولكن إذا زوّدت أجهزة المراقبة بما يلزمها من الرجال فلن يكون من المستحيل مراقبة المائتي ديبلوماسي أو نحوهم القادمين من وراء الستار الحديدي .

وكثيراً ما استخدمت الادارة السرية السوفياتية العلاقات الرسمية والاجتماعية ، كما دللت على ذلك بالأمثلة الكثيرة للسير قدماً بأعمال التجسس . وإذا نحن اعتقدنا – ويجب أن نعتقد – أن أكبر أمل في تحويل الروس عن الطريق الذي وطدوا أنفسهم عليه هو في تهيئة كل فرصة لهم لمشاهدة وفهم طريقة الحياة الديمقراطية ، وبذلك نقضي على هذه الاتصالات ، لكان اعتقادنا هذا حماقة وخرفاً . ذلك أن العامل الحاسم في كثير من حالات الانحراف قد يكون هو الخوف ، أو عدم الرغبة في العودة إلى الوطن ، أو الخوف من التطهير . فقد اعترف بعض من ارتدوا حديثاً مثلاً على أنهم كانوا من رجال بيريا . وليس ذلك العامل هو الاعجاب بطريقة الحياة الديمقراطية أو نبذ الأفكار الشيوعية فجأة . على أنه مما لا شك فيه أن عدداً معيناً من حالات الانحراف ترجع، في صدق وإخلاص ، إلى تفضيل الأفكار الديمقراطية ووسائلنا في الحياة . وعلينا في الوقت نفسه أن نظل على إدراكنا بأن كل رجل يأتي عن طريق الستار الحديدي ، سواء أكان ديبلوماسياً سوفياتياً أم زائراً من الاتحاد السوفياتي ، يكون قد خضع لفحص دقيق من جانب التشيكا وانه قد يكون عميلاً سرياً يقبل الضيافة ولا يجدها حائلاً يحول دونه ودون تكدير صفو مضيفه .

أما الرجل العادي في الديمقراطية الغربية فالسياسة بالنسبة إليه شيء يختلف

عن هذا ، ومن الصعب عليه أن يدرك أن الشيوعي لا يدين إلا بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة. وهو ينتهز الفرصة أثناء عرض فيلم سينمائي، أو حفلة كوكتيل، أو إضراب بسبب الاجر ، أو اجتماع في سبيل السلام ، ليستخدمها معيناً له على أغراضه السياسية ، فإذا نحن أدركنا هذا حق الادراك لاتخذنا منه سلاحاً ماضياً ضد نشاط الادارة السرية السوفياتية . ذلك اننا سنحرم عملاءها من وسيلة من وسائل التسرب إلى المجتمعات . ولقد انحط قدر الاحزاب الشيوعية في الدول التي تتكلم الانكليزية من الوجهة السياسية انحطاطاً دعاها الآن إلى أن تبذل أقل مجهود ممكن للحصول على المقاعد البرلمانية . وقد قصرت بجهودها على التسرب إلى النقابات والجمعيات الثقافية والنوادي الاجتماعية . وسيتكفل الزمن وتعاون الجمهور على حرمانها من هذا النشاط أيضاً ، مما يترتب عليه الاقلال من فرص التدمير .

وبالرغم من قصة النجاح المتصل الذي لم يشبه الفشل تقريباً الذي كان من نصيب الادارة السرية السوفياتية على ما رويناه في هذا الكتاب ، وبغض النظر عن قوة تلك الادارة العظيمة ، فانه لمن الخطر ان نرسم صورة كئيبة للمستقبل ونقدّر ألا علاج لها . فالهروب من صفوف التشيكا ، وقد كثرت حوادثه في السنوات الأخيرة ، يدل على أن من الممكن اقتحام صفوف الادارة السرية السوفياتية ، بالرغم من دقة اختيار عملائها وحسن تدريبهم . وكل محاكمة أو تحقيق يفضح وسائلها ومن يعاونونها من الطابور الخامس داخل الأحزاب الشيوعية ، وهو بمثابة الدرس لمن هم على سلامة طويتهم منا ، ويجب ألا نحسب أن النجاح كله كان في جانب واحد . وليس من الحكمة أن ننشر ما أصابته هيئات المخابرات الغربية من نجاح ، على أنه يجدر بنا أن نسجل هنا بياناً أدلى به منذ وقت غير بعيد عميل رفيع الرتبة من عملاء التشيكا هو الليفتننانت كولونيل برتلسكي من وزارة الشؤون الداخلية السوفياتية ، وقد لجأ إلى الغرب إذ قال :

«وأعتقد أن عملاء المخابرات الغربية قد تغلغلوا في حكومة الاتحاد السوفياتي»

وجيشه ، ومنظماته الشيوعية ، وربما في أعلى المستويات . ولقد علمونا (في كلية بموسكو لضباط الشؤون الداخليـــة) أن المخابرات البريطانية مدربة أحسن تدريب وذات كفاية خاصة » .

الفهرس

صفحة

صفحة

قدري قلعجي



دار الكاتب العربي

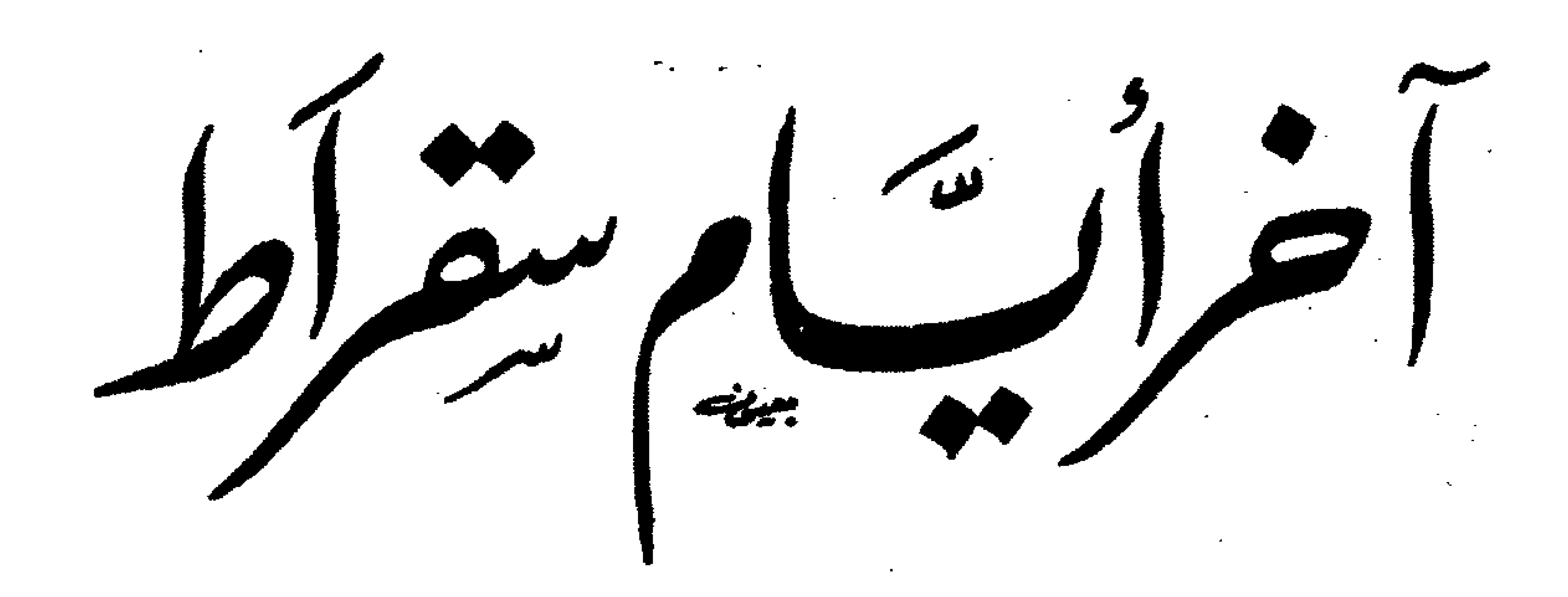
فتح القسطنطينية

وسيرة السلطان محمد الفاتح

بقلم
الدكتور محمد مصطفى صفوت
استاذ من جامعة ليفربول
ودكتور من جامعة لندن

منشورات الفاخرية - الرياض
ودار الكاتب العربي - بيروت

افلاطون



نقله الى العربية
احمد الشيباني



دار الكاتب العربي
بيروت